

أنيس فلهو

<http://www.makbtna2211.com/>

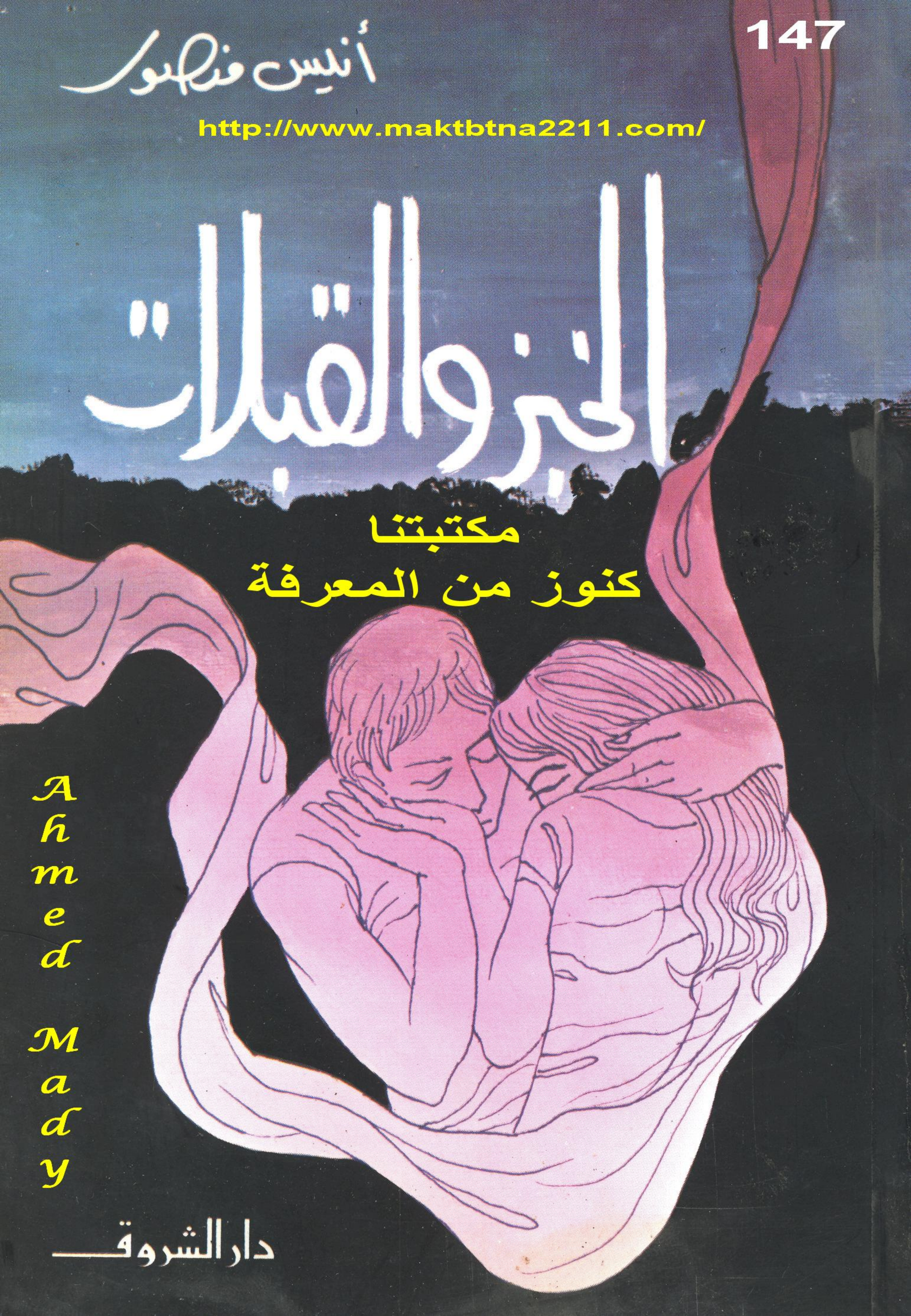
الحز والقليل

مكتبتنا

كنوز من المعرفة

A
h
m
e
d
M
a
d
y

دار الشروق



« . . إذا تكررت كلمة « قرد » كثيرا في هذا الكتاب ، ففي استطاعتك أن تضع مكانها أى « إنسان » . . ففي إمكانك أن تقول : أنا وأنت وهو وهى ونحن جميعا « قروود » .

« وهذا الكتاب يغريك بأن تنظر باحترام إلى كثير من الحيوانات ، فليست هذه الحيوانات إلا بشرا بلا حياء . . وبلا كذب . . ولذلك نخجل الإنسان أن يراها أو يحن إلى رؤيتها . . ولكنه لا يستطيع أن يغمض عينيه عنها .

« ولا يكفي أن ننظر ، ولكن يجب أن نطيل النظر إليها . . سنجدها مسلية وممتعة . . ومهما بدت هذه الحيوانات مضحكة ، ففي وسعك أن تفتش بين أصدقائك وزملائك وأعدائك ، لتجد من يشبهها فى كل شىء .

« ونحن جميعا حيوانات ! أمام الخبز والقبلات . . أى عند البحث عن الطعام والجنس ، عن الرغبة والقبلة » .

من مقدمة هذا الكتاب الذى يسجل رحلة عقلية نفسية عميقة . .

فكاتبنا الكبير أنيس منصور الذى حصل بفضل ملايين القراء على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣ ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ وأول عربى يحصل على جائزة « التأليف والإبداع » بين كل مؤلفى العالم الثالث سنة ١٩٨٣ .

وفى كل سطر من سطور الكتاب : علم وفن . . معلومة وابتسامة وإضافة إلى رصيد الفكر والأدب العربى الحديث .

AL-OBEIKAN



1082579

SR 15.00

أنيس فتوة

الخبر والقبلا

دار الشروق

كلمة أولى ..

لم يترك الانسان صفة من الصفات لم يضيفها إلى نفسه.. فهو وصف نفسه بأنه حيوان، وبأنه جماد وبأنه نبات وبأنه نصف إله. وبأنه إله أيضا..

وعندما قال الفيلسوف الألماني ليبنتس أن الذى يقدر على العزلة :
اما أن يكون حيوانا أو إلها، جاء الشاعر الألماني جيته فقال : أو..
هما معا !

أى الانسان هو الذى يوصف بأنه إله وحيوان فى وقت واحد.. به صفات العقل وبه غرائز الحيوان..

والتاريخ، هو الذى سجل مجد الانسان وصفحة مهارته أيضا،
يصور لنا كيف كان الانسان عاقلا ومجنونا، مبدعا ومدمرا، بلا عقل..
أو أنه كان يستخدم عقله فى القضاء على عقله أيضا !

وحاول الانسان أن يجعل أجداده من سكان السماء... وأنه هبط
إلى الأرض..

والاديان تقول لنا أن آدم كان «فوق» وأن حواء التى هى ابنته وزوجته قد نزلت به إلى «تحت».

وأنه من ذلك اليوم قد انغمس فى «تحت» ويحاول أن يتسامى إلى «فوق»..

والدراسات الاثرية الحديثة تقول لنا أن الانسان ليس إلا كائننا عاقلا هاجر من كواكب أخرى إلى هذه الأرض*

وبعض العلماء يرى أنه لا داعى لأن نبحث عن أصل الانسان، وإنما أن نتجه إليه هو.. فهو عقدة العقد... وأن نستعين بالحيوانات الأخرى على فهمه. ففى داخل الانسان كل ما حوله من حيوانات أخرى.. فهو تعلق عند اللزوم وهو ذئب وهو ثعبان وهو حمامة سلام وهو مجرم حرب..

ولكن لا يزال القرد بالذات هو أقرب الحيوانات إلينا.. ولكى نفهم الانسان يجب أن نتجه إلى القرد.. فهو أستاذنا والذى يفعله القرد بغير عقل، هو الذى نخفيه نحن بمنتهى العقل، ولذلك إذا أردنا أن نرى صورنا الخفية فعلينا أن نذهب إلى حديقة الحيوان وأن نتفرج على أنفسنا فى الأقفاص وفى «جبلاية القروء». (جبلاية القروء هو تعبير مصرى نطلقه على المناطق التى تعيش فيها القروء فى حديقة حيوانات الجيزة.. فهى ليست جبلا ولكنها جبلاية – أى جبل صغير. وقد أقمنا هذا الجبل الصناعى لعل القروء أن تجد نفسها فى بيئة طبيعية. مع أن الحديقة هى سجن صنعناه للقروء. ولذلك فهذه القروء

* انظر كتابى «الذين هبطوا من السماء».

تتصرف كما يتصرف أى سجين بلا أمان ولا راحة ولا صحة. ولذلك
تمرض.. وتنقرض حيوانات كثيرة فى هذا المنفى وهذا الزحام
المخيف).

والدراسات الممتعة التى أصدرها الكاتب الانجليزى دزموند
موريس هى أروع ما عرفنا - فى السنوات العشر الأخيرة - وأنا لم
أرفع عينى عن مؤلفاته.. ولذلك فأنا شديد الإعجاب به والامتنان له..
فقد عاش هذا الكاتب الانجليزى هو وزوجته يتابعان سلوك
الحيوانات: القرد وحيوان الباندا الصينى سنوات طويلة. وصدرت
لهما دراسات رائعة. وهو يستمتع بقدرة هائلة على الملاحظة الدقيقة.
وبراعة فى التعبير وفى المقارنة بين الانسان والحيوان.

وكذلك ما كتبه زميله ليال واطسون مدير حديقة حيوان
جوهانسبرج بجنوب إفريقيا فقد صدر له كتاب عن عادات الانسان فى
الاكل والشرب وهو أيضا لم يرفع عينه عن الحيوانات الأخرى. أما
كتابه فعنوانه: «القرد الذى يأكل كل شىء» وهذا القرد ليس سوى
الانسان طبعاً. فالحيوانات جميعاً تقتصر على أنواع محددة من
الطعام. فمنها النباتى والحيوانى. ولكن الانسان يأكل النبات
والحيوان. والحمار يأكل البرسيم والفأر يأكل الجبن والقط يأكل
السّمك.. ولكن الانسان يأكل الجميع وفى كل وقت. بل إن ساعات
الراحة عند الانسان ليست إلا فترات بين وجبات... ثم أنه لا يوجد
عنده موسم للرغبة الجنسية.. فهو يشتهى على مدار السنة.. وأنثى
الانسان تلد فى أى وقت.. ومعدة الانسان تتلقى وتهضم ما يساوى
طنا كل سنة.

وعنده هذه القدرة على التكيف في الطعام والشراب ومع البيئة
ومع الحيوان ومع الناس – ولذلك عاش وماتت وانقرضت حيوانات
أخرى كثيرة !

والذى يحدث في « جبلاية » القروء يقع في كل بيت .. وكل مصنع وكل
جمعية .. ولكن بصورة أعمق ..

فإذا تكررت كلمة « قرد » كثيرا في هذا الكتاب ، ففي استطاعتك أن
تضع مكانها أى إنسان .. ففي استطاعتك أن تقول : أنا وأنت وهو
وهى .. ونحن جميعا ..

وهذا الكتاب يغريك بأن تنظر باحترام إلى كثير من الحيوانات ..
فليست هذه الحيوانات إلا بشرا بلا حياء .. وبلا كذب .. ولذلك يخجل
الانسان أن يراها أو يحن إلى رؤيتها .. ولكنه لا يستطيع أن يغمض
عينه عنها ..

ولا يكفى أن ننظر ولكن يجب أن نطيل النظر .. في النظر إليها
أشياء مسلية وممتعة .. ومهما بدت هذه الحيوانات مضحكة ففي
استطاعتك أن تفتش بين أصدقائك وزملائك وآباءك وأعدائك من
يشبهها في كل شيء ..

وكلنا حيوانات عند : الخبز والقبلات .. أى عند البحث عن الطعام
وعن الحب ..

عن الرغبة وعن القبلية .. عن الذى تملأ به المعدة وتملأ به
القلب ..

ويحدث كثير أن نجد الحب ولا نجد الرغبة.. أو نجد الجنس ولا
نجد الحنان..

وفي زحام المدن يتولد الاصطدام، ويتولد الخوف والكراهية
والمنافسة حتى الموت.

وهذا هو العذاب الذي يعانيه الانسان.. في كل عصور التاريخ..

في المدن وفي القرى.. وعندما يكون وحده وعندما يكون مع الناس
كيف؟

تفضل واقرأ هذه الصفحات !

أنيس منصور /

زہام .. زہام
زہام فی کل مکان!

الدبابيس والصمغ والسلاسل..

(١)

زحام على المحطات وعلى سلالم الاتوبيس وفي داخله وعند النزول. في
الذهاب والاياب. وفي الملاعب والملاهي والملاجئ والمستشفيات
والجنازات. الناس يدوسون بأقدامهم أيديهم وبأيديهم يسحقون رؤوسهم
وبمعداتهم يضغطون على قلوبهم.

وبعقولهم يفسدون كل شيء. ويتخاطفون لقمة العيش وقطرة الماء
والدواء. ويتعجلون الحياة ويستعجلون الموت. وفي المدن الكبرى لا يبالي
أحد بأحد. ولا يرى ذلك ضروريا. ويشكون من الزحام ويتوحدعون من مرارة
الوحدة. ويتقاربون ويتلاصقون ويتتاعبون من الملل.

ونقول في أسى، تعليقا على حالنا: لقد أصبحنا غابة، الكبير يأكل الصغير
والصغير يسرق الكبير. وأنت وشطارتك؟

وهذه الرؤية صحيحة، ولكن التعليق عليها هو الخطأ.. أكبر خطأ. ومن
هنا يبدأ المفكر الانجليزى العظيم دزموند موريس السطور الأولى من كتابه
الرائع (حديقة الانسان) ولا أعتقد أن مفكرا استطاع أن يدرك بذكاء

وعمق أوجاع الحياة الانسانية وأسبابها في العصر الحديث، كما فعل هذا المفكر الكبير.

وكل ما أطلبه من القارئ أن يتأنى في القراءة، وأن يفكر، لأنها مسألة جادة. ولأننا - نحن قراء الصحف ومستمعي الاذاعة ومشاهدي التليفزيون - قد اعتدنا على السرعة في القراءة وفي الكتابة وفي الكلام وفي الطعام. ولكن من الواجب أن نعتاد أحيانا على أساليب أخرى. فالحياة جادة، ولا يمكن أن يتقدم الانسان، أو المجتمع، إذا لم يكن جادا في عمله وفي لعبه أيضا..

وبهذا التنبيه أكون قد دخلت في قلب الموضوع الذي أكتب عنه. ومن المناسب أن أرجع قليلا لأبدأ من البداية..

فنحن تحت ضغط الحياة اليومية الحديثة ننظر إلى المدينة الكبرى على أنها غابة من الأسمنت المسلح. وهذا التعبير ليس دقيقا. لأن الغابة ليست كذلك. فالحيوان في الغابة لا يعرف القتل بالجملة. ولا الشذوذ الجنسي ولا قتل الأطفال. ولا قرحة المعدة ولا تكديس الأشياء وتقديس الأشخاص. فهل معنى هذا أن الحيوان لا يفعل ما يفعله الانسان الآن في المدينة؟

والجواب: يفعل الحيوان كذلك. ولكن في.. «حديقة الحيوان» فقط. فالحيوان في أقفاص الحديقة يمارس كل أنواع الشذوذ. ولذلك فالمدينة ليست غابة، وإنما هي «حديقة حيوان».. ولذلك فنحن يجب ألا نقارن بين ساكن المدينة، وساكن الغابة، وإنما بين ساكن المدينة وساكن أقفاص الحديقة. والانسان في المدينة ليس مسجوناً في قفص، وإنما سجين عادات وتقاليد ولوائح ونظم وقوانين. وهو الآن يعاني من فزع هائل: هو أن يقتل نفسه بنفسه. هو أن يقضى على عقله بعقله؟

فالحَيوان في الحديقة يختلف عن الحيوانات في الغابة. فالحديقة قد وفرت له الكثير من الوقاية والعلاج والطعام. أن الحديقة مثل أبوين قد دبرا كل شيء.. وحيوان الحديقة أصبح عنده متسع من الوقت. ولا يدري ما الذي يصنعه في هذا الانتظار الطويل.. بعض الحيوانات يتمدد في كسل في الشمس. بعض الحيوانات ينام، وبعضها يروح ويجيء في قلق مستمر. كأن هذه الحيوانات لم تفقد الأمل في تحررها من هذه الأقفاص وعودتها إلى الغابة، والمدينة قد وفرت للإنسان الطعام والعلاج والحماية وأصبح عنده متسع من الوقت.. ولكن الإنسان لا يطيق هذا الكسل. فهو حيوان يريد أن يعرف وأن يجرب وأن يخترع.. وكلما حاول الإنسان أن يجرب ويغير دخل في إطارات جديدة. ونظم جديدة وخطط جديدة: في قيود جديدة وأقفاص جديدة؟

وتاريخ الإنسان ليس إلا قصة الصراع المستمر لدفع التقدم ومواجهة نتائجه بعد ذلك. فنحن ضحايا ما نعمله.. نحن ضحايانا؟

ولا يمكن أن يدعو أحد إلى العودة إلى الغابة وإلى الكهوف.. فالإنسان بعبقريته قد حقق المعجزات. وهذا واضح لنا. والإنسان قد أصبح قويا، هذه هي نقطة الضعف الوحيدة فيه. وسوف يزداد الإنسان قوة، ويزداد ضعفا أيضا ولا أحد يتصور أن هذه المباراة الطويلة يمكن إنهاؤها (بصفارة الحكم) فيخرج اللاعبون ويخطف المتفرجون الكرة. فحياتنا مباراة: نحن اللاعبون والمتفرجون والكرة والصفارة والمتعة والخوف وتكرار المتعة والخوف بعد ذلك. وإنما كل ما نريده هو أن نبحث عن طريقة أخرى للعب، ونستأنف المباراة.. دون أن نقضى على الإنسانية كلها؟

أرجو أن تتابعنى في الاقتراب من موضوعنا أكثر وأكثر..

دعنا نتخيل قطعة أرض مساحتها مائة ألف فدان. هذه الأرض غابة بها حيوانات كبيرة وصغيرة. ثم لنتخيل جماعة من الناس أقاموا وسطها. وليكن عددهم مائة شخص مثلا. ولتكن واحدا من هؤلاء الناس : فردا في هذه القبيلة، والأرض حولك ممتدة، والرجال يطاردون الحيوانات.. والنساء يجمعن الثمار والأطفال يلعبون في صخب. ثم تتوالد هذه القبيلة وتظهر قبائل أخرى..

دعنا نتخيل نفس المساحة من الأرض وقد تحضرت، ظهرت البيوت والشوارع والمصانع والمؤسسات والهيئات وأصبح عدد السكان عشرة ملايين نسمة وأنت واحد منهم. ثم انظر إلى الصورتين وقارن بينهما. إن هذا التغيير لم يحدث في ليلة، وإنما في ألوف السنين. وهذا يدل على أن الانسان قد توافق مع البيئة وسيطر عليها. ولكن الانسان لم يتغير من الناحية الجسمية والنفسية فهو مايزال ذلك الانسان « القبلى » الذى نراه في الصورة الأولى. ولا بد أن الحياة كانت قاسية معه وعليه. ولا بد أنه بذل جهودا هائلة لكى يصل إلى ما نحن عليه الآن..

فالانسان الصياد. انه مايزال صيادا. تغيرت ملابسه وأسلحته. ولكن ماتزال عنده نفس الرغبة، ونفس الفرحة بالضحية.. ولو أخذنا طفلا من العصر الجليدى. أى طفلا عاش من عشرات الألوف من السنين، وربيناها بيننا الآن، فإن أحدا لن يدرك الفرق بينه وبين بقية الأطفال. ثم انحسر الجليد في الشمال، وذهبت معه الحيوانات ذات الفراء.. وبقي الانسان صيادا أيضا. والنقوش في الكهوف تدل على ذلك.

وبنهاية عصر الجليد ظهر عصر الزراعة عند ملتقى قارات آسيا وأفريقيا وأوربا. والانسان قبل عصر الزراعة كان يأكل عن طريقين : الحيوانات التى

يصيدها الرجال، والثمار التي تجمعها النساء وفي هذه المنطقة من العالم ظهر القمح والشعير والماعز البرية والأغنام والخنازير التي جذبتها المزارع، جاءت لتأكل وليأكلها الانسان أيضا.. وتعلم الانسان استئناس الكلاب ولم يأكلها. وإنما جعلها حارسا ورفيقا. وبشيء مماثل لذلك حدث في مكانين آخرين: في جنوبى شرقى آسيا ظهر الأرز، وفي أمريكا الوسطى ظهرت الذرة. وبعد ذلك تحولت هذه الحيوانات التي استأنسها الانسان، والنباتات التي ألفها الانسان، إلى طعامه الرئيسى.

وإذا كان الانسان أيام الغابة يأكل ما يحصل عليه، فإنه في عصر الزراعة اعتاد أن يكون لديه فائض من الطعام. هذا الفائض أو الحرص عليه هو الذى فتح للانسانية أبواب الحضارة. لأن القبيلة أصبح لديها ما يزيد على حاجة أفرادها أى أنه ليس من الضرورى أن يعمل كل أفرادها. ومعنى ذلك أن القبيلة في استطاعتها أن تكبر دون خوف. وأن يقوم بعض رجالها بأعمال أخرى غير البحث عن الطعام، لا بعض الوقت ولكن كل الوقت.. لقد ولد عصر التخصص؟

ومن هذه البدايات الصغيرة ولدت (المدينة).

وهذه المدينة.. قد اجتازت طريقا عسيرا. فهي لم تظهر من تحت الرمال في ليلة. وإن كانت هناك حياة بدائية ماتزال قائمة حتى الآن على أطراف الصحارى الرملية والجليدية. وهذه المدن ظهرت أول الأمر متباعدة متفرقة في جنوب شرقى آسيا وحول الأرض المزروعة.

وأقدم مدينة عرفها الانسان هي مدينة أريحا في فلسطين، التي ازدهرت منذ ثمانية آلاف سنة. وأقدم حضارة عرفها الانسان هي حضارة «سومر»

في العراق التي عرفت الادارة والعمارة والطب والمواصلات. وكانت المدن السومرية صغيرة تضم ما بين سبعة وعشرين ألف نسمة. وفي هذه المدن تحولت القبيلة الصغيرة إلى قبيلة أعلى. والفرق بين القبيلة البدائية والقبيلة العليا: أن العلاقات بين أفرادها أصبحت غير شخصية.. فقط علاقات الجوار أو الزمالة في العمل أو العضوية أو الإقامة في مدينة واحدة؟ وهذا التغير الجوهري سيكون ينبوع العذاب للإنسان ألوف السنين. فنحن لم نتغير نفسيا وحيويا لمواجهة هذا العدد الهائل من الغرباء.. الذين هم في نفس الوقت أفراد قبيلتنا الكبرى. فنحن مانزال نعيش معهم وبهم وضدهم. نعاونهم ونحاربهم، سرا وعلنا.

إنها بداية الشعور بالغربة والغربة والضياع.

ولما كبرت القبيلة كان لابد من وضع القيود عليها، لحراستها وضبطها. ولذلك ظهرت القوانين، أي الأقفاص الحديدية والحريرية في نفس الوقت.

ومن الواضح في الحضارة الفرعونية واللاغريقية والرومانية حرصها على القانون والتشدد في التطبيق. ولم يكن أبناء هذه الحضارات كبيرى العدد. فأهل بابل كان عددهم سنة ٦٠٠ ق.م لا يزيد على ثمانين ألفا، وأهل أثينا لا يزيدون على ثمانين ألفا.. وربع هذا العدد فقط كان يسكن مدينة أثينا. أما بقية سكان دويلة أثينا فمن التجار الغرباء والعبيد والفلاحين.. ومدينة أثينا اليوم تقرب من المليونى نسمة.

وكانت مثل هذه «الدويلات» تضاعف مواردها بالتجارة أو بالغزو. روما نفذت الاثنين وكان اهتمامها بالغزوات أكثر، وفي نفس الوقت تفوقت في الادارة وفي الفنون العسكرية حتى أصبحت أكبر مدن العالم في ذلك الوقت.

فقد بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. وأصبحت نموذجا لدول كثيرة
زمننا طويلا.

وبعد ذلك كبر المجتمع وتشابك وتعقد. وأصبحت العقدة أعقد.
والجماهير أكثر كثافة. والأقلية الأرستقراطية أقل. والعلماء أعلم والضغط
أعنف، والحرمان أوجع والعلاقات الانسانية أقل إنسانية. والعلاقات غير
الشخصية اتسعت واستقرت. حتى أصبحت اللامبالاة قانونا يبالى به
الناس. وكل ذلك يؤكد عظمة الانسان، إذ كيف استطاع رغم هذا كله أن
يصل إلى ما وصلنا إليه؟!

والانسان لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بالقيود والتحرر منها، والدخول
في قيود جديدة. والانسان يعطى قيادته لواحد من أبنائه. ومن المألوف في
عالم القردة أن نجد أقوى الذكور يحكم القبيلة. وعلى الرغم من قسوته،
فإنه في ساعة الخطر يتقدم الجميع لحماية أفراد القبيلة وإذا تضخمت
القبيلة انفصلت منها جماعة تكون قبيلة أخرى. ولم نجد في عالم القردة،
قردا واحدا يعيش بمفرده. ومن المألوف عند القردة أيضا أن نجد الذكور
تختلف فيما بينها ولكن إذا هوجمت القبيلة اتحدت القردة، وإذا انتهى
الغزو عادت الذكور إلى خلافاتها التي لا تنتهى.

وإذا عدنا إلى الانسان نجد أن الانسان يتعاون في مواجهة الخطر
الخارجي، ويتنافس في مواجهة الخطر الداخلي، فالتعاون والتنافس قوتان
تشدان الانسان وتتحكمان فيه والانسان عندما تحول إلى صياد كان في
حاجة إلى التعاون في مواجهة الوحوش. ولكنه بعد ذلك يتنافس في الحصول
على فائدة أكبر. ومنذ فقد الانسان العلاقات الشخصية بين أفراد قبيلته،
وهو يواجه ضرورة التعاون وضرورة التنافس بصورة مهلكة، ولأن معظم

الناس لا تربطهم صفة شخصية، أصبح التعاون جادا والتنافس حاداً، وهذا التنافس أتاح الفرصة لقيادات وزعامات أقوى وأخطر. وكلما ظهر أقوىاء جداً، ظهر ضعفاء جداً. وإذا كانت القسوة تفسد، فإن الضعف يفسد أيضاً. والضعفاء ينظر إليهم المجتمع على أنهم من قبيلة أخرى. على أنهم غرباء. وهؤلاء الضعفاء يسلمون بهذه الصفة، ويعتدون على المجتمع باعتباره غريباً عنهم، هو نبذهم فنبدوه.

فالذى يسرق مثلاً، لماذا؟ لأنه يقع تحت ضغط المجتمع الكبير. يعاني من التعب والظروف العجيبة. ويواجه الغرباء من الملايين الذين لا يرتبط بهم بأية صلة شخصية. فاللص لا يسرق أحداً يعرفه. وإنما يسرق من لا يعرف، أى أنه عندما يسرق فهو لا يعتدى على أحد أقربائه. أو على قبيلته. وإنما يعتدى على شخص خارج أسرته.

لذلك كان لابد أن يصدر قانون.. ونحن كثيراً ما نتحدث عن «كلمة الشرف بين اللصوص».. أو «قانون الليل» أو «قانون ما تحت الأرض»، وهذه التعبيرات وغيرها تدل على أننا ننظر إلى اللصوص والمجرمين من أبناء القبيلة العليا على أنهم أبناء مجتمع آخر. جنس آخر. ونعامل المجرم على أنه كذلك.. فنضعه في سجن مع مجرمين آخرين علاجاً مؤقتاً، ولكن وجوده مع المجرمين يقوى صلته بهم. ويخلق من الجميع قبيلة أخرى متماسكة متضامنة لها قانون هو: الاعتداء على المجتمع الكبير.

فهناك قانون دائماً للبقاء «في» المجتمع، وللخروج «عن» المجتمع.

وهناك قانون آخر اسمه «قانون العزل» فنحن نلاحظ بين المواطنين ثقافات مختلفة، واهتمامات متنوعة وديانات وألوانا سياسية ورياضية وفنية.

وكل فئة، لها أسلوب ولها لغة ولها مصطلحات، وكل ذلك يعزلها بعضها عن بعض، ويجمعها حول شيء.. حول اهتمام. ويشابه بينها. وفي نفس الوقت يباعد بينها وبين الفئات الأخرى..

والى جانب مثل هذه القوانين هناك العادات والتقاليد. فمثلا هناك شعوب ترتدى الأسود في أيام الحداد. وشعوب ترتدى الأبيض أو الأصفر، لا خلاف بين هذه الشعوب. ولكنها جميعا تتفق في شيء واحد: هو أن هناك زيا خاصا أو لونا خاصا يميز بين بعض الناس أحيانا ويعزلهم عن غيرهم. وهذا يتضح.. أكثر في الاحتفالات والأعياد والمناسبات القومية.

ومن ضمن القوى الاجتماعية: اللغة. ونحن نتحدث عن اللغة باعتبارها وسيلة مواصلات بين الناس، هي بالفعل كذلك. ولكنها في نفس الوقت تعزل الناس عن الناس. فأبناء كل مهنة لهم مصطلحات. لغة. وبعض المحاكم في أوروبا كانت تصدر أحكامها بالفرنسية. وبعض المطاعم ماتزال تضع قوائم الطعام بالفرنسية أو الانجليزية.

والدين أيضا: قوة تجمع بين الناس، وتفرق بينهم.. والدين له قواعده وقوانينه التي يجب أن يطيعها الناس بلا تفكير أو بتفكير.. وفي داخل الدين الواحد توجد مذاهب.. هذه المذاهب فرقت بين أهل الدين الواحد وجمعتهم حول اهتمامات خاصة. فكان الدين جمع الناس وفرقهم أيضا.

والى جانب القانون والعادات واللغة والدين هناك الحروب. والحرب تربط بين الناس وتجمعهم. وتذيب الفوارق بينهم.. وتجعلهم يستهينون بالخوف والمرض والجوع.. فلا شيء يقوى الناس مثل الخطر الخارجى.

ففى مواجهة «هم» يقوى هذه القوة التي تمسك المجتمع وتهزه هى الدبابيس والمسامير والصمغ الذى يمسك الناس ويشدهم ويوحدهم أيضا.

هذه القوة خلقت زعماءها : الادارى والقاضى والسياسى والزعيم ورجل الدين والقائد. وهذه القيادات تجمع عادة فى يدى حاكم واحد.

وحتى لا يحس الانسان أنه مسلوب الارادة، فإنه يبدى رأيه أحيانا فى اختيار زعمائه وقادته. وهذا الاختيار يجعله يشعر بأنه ينتمى إلى هذه الأسرة، وأنه وحده قادر على تدميرها وتغييرها. وفى انجلترا حاولوا أن يعرضوا مناقشات مجلس العموم على شاشة التليفزيون ليشارك الشعب أكثر وأكثر.. ولكن مجلس العموم رفض هذا المشروع لأنه خشى من أن يتدخل الشعب فى القضايا المتخصصة. وانطفأت هذه الفكرة..

ولأنه لا يمكن السيطرة على كل المجتمع، كان لابد من تقسيمه إلى هيئات ونقابات وجماعات وجمعيات واتحادات. وهذه إعادة جديدة للنظام القبلى القديم. والانسان حريص على هذه التنظيمات لأنه يواجه شيئا رهيبا هو: الضياع فى مجتمع الغرباء.. مجتمع الملايين من أبناء القبيلة الواحدة والذين لا يعرفهم وإنما يزاحمهم فى كل يوم. وعلى الرغم من التقارب والترابط والاتحاد بين الناس، فإنهم متباعدون. ممزقون والحرب تجمعهم، ولكن السلام يفرقهم من جديد.

ولا يزال الانسان يحلم، نعم يحلم، بوحدة الأرض كلها. بالأسرة الانسانية. ولكن يبدو أن هذا الحلم لن يتحقق إلا إذا واجهت الأرض خطرا من أحد الكواكب الأخرى. ومادام هذا الخطر لا وجود له، فسبقى هذا الحلم حلما أو وهما أو هذيانا أبديا؟

وكان هناك حلم آخر: أن يتحد الناس أمام الشاشة الصغيرة.. وأن تكون هناك وحدة تليفزيونية. فالناس يريدون نفس البرامج ونفس الأحداث. ولكن بحسب هذه الوحدة أنها وحدة من جانب واحد. جانب الناس.

فلا يوجد حوار أو جوار أو اتصال بين الذين يظهرون على الشاشة وبين الذين يتفرجون عليهم، فلا سلام ولا كلام ولا علاقة شخصية. ومن المؤكد أن التليفزيون نافع وممتع. ولكن هذه الصلة من طرف واحد.

وعلى الرغم من هذه المحاولات الخائفة القديمة للجمع بين القبيلة الواحدة وبين كل القبائل الانسانية فما يزال الانسان «قبليا» يتعصب لأسرته ولشارعه ولمزاجه ولمذهبه ودينه ولغته وأرضه وعرضه. والانسان ليس مثل «النمل الأبيض» الذى يتحد فى الخلية الواحدة. والانسان يريد فى نفس الوقت أن ينغمس فى الضياع – أى فى «القبيلة العليا» ليعرف ويفهم ويناقش ويبحث عن شىء جديد. أن هذا الانغماس يثيره ويفتح شهيته للحياة الاجتماعية، وبعيدا عن المجتمع. وكما أن هناك طيوراً بحرية لا تتوالد إلا معا على شاطئ ما فكذلك الانسان لا تتوالد أفكاره وأحلامه إلا فى هذا الضياع.. أى فى «التواجد معا».. فالمدن هى مستعمرات للتوالد الجماعى. وهذا هو السبب الوحيد الذى يبقى على التماسك بين أفراد القبيلة رغم ما فيه من عيوب وآلام..

وعلى الرغم من أن سكان المدن الكبرى يعانون الضوضاء والهواء الملوث والزحام والتوترات العصبية والوحدة والملل، فإنهم يحرصون على هذه المدن ويهربون إليها، بنفس السرعة التى يهربون منها. صحيح أننا نشكو من كل مصائب المدينة ونهرب منها إلى الريف أو إلى البحر. ولكننا نعود إلى الزحام بعد ذلك إلى الهواء الملوث والضوضاء والسجائر والقهوة والزحام والشكوى من الناس. ولكن هذا الزحام هو الذى يحرق الأعصاب.. والأعصاب إذا احترقت أضاعت للناس سبلا جديدة للتفكير وللتغيير وعاد الناس من جديد إلى عزلتهم.. تماما كالحيوانات فى الحديقة. كل واحد فى

شقيقته. لا يعرف اسم جاره ولا يعنيه ذلك ويشكو من ضيق المكان ومن اللامبالاة ومن العزلة ومن الملل ومن التعاسة.

وعندما يحاول الانسان أن يصلح هذه الأخطاء، فإنه يقيم الحقائق العامة، ليذهب الناس إليها. وفي زهاب الناس زحام جديد.. ويخلق الملاعب وفي الملعب زحام. وعلى الشواطئ زحام.. فكان الانسان يهرب من مدينة من الأسمت المسلح إلى مدينة أخرى من الرمال أو من الأشجار.

هذا الزحام والتزاحم والضغط والتضاغط والانفجارات النفسية والاجتماعية والأخلاقية، هي التي أدت إلى ما يعانيه الانسان. وسوف نعرض فيما بعد، محاولات الانسان ليتكيف مع هذه الظروف القاسية في حديقته المسلحة بالخرسانة وبالقانون وكيف نجح.. وكيف فشل أيضاً؟

لم يأخذوا علاوة فقتلوا كلابهم! (٢)

البنطلون له زراير. الجزمة لها رباط والساعة لها أسورة. والشوارع لها علامات حمراء وخضراء. والملاعب مرسومة بالجير.. والسيارات لها أرقام وأصحاب السيارات لهم رخص لها أرقام أيضا هناك دائما علامات وخطوط وأرقام وقيود وأصول وقواعد وهي جميعا من صنعنا. صنعناها وجنسنا أنفسنا في داخلها..

وإذا ولد الانسان «قيدنا» اسمه في دفتر المواليد، وإذا مات «قيدنا» اسمه في دفتر الوفيات.. فهو مقيد حيا وميتا!

والناس يقولون إن الانسان القوى يأكل الضعيف، أنها غلبة.. الوحش الكبير يبتلع الوحش الصغير.

ولكن هذا الذى نقوله إهانة للغابة.. فليس في الغابة كبير يأكل الصغير، بل إن الوحوش نفسها لا تأكل الانسان إلا نادرا، وليس في الغابة معارك وحشية، ولا شذوذ جنسى، وإنما الوحشية كلها نراها في حديقة الحيوان في أقفاص الحيوانات، حيث وضعنا الحيوانات في أقفاص، من حديد تراحمت

الحيوانات وتقاربت، وتحت الضغط تضطرب أعصابها وتثور وتخاف وتخيف، ويعتدى بعضها على بعض، والحيوانات – فقط – عندما تكون في أقفاصها تشبه الانسان في بيوته وفي مدنه، الجميع في أقفاص من حديد أو من اسمنت أو من طين.. الانسان في قيوده المادية والمعنوية.. والحيوانات في أقفاصها.. في حدائقها.. هذه مجتمعات الزحام والتزاحم والضغط والتضاغط..

وقد شاء الكاتب الأمريكى العظيم يوجين أونيل في نهاية مسرحية «القرود كثيف الشعر» أن يجعل أحد أبطاله يدخل قفص القرود. يقف أمام القفص أولاً، ويتسائل: اختبر ذكائك.. أيهما القرود.. الذى أمام القفص أو الذى فى داخله؟ الجواب طبعاً: كلاهما قرود.. فكلاهما فى قفص.. ثم عندما دخل أحد أبطال مسرحيته قفص القرود، كان قدراً للمرة الثانية.. فهو فى داخل قفص من صنعه، ثم فى داخل قفص آخر.. أنه قرود مرتين!..

ولابد أن يكون هذا هو شعور الانسان عندما يذهب إلى حديقة الحيوانات.. فهو فى حديقة من القيود.. وهو عندما يدخل حديقة الحيوانات يكون مربوطاً فى عقله وبعقله وفى قلبه، ومربوط الحذاء والبنطلون والقميص والساعة واليد والرجل. يجب ألا يمد يده.. وألا يمد رجله.. فكل شئ يحذره من ذلك.. ولكن عندما يرى أقفاص القرود فإنه يشعر بأن هذه القرود شبيهة به، دون أن يقول ذلك، ولعله عندما يرمى هذه القرود بالفاكهة أو حتى بالطوب.. فلأنها تذكره بنفسه.. ولأنه يكره أن يرى نفسه هكذا.. وهو عندما يرميها بالطوب كأنما يطلب إليها أن تثور، ولكن تثور على من: تثور على الذى قيدها.. أى على الانسان.. لعله هو الآخر يقلدها فيثور على نفسه.. على قيوده!..

وليس غريبا ما يحدث في حدائق الحيوانات من اعتداء الناس على الحيوانات.. انه موقف شاذ، ولكنه مفهوم.. فهو موقف متناقض: لأن الانسان الذى يطالب الحيوانات بأن تهرب من أقفاصها ينسى أنه هو الذى وضعها في الأقفاص.. وينسى أيضا أنه هو نفسه عاجز عن أن يهرب من أقفاصه هو!!

فما الذى يحكمنا جميعا: هذه الأقفاص.. فالحيوانات في حديقة.. والانسان في الأقفاص..

وقديما جدا سئل الشاعر الجاهلى امرؤ القيس:
ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناس
وقال أنه أجاب:
تلك «الموازن» والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا!
ولو لم يجب امرؤ القيس لعرفنا ان هؤلاء الحاكمين بلا سمع ولا بصر
هى القوانين والقواعد والأصول والقيود..

ففى داخل جبلاية القروء حيث القروء بالمئات، زحام شديد حول زعامة هذه القبيلة، أى أن هناك تزاكما بالأيدى والذبول على من الذى يكون زعيما ومن الذى يكون من الحاشية، والسلم لأنه ضيق، فالعراك دموى، القوى يصعد وينتصر والضعيف يموت فى دمه، وفى القتال على السلالم، ومن أجل القمة، تضيع الصغار، ولا تكون أبوة ولا أمومة، وإنما يجد الذكور فى القبيلة أنهم أمام هذه المعادلة: السلالم أو الأسيرة.. الذكور الذين عندهم طموح يدوسون قلوبهم وصغارهم من أجل درجة واحدة على السلم الصاعد، أو من أجل وضع أحسن، أو موقع أفضل، أو خطوة أقرب من الزعيم.

وهناك قواعد ذهبية لتكوين الزعامة بين القروء يتبعونها دون أن يعرفوا ذلك، ومن المناسب أن أنبه الآن بسرعة، أن اختيار القروء – ليس معناه أن الانسان أصله قرد. ولكن معناه أن أجداد أجدادنا كانوا يعيشون في الغابات الشاسعة، وأن الحضارات قد نقلتهم إلى المدن التي هي أقفاص أنيقة، وكل ما حدث لهم ويحدث، يشبه ما يجرى للقروء في أقفاصها.. ولا بد أن يكون سلوك القروء أوضح إذا أردنا أن نفهم الانسان أيضا، وعليك أن تنظر أمامك ووراءك لتفهم ما الذي تفعله : أمام الأقفاص أو في داخلها سوف تجد صورتين لمعنى واحد !

أما هذه القواعد الذهبية فهي.

١ – يجب على زعيم القبيلة أو الحريص على هذه الزعامة أن يظهر قوته، أو يتظاهر بها، والتظاهر بها مهم جدا، فالقرد الزعيم يجب أن يكون رشيق الحركة، منسق الشعر الغزير، هادئا، راسيا راسخا، لا يدخل في معركة لأي سبب، فإذا أقدم على المعركة يجب ألا يظهر عليه القلق أو التردد، كأنه واثق من النتيجة وأنها لصالحه.

ونرى زعيم القبيلة يجلس بعيدا وعلى مكان مرتفع ، ويجلس حوله أفراد حاشيته، قريبين منه، وفي نفس الوقت بعيدين عن بقية القروء وهو يجب أن يكون أعلى مقاما، وأن يؤكد لهم دائما أنهم دونه.. وهذا أوضح عندنا – عند البشر – في ملابس الحكام والعروش التي يجلسون عليها أو المقاعد الكبيرة العالية ذات الشكل الخاص، وفي ملابسهم ونياشينهم، وفي انحناء الناس للحكام.. وهذا الانحناء معناه أن الناس حريصون على أن يبدوا أقل طولا، وأن يظل هو أكثر طولا.. وهذا واضح في السلام والتحية والانحناء وتقبيل اليد..

ولا يزال القضاة يضعون الشعر المستعار في المحاكم، والقواد يضعون النياشين، والقساوسة يرتدون الملابس الفضفاضة.. وكذلك الملوك، وكذلك المحامون، والأساتذة يلبسون الأرواب ويقفون على منصات عالية.. ولا يكفي أن يكون الانسان كبيرا، ولكن من الضروري أن يشعر بذلك وأن يتظاهر بذلك أيضا.. أى أن يبالغ في ذلك.. فالناس العاديون لا يرون إلا ما هو واضح ولا يسمعون إلا ما هو صارخ ولا يتذوقون إلا ما هو لاسع.. وفي جبلاية القروء يحدث ذلك كله أيضا.

٢ - على الزعيم أن يهدد معاونيه من حين إلى آخر، حتى يكونوا على حذر، أو في حالة خوف. نظرة واحدة تكفى، رفع اليد، أو تحريك الذيل وبذلك تشعر الحاشية، إنها حاشية وأنها ليست الزعامة نفسها.. وزعيم القروء يفعل ذلك كثيرا، وبالغريزة، وهو موقف حكيم، فالقروء كالناس لا تخاف إلا بالعين.. بشرط أن يكون الزعيم قادرا على التخويف - دون أن يظهر عليه أى تأثير، فإن التأثير يجعل القروء تحس - غريزيا - أنه هو أيضا مثلها يتألم.. (أن حادثة المكتشف الانجليزى كوك معروفة. فقد ظن أهل هاواى أنه إله أشقر ذهبى الشعر أحمر البشرة، وأنه لا يموت.. فلما ضربوه بالسهام وسالت دماؤه، أدركوا أنه هو أيضا مثلهم، فتشجعوا وقتلوه!)*

٣ - في حالة المعارك الجسمية يجب أن يكون الزعيم وحاشيته قادرين على النصر..

ولكن المعارك بين قبيلتين من القروء تبدأ عادة بتهديد من قبيلة أخرى. وعندما يفشل التهديد النفسى، يبدأ التهديد الجسمى، وبتقديم زعيم قبيلة

* راجع كتابى «حول العالم في ٢٠٠ يوم»، وكتابى «أعجب الرحلات في التاريخ».

من زعيم آخر، هنا فقط ينتصر الزعيم الأهدأ، وينتصر أيضا هو ومعاونوه، ولكن يجب أن ينتصر هو عليهم أولا.. فإذا أنهزم أمامهم انضموا إلى أعدائه.

ولذلك نرى في جبلاية القروء أن التهديد أفضل من الاشتباك، لأن التهديد يؤدي إلى أن تقف قبيلة بعيدا دون أن يحدث اشتباك ودون أن يحدث سقوط لمواقع القوة في الجانبين.. ومن المعارك المشهورة في جبلاية القروء في طوكيو اقترب قرد شاب من زعيم القبيلة وكان وراء القرد الشاب عدد من الاناث والصغار.. ولم يكذ الزعيم الكبير يرى ذلك حتى راح يسقط الأحجار من فوق، وشاءت الصدفة أن تسقط الطوبة على رأس القرد الشاب ويموت، مجرد صدفة، وعندما مات أدارت الاناث ظهورها للزعيم وانتهت المعركة !.

٤ – ويظل زعيم القروء على رأسهم جميعا إذ كان اذكاهم، أى إذا كان لا يعتمد على العضلات فقط وانما على الأعصاب أيضا. فيكون سريع الحركة. سريع رد الفعل. قاسيا غاشما لأنه هو الذى سوف يتخذ القرار النهائى، وفي جبلاية القروء أيضا، لا يهم شكل القرار الذى سوف يتخذه الزعيم، ولكن المهم «طريقة» اصدار القرار.. والقرار الخاطئ الأنيق أفضل عند أفراد الجبلاية، من القرار السليم السخيف.. المهم دائما «صورة» القرار وليس القرار نفسه.. ولذلك تجد زعيم القبيلة عندما يقرر الدخول في معركة أو التهديد بها، فإنه يقوم بحركات تقنع رعاياه، حركات أنيقة قوية غريبة، تبهر رعاياه، ولا يهم بعد ذلك ما الذى يفعله ولا كم عدد الضحايا !..

٥ - الغريزة هي التي علمت زعيم القروء أن يبدأ بالقضاء على الخلافات بين معاونيه. ومن الغريب أن يفتعل زعيم القروء معركة تافهة بين معاونيه.. وهنا فقط يدخل أفراد الحاشية في معارك فرعية، وقد يقتل واحد منهم الآخر، ويظل الزعيم يتفرج، فإذا طالت المعركة فإنه يحسمها فوراً بالقضاء على أقوى الذكور في حاشيته وخصوصاً إذا كان شاباً، فزعيم القبيلة حريص على أن يؤكد للشباب أنه القوى، وهو حريص أيضاً على أن يغرس فيهم الخوف في سن مبكرة.. وفي نفس الوقت حريص على بقاء القبيلة، لأنه لا بقاء لها بغير شباب من القروء، وأهم من ذلك كله أن الزعيم يريد أن يحدد نشاطهم، وأن يجردهم من أية رغبة في القيام بمعارك بعيداً عنه أو قريباً منه أو ضده!.

٦ - وزعيم القروء يكافئ معاونيه وحاشيته من حين إلى حين.. أى أنه يؤكد لهم أن الوجود بالقرب منه مفيد وأنهم يستحقون الامتياز عن غيرهم من القروء. والموقف يحتاج إلى براعة ويقظة، فإن أعطاهم كثيراً اعتادوا على ذلك، واحسوا أنهم يأخذون ما يستحقون، وأنه لا يتفضل عليهم بذلك، وأن منعهم، أحسوا بالمرارة والضيق. ولذلك فالموقف يحتاج إلى براعة من زعيم القروء، يجب أن يمنح بحساب وأن يمنع بحساب.. ويجب أن تكون هناك مسافة بينه وبين أقرب الذكور إليه.. ولذلك فالزعيم عادة بلا أصدقاء وهو يفضل أن يكون بلا أصدقاء، من أن يكون له أصدقاء يتربصون به.. ويفضل أن يكون مخيفاً على أن يكون محبوباً، وأن يموت من البرد في قمة الجبلية، على أن يتراخى في دفع الصداقة والمحبة..

ويروى أحد العلماء أنه حدث أن وضع عدد من القروء في سيارة انتقلت بهم من إحدى الولايات الأمريكية إلى ولاية أخرى، وكان عدد القروء

كبيراً، ففتح للقروء فتحة صغيرة في سقف السيارة، وكان المطر غزيراً، بارداً، وتجمعت القروء كلها في مكان واحد، ولكن زعيم القروء ظل واقفاً فوق صندوق خشبي تحت الفتحة مباشرة، ولم تكد تصل السيارة حتى وجدوا القرد الزعيم ميتاً من البرد.. وكان في موته تأكيد لهذه النظرية، ولكن كان الثمن فادحاً لأن القرد كان من نوع نادر!

٧ - حول الزعيم تتجمع اناث القبيلة، والاناث والصغار هم الجانب الضعيف، وفي نفس الوقع هم مستقبل القبيلة، وإذا وقع أى عدوان على الضعفاء فإنه يرد عليه بعنف. وهى فرصة لاستعراض قوته. وفي نفس الوقت حرص غريزى على كيان القبيلة وتأديب لكل الشبان المتمردين في داخل القبيلة.

٨ - زعيم القبيلة هو الذى يقرر ما يراه مناسباً لأفراد قبيلته.. إذا وقف وقفوا.. وإذا أكل أكلوا، وإذا نام ناموا.. وهذا ما لا يستطيعه شعب أو زعيم بين الناس. ولكن على زعيم جبلاية القروء أن يثير رعاياه من حين إلى حين، ليؤكد للقبيلة أنه موجود وحتى لا يعتاد أفراد القبيلة على الهدوء الذى يؤكد أن وجوده مثل غيابه، لا أحد يشعر به، ومن العجيب أن بعض زعماء القروء يثيرون المعارك في داخل القبيلة، فإذا تحولت إلى معارك دموية يتدخل الزعيم ليفضها، فكأن المطلوب هو تحريك المشاعر فقط.. ومن المواقف المدهشة أن تجد زعيم القبيلة قادراً على افتعال الغضب والقسوة، دون أن يكون هناك أى مبرر.. أنه استعراض لقوته. وتثبيت لأفراد القبيلة: كل في مكانه البعيد عن عرش الزعامة!.

٩ - وكثيراً ما نجد زعيم جبلاية القروء يصادق أحد الذكور من معاونيه بعض الوقت ثم يتركه ويتجه إلى ذكر آخر.. إن هذه الحركة سياسية أو

دبلوماسية بارعة، أنه يثير الغيرة بين الذكور ويقربهم إليه ويبعدهم عنه ويجعل الطمع في رضائه : أعز أمانيتهم.

ولا يتردد زعيم أى قبيلة فى أن يكون زعيما لقبائل أخرى، والمثل يقول : السمكة فى بحيرة صغيرة تفضل أن تكون سمكة كبيرة فى بحيرة كبيرة أيضا - كذلك زعيم الجبلية الواحدة..

وأنت حر بعد ذلك فى أن تكتفى بالنظر إلى جبلية القروء لتجد معنى لهذا كله. أو تنظر فى المرأة، فترى نفسك وغيرك، أنه نفس الشيء..

ومهما اتسع المجتمع، ومهما تقدمت وارتقيت فأنت محصور أو مقيد فى مجموعة من العلاقات : لك أصدقاء شخصيون ومعارف، ولك مجتمع من الزملاء فى العمل، ولك حرفة أو عمل خاص، ثم لك أنواع من اللعب والتسلية.. وكل نشاط، وكل علاقة، تضعك فى إطار، أو فى قفص.

وليس من الصعب أن يكون كل إنسان أو حيوان زعيما. ولكن الأقلية فقط هى القادرة على ذلك..

ولكن هناك عددا أكبر حريصون على أن يتظاهروا بأنهم زعماء، أو على أبواب الزعامة أو قرييون منها.. وإذا كانوا لم يصلوا إلى نهاية السلم فإنهم يتوهمون ذلك.

فلننظر إلى ما تفعله الحشرات..

هناك حشرات سامة. هذه الحشرات السامة تلسع طبعاً.. وجسمها مغطى بلون أسود وخطوط صفراء كالدبور مثلاً. وهذه الدبابير قد لسعت القروء وغيرها من الحيوانات كثيراً. فعرفت القروء أن هذه الحشرات بألوانها الصفراء والسوداء ضارة، فابتعدت عنها واحترست منها..

وأهم من ذلك أن حشرات أخرى قد استعارت ألوان الدبور الصفراء والسوداء ودون أن تكون سامة، أصبحت مخيفة للحيوانات.. واستطاعت أن تعيش وتتكاثر تحت ستار هذه الألوان المخيفة. وبذلك تجنى هذه الحشرات ثمرات جهود حشرات أخرى.

وهذا ما يحدث في المجتمع الانساني، أى حديقة حيوان الانسان. فالذى يبحث عن موقع أو عن مركز مجتمع فإنه يستعير أساليب الأقوياء. وان لم يكون قويا. وليس من الضروري لكل حشرة سامة، لكى تؤكد أنها سامة، أن تلسع كل الحيوانات.

يكفى أن تهدد بذلك. وليس من الضروري لأى إنسان أن يكون قويا فإذا كان، استعرض قوته.. ولكن فى استطاعته أن يتظاهر بأنه قوى. وأنه له صلات وعلاقات وأنها أسلحة وألوان تخيف غيره من الحيوانات الأخرى فى الحديقة! ففى سنة ١٢٦٢ قرر البرلمان الانجليزى تنظيم الزى لكل الطبقات الاجتماعية. بحيث يظهر الأغنياء بين الفقراء. ويبرز الأقوياء بين الضعفاء.. فلا يستعير أحد أزياء أحد..

وفى عصر النهضة فى أوربا وجدنا أن المرأة التى لا ترتدى ملابس طبقتها يضعون عنقها فى طوق من الخشب.. عقابا لها وفضيحة لأهلها.. وفى الهند نجد أن كل طائفة لها طريقة خاصة فى لف عمامة الرأس، بما يتفق مع مركزها وقوتها..

وفى عصر الملك هنرى الثامن فى انجلترا كان محرما على كل سيدة لا يستطيع زوجها أن يتبرع بحصان للملك أن تضع على رأسها برنيطة من القطيفة أو تضع فى عنقها سلسلة ذهبية.

وفي بعض الولايات الأمريكية منذ مائتي عام كان محرما على المرأة أن تضع على رأسها «إشاربا» من الحرير إلا إذا كان زوجها يملك أكثر من ألف دولار.

فلا يحق لأحد أن يستعير ملابس أحد. أو يستعير مظاهر القوة والثراء من أحد.. على عكس ما تفعل بعض الحشرات.

ولكن اليوم، بعد أن ذابت الفوارق بين الطبقات، وبعد أن أصبح الأقوياء يستمدون قوتهم من الضعفاء والفقراء، وبعد أن أصبح الحاكم يفخر بأنه من الشعب وليس من السماء، فقد اختلطت الملابس والأزياء والأسلحة، وإذا كانت هناك سيدة تضع في عنقها عقدا من اللؤلؤ الطبيعي.. ففي استطاعة الملايين من النساء أن يضعن عقودا من اللؤلؤ المزروع.. وإذا كانت سيدة ثرية تستطيع أن تضع خاتما من الماس ففي استطاعة سيدة أخرى فقيرة أن تضع خاتما من الزجاج في حجم ولون الماس.. لقد ساعد العلم الحديث كل الفقراء أن يكونوا أقل فقرا، وجعل الأغنياء أقل قوة.

وإذا كان بعض الأغنياء يصيدون الطيور، ففي استطاعة الفقراء أن يقتنوها محنطة.. وإذا كان بعض الأغنياء يشترون اللوحات الفنية النادرة، ففي استطاعتنا جميعا أن نعلق على جدراننا صورا أنيقة ودقيقة لها.. وإذا كان القادرون يذهبون إلى الحفلات الغنائية والموسيقية، فعندنا هذه الحفلات مسجلة على اسطوانات.

وإذا كان العلم الحديث قد جعلنا نشارك القوى والغنى، فإن الصراع من أجل السلم كان ثمنه فادحا. فقد كانت الأسرة هي الضحية أو الأطفال على الأصح.

ودون أن ننظر إلى الأب المشغول أو المستغرق في عمله. فإنه مأخوذ مسلوب مسحوب من كل حواسه خارج البيت. وهو يجىء إلى البيت ليستريح قبل أن يستأنف الجولة التالية في الصراع من أجل الدرجة أو العلاوة أو المركز. وقد يرتفع. يصعد درجة. أو يرتفع به السلم درجة ولكن أطفاله الصغار لا يرون في هذا الذي يعمله الأب شيئاً ذا قيمة. أنهم صغار. وفي عدم تقديرهم له، عقوبة لا يستحقها ومع ذلك لو خيرنا الأب بين الدرجة أو المركز وبين أولاده، لاحتار، ثم اختار السلم الاجتماعي!.

وهذا المجتمع الذي نعيش فيه، لا يختلف عن جبالية القردة: ضغط إرهاب. خوف من النجاح وخوف من الفشل أيضاً. وقد ينجح الإنسان في صعود السلم ويفشل في البيت. وقد يسقط على السلم كما سقط في البيت أيضاً.

فماذا يحدث بعد ذلك؟

نعود إلى الحيوانات. نلاحظ أن الحيوانات - القردة دائماً - عندما تدخل في معركة. فإنها تضرب وتهدد ثم فجأة نجد واحداً من هذه الحيوانات قد هجم على أنثى فمزقها أو على قرد صغير فضربه حتى الموت. ما علاقة هذا القرد الصغير بالمعركة؟ ما ذنبه؟ ما علاقة أب لم يأخذ علاوة بأن يلقي بكلبه من النافذة. أو بأن يضرب خادمته أو زوجته أو يلقي بالطعام على الأرض.. هناك علاقة طبعاً. وهى أن الإنسان أو الحيوان عندما يغضب فإنه يوجه غضبه إلى ناحية أخرى.. وبذلك يخفف من حدة التوتر. فبدلاً من أن يضرب زعيم قبيلة أخرى، فإنه يضرب الأنثى أو قرداً صغيراً.. وبدلاً من أن يضرب رئيسه في العمل يضرب خادمته، أو زوجته أو يكسر طبقاً أو بعض أصبعه.. بعض الحيوانات تقطع يدها.

أو تمزق نفسها. فهي لا تستطيع أن تعتدى على عدوها أمام الأقفاص الحديدية ولذلك تعتدى على نفسها.

وربما كان الانتحار قريبا من هذا المعنى. فالذى ينتحر هو إنسان أراد أن يقتل إنسانا آخر، ولكنه لم يستطع فقتل نفسه. صحيح أن هناك بعض الناس ينتحرون هربا من الألم. كالمريض مثلا الذى ينتحر فهو لم يقتل نفسه لأنه فشل فى قتل الميكروب أو الطبيب ولكنه قتل نفسه تخفيفا للألم. وقضاء عليه بالقضاء على نفسه !.

ونسبة الانتحار فى المدن أعلى من القرى، أى حيث تكون المنافسة أشد، وحيث يكون الزحام أعنف. والانتحار بين الرجال، أكثر من الانتحار بين النساء.. ولكن بعد أن دخلت المرأة ميدان العمل وناقست وزاحمت وتوترت وتعصبت، ارتفعت نسبة الانتحار عند النساء - أحسن !.

وحيث تكثر الجرائم يقل الانتحار، كأن المجتمع له حصة معينة بين الموتى. أى الذين يقتلون أنفسهم أو الذين يقتلون غيرهم. والانتحار غير موجود بين الحيوانات. ولذلك فالإنسان عندما يصف نفسه بأنه حيوان فريد فى نوعه، لا يكون مبالغا فى ذلك !.

وبعض الناس يقتل الفتاة التى يحبها ثم يقتل نفسه. أو يقتل أطفاله ثم يقتل نفسه. والموقف هنا غريب. فهو أولا قرر أن ينتحر وفى نفس الوقت لا يريد لأطفاله وزوجته أن يتعذبوا من بعده. فقتلهم ثم قتل نفسه، وهو يقتل نفسه بعد ذلك بسرعة.. لماذا؟ لأن عملية قتل أولاده وزوجته وحبيبته تخفف توتره الشديد.. ولو سكت بعض الوقت لاستراح وعدل عن قتل نفسه.. ولذلك فهو يسارع بأن يقضى على نفسه !.

وكلما كان هناك ضغط وكبت في أى مجتمع، كان الناس حريصين على رؤية العنف في الكتب أو على الشاشة. ولذلك انتشرت قصص الجرائم، وأفلام الدم والرعب. ولا يزال مؤلفو القصص المخيفة هم أكثر الأدباء انتشارا وأكثرهم مالا أيضا !.

وهذه القصص وهذه الأفلام «تحول» كتبهم وكبتهم من وجهة إلى وجهة أخرى.. هذه الأعمال العنيفة على الورق وعلى الشاشة تقوم (بتحويل) و (تحريف) و (تجنيب) للضيق الموجود عند الناس – ولا يزال هذا المثل الشعبي صحيحا : من لا يقدر على الحمار، يقدر على البردعة.

ويبدو أن الانسان يجد متعة في القسوة على إنسان آخر أو على حيوان آخر.. وعندما حاول بعض الناس الطبيين أن يؤلف جمعية للرفق بالحيوان فإن البابا بيوس التاسع قد اعترض على ذلك. وقال : لا حقوق للحيوانات إنها ضحية الانسان هكذا خلقها الله !.

وكان الرومان يطلقون الوحش على المجرمين ويتفرجون ويصرخون بمنتهى المتعة.. ولا يزال الأسباب يطلقون الأبطال على الثيران حتى الموت، موت الثيران غالبا. ولهم أعياد سعيدة !.

ونحن عادة لا نقتل الحيوان إلا لأربعة أسباب : الطعام أو للقضاء على الأوبئة. أو عند استخدامها في التجارب العلمية أو للمتعة.

إلى أن جاءت نظرية داروين «هذه النظرية ردت للحيوانات اعتبارها» ووضعتها في بداية السلم. وجعلت أجدادنا قريبين منها أو شبيهين بها. أو هي أصلنا. وفي نفس الوقت أرغمت الانسان على التواضع أو جعلته منحطا.

وما دامت الحيوانات في الأقفاص، والناس في المدن وفي المصانع
والمكاتب وما دام هذا الزحام كان العنف أسلوب الحياة. وكان الخوف
نتيجتها. وكانت الأسرة هي الضحية ولكن رغم هذا كله فإن الإنسان
استطاع أن يكون أقوى من ظروفه.. وأعلى من عقباته. وسيد مصيره.
فكان الإنسان قد خلق العقبات ليجتازها.. والمشاكل ليحلها.. والقيود
ليتحرر منها.. ويتحرر بها أيضا..

ليس الجوع ولكنه الملل !

(٣)

حالا سأحدثك عن اهتماماتنا بالجنس الآخر.

فعندما انتقل الانسان من الغابة إلى المدينة، حدثت له انحرافات أخرى في سلوكه. فإذا وجدت إنسانا يأكل، فليس هذا دليلا على أنه جائع. وإذا وجدته يشرب، فهذا لا يدل على أنه عطشان. فهناك أشياء كثيرة نأكلها دون أن يكون السبب هو الجوع : اللب والسوداني والحمص والشيكولاتة وغيرها نأكلها لا لأننا جائعون.

وكل أنواع العصير والمشروبات الغازية والكحولية. كلها نتناولها لا لأننا عطشانون.

وننام أيضا لا لحاجتنا إلى النوم ونمشي في الشوارع ساعات دون أن يكون عندنا مشوار، أو يكون هناك هدف لهذا المشي كله.

وإنما يأكل الانسان لا لأنه جائع، ولكن لأنه عصبى.. لأنه في حالة زهو أو قرف أو ملل.. كذلك يشرب، ويمشي في الشوارع دون هدف.

ومعنى ذلك أن للأكل والشراب والمشى والنوم وظائف أخرى غير الاحتياج الضرورى لها.. أو الاحتياج الحيوى، وإنما لأن لها وظائف أخرى جديدة. هذه الوظائف الجديدة قد ظهرت بسبب البيوت المقفلة وبسبب المكاتب والمعامل والمصانع والورش، وبسبب الخوف من اليوم ومن الغد والخوف من الآخرين. والخوف دونه أن يكون هناك سبب محدد.

وإذا نحن اسرفنا فى هذا النوع من الطعام تعبنا، وإذا أكثرنا من هذه المشروبات تفجرت أكبادنا. وكان الرومان يسرفون فى الطعام لدرجة أن الواحد منهم يضع ريشة دجاجة فى حلقه ليخرج الطعام من معدته.. ثم يتناول طعاما أفضل – بعض أبناء الريف يفعل ذلك!.

وما حدث لوظيفة الطعام، حدث لوظيفة الجنس أيضا.. أى – للعلاقة الجنسية بين رجل وامرأة، أو بين ذكر وأنثى فى حديقة الحيوان وفى جبلاية القروء بصفة خاصة.

فوظيفة الجنس الأساسية أن تستمر هذه الحياة، ويتوالد الانسان والحيوان. ومعروف أن العلاقة بين رجل وامرأة ستؤدى حتما إلى ظهور أطفال. ولم تعرف الانسانية إلا فى وقت متأخر تحديد هذا العدد من الأطفال وكل الديانات القديمة تحاول أن تجعل الغرض من لقاء رجل وامرأة هو أن يكون عندهما أولاد. والديانة المسيحية كانت ترى فى التقاء الجسدين قذارة. وكان الرجال والنساء يلتقون فى فراش واحد بالملابس كاملة. وكان بعض رجال الدين ينادون بعدم تنظيف الجسد حتى ينفر منه الناس، رجالا ونساء. وعلى الرغم من أن رجال الدين، رهبانا وراهبات، ينادون بأن الجنس من أجل استمرار الحياة فانهم أنفسهم يرفضون الزواج وان كانوا يخفون علاقاتهم الجنسية!.

ثم ظهرت حبوب منع الحمل لتوقف هذا الانفجار السكاني في العالم وهو أسلوب ضروري لانقاذ البشرية من الجوع والمرض أو التدمير الذاتي.. وأن كانت بعض فئران الحقول تستطيع أن تعوض ما تخسره بأن تتناسل بسرعة. وفي نفس الوقت تستطيع أن تتخلص من هذه الزيادة الهائلة بالانتحار الجماعي فهناك ملايين الفئران التي لم تنتحر فهي بسرعة تقوم بتعويض ما مات منها!.

ولحسن حظ الانسان أنه لا يفعل ذلك وإنما تقوم الحروب بهذه المهمة.. فالحروب هي نوع من الانتحار الجماعي انتحار الانسان مستخدما أحدث الأسباب العلمية للقضاء على نفسه. ثم تجيء التطورات الطبية الحديثة بانقاذ الأطفال من الموت.. ويتكاثر الناس من جديد!.

وسوف يجيء الوقت الذي يجب أن يحصل فيه الانسان على تصريح بأن يكون أو لا يكون له أولاد. وبذلك يتزايد عدد السكان في أى دولة، وفقا لخطة علمية موضوعة، فيكون الأطفال حسب الطلب. ولا يجيء الطفل غير مرغوب فيه.. غير مرغوب في جوعه أو مرضه أو مزاحمته لأطفال آخرين. وإلا كان ذلك نوعا من تسجيل هدف تسلل في «شبكة» المجتمع!.

ويمثل اللقاء الجنسي عند كل الحيوانات أيضا - ضرورة الزمالة بين ذكر وأنثى أو التلازم بين الجنسين. مهما كانت الظروف وكل ما يفعله المجتمع هو عادة.. أن يتساءل عن طبيعة هذه العلاقة.. هناك مجتمعات تسمح بالعلاقة إلى أى مدى. وتضع العبء على كتف الزميلين. ولكن هناك مجتمعات أخرى تحتم أن تكون الزمالة شرعية. خطبة أو زواجا. وهذه العلاقة لابد أن تكون شرعية، لحماية الاثنين معا.. أو لحماية الأطفال.

وحتى إذا لم يجد الإنسان زميلاً أو رفيقاً أو صديقاً، فإنه يحلم به، يتخيله ويراه، ومن الممكن أن يتحقق له نوع من الاشباع الجنسي أثناء النوم. وهذا طبيعى عند الجنسيين بل أن بعض الحيوانات المنزلية تفعل ذلك، من النظر إلى الكلاب أو القطط في البيت نجد أنها تحلم وأنها تثار جنسيا أثناء النوم.

حتى القديسة تريزة نفسها في اعترافاتها وفي تسجيل أحلامها لم تكن بعيدة عن هذا المعنى. فهي تقول: رأيت ملاكا عملاقا يحمل سهما ذهبيا. وفي نهاية السهم قطعة من نار، والسهم نفذ إلى أمعائى.. وشعرت بألم رهيب، ولكن بعد ذلك أحسست براحة ومتعة، ولم أفهم كيف أن العذاب مقدمة لاحساس لذيق تمنيت أن يطول حتى الموت!.

وليس من الصعب على علماء النفس أن يضعوا كلمات أخرى لهذه المفردات التي استخدمتها القديسة تريزة. وكل أحلام الشبان والشابات تدور حول أشجار وثعابين ومظلات وأعمدة وأوراق وموز وتين وحدائق وأنهار وجبال وسلالم وسكاكين.. وكلها ذات معنى واحد: إن هذه الأحلام جنسية في الدرجة الأولى.

وإذا عدنا إلى حديقة الحيوانات. فسنجد أن السجن الطويل للحيوانات قد دفعها إلى الانحراف الجنسي. فليس الجنس عندها للنسل وإنما لأسباب أخرى جديدة. لم تكن معروفة أيام حياتها في الغابة.

وكثيرا ما وجدنا قردا ذكرا يتمسح في الجدران وفي أغصان الشجر.. وكذلك يفعل الفيل بخرطوميه.. وتفعل القنافذ عندما تمشى على ثلاث أرجل.. وكذلك تفعل الاناث عندما تتمسح بعضها في بعض أو تستعين بالأحجار أو الأشجار.. أما الدرفيل فإنه يعرض نفسه لنافورات المياه.. والقطط والكلاب في البيوت تتمسح في أصحابها طويلا وفي الجدران أيضا.

وقد تعلم الانسان أنه إذا رأى الأنثى فإنه لا يهجم عليها. ان الحضارة قد وضعت لذلك الكثير من القيود. لذلك فالذى لا يلمس بيده يلمس بعينه.. والذى لا يلمس بعينه يلمس بأذنه.. أو يقرأ فى كتاب عن الجنس.. أو يتفرج على فيلم أو على مسرحية.. وكل ذلك نوع من الاستطلاع الجنسى. أى الاقتراب من بعد، أو الاقتراب جدا، والابتعاد جدا فى نفس الوقت.

وإذا كان الصيد عند الانسان القديم كان يحتاج منه إلى الاستطلاع فيعرف مكان الفريسة. وكيف يمكن أن يصيدها، فان الاستطلاع قد أصبح بعد ذلك أسلوبا فى الحياة. فالانسان يريد أن يعرف عموما. أن يعرف كل شىء. ولذلك يسأل ويتابع ويلاحظ. وقد بدأ الاستطلاع جنسيا ثم أصبح عاما. كما تنوعت أساليب المشى، فأصبحت جريا ومشيا على الحبل وسباحة وانزلاقا ومشيا على اليدين.. فكذا الاستطلاع الجنسى أصبح أشكالا وألوانا.. وقريبا وبعدا من الجنس الآخر.. ومتعة وحرمانا فى نفس الوقت. فالمتعة أن ترى والحرمان ألا تتذوق. والمتعة أن يصبح الواقع خاليا من الجنس الآخر والعذاب أن تكون الأحلام هى المليئة.

ومن أشكال الاستطلاع: الزمالة والصداقة.. والحب. ولكن إذا حاول الانسان أن يتخطى حدود الاستطلاع، فإن المجتمع يتدخل ويضع العقبات. والعقبات تغرى بالوقوف أمامها أو التغلب عليها أو الاستسلام لها. وعند الاستسلام للقيود الاجتماعية تلتقى قوة المجتمع وإرادة الفرد.

وحياة المدينة أو جنون المدينة. هو الذى دفع الانسان إلى أن يتخذ الجنس وسيلة للقضاء على الملل. فقط لأن يخفف التوتر النفسى الشديد.. وهذا الملل هو الذى جعل الانسان ينوع فى أشكال وألوان الجنس وأوضاعه. ولا بد أن يكون الأديب الفرنسى الشاذ المركيز دى صاد كان

يعانى من الملل الشديد، ولذلك درس الجنس وأوضاعه وأشكاله.. وليس من الصدفة أن يؤلف أهم كتبه الجنسية وهو فى داخل السجن.

وقد أجريت تجربة على عدد من الشبان : وضعوا فى توابيت منفصلة وارتدوا ملابس واسعة. ووضعوا فى أيديهم جواناتيات. وتركوا وحدهم بضعة أيام، لقد ضاق هؤلاء الشبان حاولوا أن يتحركوا، فلم يستطيعوا، حاولوا أن يفعلوا أى شىء لم يتمكنوا راح بعضهم يغنى. وبعضهم راح يتذكر الحانا معروفة ويرقص. ولكن بعد ذلك غمرهم الملل واكتسحهم. وهربوا من هذه الأقفاص. لقد ثاروا على الملل. وليس الملل معناه : ألا يجد الانسان ما يفعله. ولكن معناه أيضا أن يجد الانسان ما يفعله ويضيق به ويضيق بنفسه أيضا!.

وبعض القردة تهرب من الملل بأن تقطع أظافرها أو ذيلها أو تضرب رءوسها فى الجدران أو تلعب فى أذانها أو أنوفها أو أصابعها – كثيرون من الرجال يفعلون ذلك – وبعضها ينكش شعره.. ثم إن هذه الرغبة تثيرها جنسيا. وينفردون بالاشباع الجنسي، دون الحاجة إلى أنثى – كذلك كان يفعل الاديب الفرنسى جان – جاك روسو!.

ويمكن ملاحظة ذلك بصفة واضحة إذا وضعنا قردا ذكرا مع قردة أنثى وكل منهما من فصيلة مختلفة تماما . وتكون النتيجة أن يظل القرد فى مكان بعيد، وكذلك الأنثى. ويحاول كل منهما أن يثير نفسه جنسيا دون أن يتجه إلى الآخر. كأن الواحد منهما ليس موجودا. أو تماما كما يعيش الانسان فى عالم من صنعه.. من خياله، ثم يثير نفسه، ويحقق رغباته بنفسه أيضا!.

وكثير من رجال الأعمال يشعرون أثناء انشغالهم الشديد برغبة جنسية شديدة أيضا. وبعض هؤلاء الرجال قادر على أن يجد الراحة بسرعة.

وبعضهم يترك عمله من أجل هذا الغرض ثم يعود بعد حين. وفي نيويورك وفي لندن قد اهتدى رجال الأعمال إلى حلول سريعة ففى إمكان أحدهم استدعاء اية واحدة من الجنس الآخر ويستأنف نشاطه التجارى بعد ذلك.

وفي جبلاية القروء من الممكن أن تجد ذكرا ثائرا هائجا، يتقدم نحو ذكر آخر، والخطوة التالية هى أن يشتبك الاثنان فى معركة دموية ولكن يحدث أن يوجه واحد منهم غضبه إلى شىء آخر.. كان يعض قدميه، أو يضرب قردا صغيرا، أو يجد شيئا فى الأرض يأكله.. أما إذا ظهرت أنثى فقد هدأت الأزمة. فيتجه واحد منهما إلى الأنثى. وبعد ذلك ينسحب، لأنه يكون قد خمد نفسيا.

وقد أصبح الجنس الآخر تجارة : دعارة.

والدعارة معناها أن يكون هناك لقاء جنسى مقابل مبلغ من المال أو يكون هناك زواج مقابل فلوس أو مركز أى من أجل حماية الأنثى. دون أن يكون هناك حب أو تفاهم أو اتفاق فإذا كان الجنس علاقة لها ثمن : فهى دعارة.

والانسان قادر على أن يختار للأشياء والأفعال أسماءها وأن يختار لها أسماء أخرى أيضا. فالرقص العريان والتمثيل العريان : كل ذلك نوع من إثارة الاستطلاع الجنسى مقابل مبلغ من المال، ولأن العمليات الجنسية لا تكون كاملة أثناء الاستعراضات الراقصة. أو المسرحية أو السينمائية، فإن اللقاء بين الرجل والمرأة يكون مبالغا فيه.. فالقبلات طويلة والأحضان طويلة وعريضة وعميقة.. والملابس عارية أكثر مما هو مألوف.. كأن هذه الاستعراضات تعوض المتفرجين عن كل ما ينقصهم.. أو كأنها تقول لهم : إذا لم تلمسوا بما فيه الكفاية، ففى استطاعتكم أن تروا بما فوق الكفاية !

وإلى جانب الراقصات وممثلات الاغراء، هناك موديلات التى يرسمها الفنانون.. إنها تتعري بثمن.. ولهذا نظير فى حديقة الحيوان أيضا. فكثيرا ما تجد أنثى القروء تستسلم لذكر لأنها فقط تريد أن تأكل أو لأن أمامه وجبة غنية.. فيفاجأ الذكر بأن الأنثى قد أعطته ظهرها.. وهى حيل يلجأ إليها الجائع بين الحيوان والانسان. ومن الممكن أن نجد الأنثى الواحدة تفعل ذلك لأكثر من ذكر لكى تطعم ابنها الصغير أيضا وقد تقع معركة بين ذكرين. وتنتظر الأنثى من الذى يفوز. وهى عادة التى تفوز. بالطعام لها ولطفلها وبنفس الثمن!

والذكر فى الانسان والحيوان. هو الذى يسود، والأنثى هى التى تستسلم. والاستسلام معناه أن ترضى وتقبل. وإذا ظهر ذكران بين القروء على وشك القتال. فإن واحدا منهما يستسلم للآخر، كالأنثى وينتهى الاشكال. وبالنسبة للاناث أيضا: فإن واحدة منهما تستسلم للآخرى بنفس الطريقة. ويكون هذا هو الحل. والذين يذهبون إلى حديقة الحيوانات ويتفرجون على جبلاية القروء يظنون أن القروء لا تشبع من تعاطى الجنس والحقيقة أن هذا غير صحيح. وإنما القروء فى حالة خوف من الناس. وفى حالة خوف من بعضها البعض وليس الذى يستسلم فيها من الذكور دائما!.

ولابد أن الفراعنة هم أول من وقع فى هذا الخطأ. فقد جعلوا القرد الذكر رمزا للفتوة الجنسية.. ولذلك احتفظت التماثيل والنقوش المصرية بالقرد فى حالة هياج جنسى كأن هذه الحالة تنتقل بالعدوى لكل من يراه أو يلمسه!.

ولا يزال الجنس مسيطرا تماما على أفكارنا فى العصر الحديث. ولا تزال القوة معناها: القوة الجنسية.. ومن المؤكد طبيا وتاريخيا أن نابليون كان

ضامر الرجولة وأن هتتر ناقص الرجولة. ولكن رغم ما – يستمتع به هذان الرجلان من قوة، فقد كان كل منهما حريصا على أن يشتهر بالقوة الجنسية أيضا. وفي غينيا الجديدة تجد أن رجال القبائل عندما يحاربون فإنهم يضعون اسطوانات من المعدن في مقدمة أجسامهم ويربطونها في أعناقهم وفي ذلك إظهار وتهديد بالقوة الجنسية.. وفي أيام روما القديمة كانت تقام الحفلات للذكورة.. وكانوا يحملون تمثالا عاليا لعضو الذكر، وكانت النساء تلف حوله الورود.

وكانوا يضعون تماثيل لعضو الذكر على المعابد وعلى مداخل الكنائس منعا للحسد. ولا تزال قرون الأبقار التي يضعها بعض الناس في بيوتهم وفي مداخل البيت، لها نفس المعنى وفي أعمالنا اليومية اشارات جنسية – ولكننا ننسى دلالتها: فاخراج اللسان، ورفع الأصبع الثالثة من اليد، ورفع الأصبعين الرابعة والثالثة على شكل ٧ دليل على النصر، كلها ذات معانٍ جنسية من أيام الرومان.

ومعظم الشتائم ذات دلالة جنسية.

والنكت النابية التي تروىها للجنس الآخر: هي محاولة للاقترب منه وتشجيعه وتعريته.. فهي نكت ذات معنى هام: هو الاستطلاع الجنسي والعدوان في نفس الوقت.

واستدراج المرأة إلى رؤية النساء العاريات في الكباريات لها معنى خاص. فنحن نحاول أن نعرض على المرأة إحدى بنات جنسها عارية. وربما كان جسمها أجمل وأروع. ومعنى ذلك أن التي أجمل منها وأروع تعرى جسمها للجميع ويثمن تافه فلماذا لا تفعل ذلك، ولا يوجد عندها

سبب معقول للامتناع . ثم أننا نريدها أن تشعر بالخجل وبالعار من بنات جنسها . وفي ذلك تعذيب لها ومتعة لنا !.

فالذهاب إلى الكباريات فيه عنف .. ولكن لا تسيل له الدماء .. تعرية الراقصات بعنف وفضح المتفرجات في نفس الوقت !.

وعندما تغضب امرأة وتستقل سيارة طويلة عريضة وتنطلق بسرعة فإنها تحس بالضبط ما قالته «فرنسواز ساجان» أديبة فرنسا : كأننى القيـت بنفسى فى حـضن رجل ، وأصبحت آمنة !.

حتى أشكال السيارات فيها عينات كبيرة .. ممدودة .

طويلة ناعمة وتخترق الطرقات وتخيف السيارات الأخرى والمشاة . وإذا توقفت السيارة – أية سيارة فيها رجولة صارخة ، وخصوصا سيارات السباق . فسوف تجد الاعلانات على جانبى الطريق : كلها جنسية .

كل ذلك جديد على الانسان .

لأنه ترك الحياة البسيطة فى الغابة وأقام فى المدينة .. فى بيت كأنه قفص قرود فى حديقة الحيوان . وهو يحاول أن – «يتقلص» فيتلوى ، وينحرف بوعى .. أو من غير وعى !.

مشكلة .. « هم »

ومشكلة .. « نحن »

(٤)

ماهو الفرق بين رجل زنجى تقتله جماعة من البيض، ورجل أبيض تقتله جماعة من السود؟

والجواب : بالنسبة للقتيل لا فرق طبعاً !.

لأن رجلاً قد مات في الحالتين !.

ولو كان أحد الوحوش هو الذى قتل الأبيض أو الأسود لاتحدثنا ضد الوحش. ولكن ما الذى نفعله إذا كان القاتل إنساناً والقتيل أيضاً؟ إننا نشعر بالأسى لما حدث. ولكن ما هو الجانب الذى نقف عنده ونؤيده؟ إن السؤال يتضمن الإجابة. فنحن لابد أن نقف إلى جانب أحد.. إلى جانب جماعة ضد جماعة. لأن الإنسان متعصب بطبعه. ولكن لو أمكن أن نقف الإنسانية كلها جماعة واحدة، ضد قوى الطبيعة التى تهلك الإنسان، لكسبت الإنسانية كلها وتقدمت.. ولكانت المشكلة الوحيدة التى تواجه الإنسانية هى كيف تحد من توالد أبنائها.. كيف لا يلد الإنسان ١٥٠ ألف طفل يومياً. كيف يكون أقل من ذلك. ومعنى ذلك أن تحتفظ الإنسانية بهذا

العدد : ثلاثة آلاف مليون نسمة تعيش على قاراتها الخمس . ثم كيف تجعل هذا الرقم مقدسا !.

ولكن إذا حدث صراع ، وقامت جماعة ضد جماعة ، فليس من السهل على البشرية أن تعوض خسائرها في الأرواح بسرعة . إن بعض الأسماك تفعل ذلك في «مشوار» واحد بين جانبي المحيط الأطلسي . فقد تتعرض الأسماك في هجرتها إلى الوحوش المائية .. ولكن بسرعة تقوم الأسماك بتعويض هذه الخسائر في ليلة واحدة . أما الانسان فمختلف تماما . إن الانسان يحتاج إلى عناية أطول . إنه يحتاج إلى عشرين سنة على الأقل ليصبح قادرا على حياة مستقلة وفي هذه العشرين سنة يظل تحت عيني الأبوين . فطفولة الانسان أطول والانسان ليس كالأسماك يتكاثر بالكم ، ولكنه يتقدم بالكيف . وتقدم الأسماك بالأرقام ، أما تقدم الانسان فمزايًا وتطور .. ولا بد أن يبلغ الانسان العشرين من عمره لكي يصبح مناسبًا لأن يقتله إنسان آخر !.

ففيما بين ١٨٢٠ و ١٩٤٥ مات أكثر من ٩٥ مليون نسمة في المعارك الداخلية والخارجية . في الصراع بين جماعة وجماعة . ودولة ودولة .. وسياسة وسياسة ودين ودين !.

ومن الغريب أننا نصف هذه الأعمال التي قامت بها الانسانية في ١٢٥ سنة بأنها «حيوانية» ووحشية . ولكن أين هو هذا «الحيوان» – الذي يفعل مايفعله الانسان لو وجدنا حيوانا يفعل بصغاره ونسائه وإخوته ما يفعله الانسان ، لكان من الواجب أن نصف الحيوان بأنه إنسان موحش !.

وليس معنى ذلك أن الانسان يجب ألا يدافع عن نفسه . بل من الضروري أن يدافع عن ثلاثة أشياء : نفسه وأسرته وقبيلته أما الانسان فلم

يتغير منذ أيام الغابة ولا الأسرة تبدلت ولكن الذى تغير وتبدل هو القبيلة.. أو الجماعة التى ينشأ إليها فقد أصبحت للجماعة أسماء أخرى : المدينة.. الدين .. الحزب.. الهيئة.. المهنة.. الطبقة.. الدولة !.

فكان الانسان عندما انتقل من الزراعة إلى الصناعة قد اتخذ الخطوة السليمة نحو الألم. فقد تضاعفت آلامه وتكدست أوجاعه ومخاوفه.

ففى عالم القروى نجد أن القبيلة أو الجماعة من القروى تأوى إلى مكان له خصائص نباتية أو مائية. والمكان ليس محدودا. وإنما هو مكان واسع ليست له معالم ولا خطوط مرسومة. ولكن إذا تقدمت قبيلة أخرى إلى هذا المكان وقع الصدام الدموى. وبعد ذلك تنسحب إحدى القبيلتين أو الاثنان معا إلى أماكن أخرى. ولأن القبيلة صغيرة العدد، فإن زعماء القبائل يتقدمون الصفوف دفاعا عن الجميع.

وعندما انتقل الانسان إلى المدينة، اقترب من القرن الذى يحرق أعصابه ويثيره ويحطمه ويعذبه بالقتل. وظهر شيء آخر اسمه : التخصص.. والتخصص معناه أن المجتمع يستطيع أن يجعل بضعة آلاف من أبنائه يتخصصون للقتال والقتل. وتكفينا نظرة واحدة إلى تاريخ البشرية لنعرف هذا الطريق الذى ساد فيه الانسان من كارثة إلى مأساة إلى حرب إلى دمار..

ومن الدمار تستأنف الانسانية خطواتها وتعلو سلم التقدم.. وبعد ذلك تجيء حروب أكثر تدميرا.. ويجيء بعدها تقدم أكثر ازدهارا.. كأن الحروب قوة دافعة مهلكة ولكن إلى الأمام !.

ويمكن أن يقال أن الحضارة هى تطوير الانسان لأدوات البناء والهدم، لأدوات الحقل وأجهزة القتال !.

ومن العجيب أن الانسان عنده مقدرة على النهوض إذا وقع، وعلى أن يداوى نفسه إذا جرح.. وأن يمتص دمه، ويشرب عرقه ودمعه.. ويقف من جديد.. أقوى مما كان !.

فإذا قويت «جماعة» فإنها لا تسكت.. وإنما تتجه إلى غيرها.. وتبتلعها. أو تتحرك تحت شعارات غاية في الرقة والانسانية وتساعد الجماعات الأخرى الصغيرة. ومعنى ذلك أن الجماعة تتعرض لضغط من الداخل، ولا بد أن تستريح من هذا الضغط بأن توجهه إلى الخارج، وإلى معاداة جماعة أخرى لأي سبب. وهذا الاتجاه إلى الخارج يصرفها عن الحرب الأهلية. حتى الحروب الأهلية والثورات هي: صورة من صور الضغط الذي يحتاج إلى الانفجار، لكي يستريح الجميع.

والامبراطورية الرومانية عندما انهارت، كان ذلك بسبب الضغوط والتمزقات الداخلية.. والتمزقات الخارجية أيضا.. والتمزق في الداخل والخارج هو صورة النهاية لحضارة من الحضارات. وفي أسبانيا عندما اضطرت إلى العدول عن أن تكون استعمارية لتقلصات داخلية مزقتها، وهدمتها.

فهناك دائما طاقة عدوانية يجب أن نجد لها مخرجا. والشعوب المتوازنة هي القادرة على أن تمتص طاقتها العدوانية فلا تتجه إلى أحد في الداخل والخارج !.

ولكن كيف تتكون جماعة ضد جماعة.. كيف نقول «نحن» ونقول عن غيرنا، هم.. نحن نفعل.. ونحن لا نفعل.. وهم يفعلون.. وهم لا يفعلون.

من السهل أن ينقسم العالم بسرعة إلى: نحن وهم.. يكفي أن يكون هناك «اختلاف» ليكون هناك «خلاف».. فمثلا: خلاف في الرأي.. في اللون.. في لون الشعر.. في المهنة.. في الموطن الجغرافي.

ونحن عادة لا نكتفى بصنع الخلاف إننا نبالغ فيه. ولذلك يحاول الأطباء أن يتكلموا بالانجليزية.. ويحاول الصحفيون أن يرووا الأخبار والنوادر والأسرار.. فإذا قال واحد منهم نحن.. كان معنى ذلك أنه قد صنع جماعة خاصة، وانضم إليها، وتحدث بلسانها.. ووقف بها في وجه جماعة أخرى وأحس في الحال أنه أفضل.. وأن لديه كل المزايا، ولدى الجماعة الأخرى كل العيوب.

أما إذا كانت الاختلافات في الرأي، فأمرها سهل، ولكن إذا كانت في لون البشرة أو في المذهب أو في الدين أو في القومية، فالموقف في غاية الصعوبة.. ويغرى بالتحدى وبالعداء والتعصب.. وهى جميعا مقدمات ضرورية للكراهية، والكراهية: أم الحرب!.

وليس أسهل من ميلاد حقد.. مثلا تقول: إن هذا الرجل ذا الشعر الأكرت قد ضرب طفلا.. ثم نقول: هذا الرجل ذو الشعر الأكرت شرير!.

— كل الذين شعرهم أكرت أشرار!.

— ذو الشعر الأكرت عدو لكل إنسان!.

— أمامك رجل شعره أكرت، اضربه قبل أن يضر بك!.

— أمامك الآن دليل قاطع: كل رجل شعره أكرت شرير!

اضرب كل الذين لهم شعر أكرت!.

هذا التطور السريع عن حادث فرد، حدث أو لم يحدث، ينتهى عادة إلى هذه النهاية العجيبة والمضحكة أيضا.

وإذا حاول واحد شعره أكرت أن يدافع عن نفسه، وهذا طبيعى، فالناس يقولون أنه قاتل.. اقتله قبل أن يقتلك!.

وأمامك طريقتان لكى «تنفذ» بجلدك من الناس :

ألا يكون لك شعر أكثر. أما إذا كان شعرك أكثر، فمن الضروري أن تكون معروفا مقربا من كل الذين ليس شعرهم أكثر، وأن تؤكد لهم باستمرار أنك إنسان مختلف عن ذوى الشعر الأكثر – هذا إذا استطعت.

وهناك علامات واضحة تميز جماعة عن جماعة : اللون !.

فعلى الأرض يوجد الجنس القوقازى، والجنس المغولى والجنس الزنجى ..

أى الأبيض والأصفر والأسود .. والببيض عددهم ١٧٥٧ مليوناً .. والصفر عددهم ١١٧١ مليوناً والسود عددهم ٢١٦ مليوناً.

ولكن لا توجد فواصل قاطعة بين هذه الجماعات المختلفة والتميزة. هناك تداخل. هناك هجرات. وتقارب وتناسل. ولذلك تقاربت الألوان والأديان واللغات والطبقات والمصالح ..

وكل التقدم الانسانى قد استخدم للبقاء على هذه الفواصل الملونة وفى نفس الوقت لتذويبها.

ففى الوقت الذى ننادى فيه بالحرية والمساواة .. وفى الوقت الذى يحصل الزنجى الأمريكى على نفس حقوق الأمريكى الأبيض تقع المعارك بين السود والببيض ويطالب السود باستقلالهم !.

ففى القرن السادس عشر والتاسع عشر تم شحن ١٥ مليوناً من زنجى أفريقيا إلى أمريكا. وتم هذا الشحن تحت شعارات مزورة : دينية وتجارية وإنسانية .. ولم ير العالم كله إلا أن اناسا عراة قد عبروا المحيط. وأن

الذين نقلوهم كانوا من البيض ذوى الملابس وذوى البشرة البيضاء
والعيون الزرقاء والشعر الأشقر!

والتصقت في عيون الناس وذكرتهم أن أهل إفريقيا حفاة عراة وحوش
وأن استعبادهم رحمة بهم. وأن الرجل الأبيض يستحق التكريم لأنه تفضل
مشكورا فنقل الزوج من القارة السوداء إلى العالم الجديد.. إلى آخر هذه
الأوهام والأكاذيب!.

فالبيض عندما جاءوا إلى إفريقيا لم ينقلوا الحقيقة كاملة.. وإنما اكتفوا
بأن قالوا: نحن كل شيء و«هم» لا شيء!.

وقد وصف رحالة هولندي كيف وجد غرب إفريقيا منذ ٣٥٠ عاما قال:
المدينة نظيفة. الشوارع مخططة مستقيمة. بل أنها أوسع من شوارع
امستردام البيوت منسقة. متراصة في نظام. وبيت الملك واسع. له حديقة
وله شرفات.

ولكن هذه العبارة التي جاءت في مذكرات الرحالة الهولندي لا يعرفها إلا
الباحثون المتخصصون. ولكنك لا تجدها في أى كتاب. إلا إذا حاول واحد
أن يقف إلى جوار العدل وينصف «هم» من «نحن»!.

وظهرت نظرية عملية تقول: إن السود من أب والبيض من أب آخر..
ونظرية أخرى تقول: بل من أب واحد.. ولكن السود تخلفوا لأسباب غير
معروفة أو لأسباب معروفة أنهم مختلفون في تكوينهم العقلي!.

وهذه النظرية تعود بنا إلى نظرية أخرى متعصبة تقول: إن الاختلاف
في الشكل أساسه اختلاف في العقل والاستعدادات الأخرى!

وربما جاءت نظرية دارون نوعا من العدل القاسى : فالنظرية تحاول أن تقول أن هناك تشابها بين الانسان والقرد.. أو أن الانسان أصله قرد : الانسان الأبيض والاسود.

ومعنى ذلك أن الناس على اختلاف ألوانهم من أصل واحد.. ولكن هذه النظرية لم ترض الرجل الأبيض لأنها ساوته بالاسود. ولم ترض الاسود لأنها ساوته بالقرد !.

وهذه النظرية تحاول بالقوة أن تلغى الخلاف الحاد بين الألوان.. تحاول أن تفعل بالمنطق ما تحاوله القوة في أمريكا الآن. ولذلك سوف يلجأ السود في أمريكا إلى مزيد من القوة.. إلى حرب أهلية.. حتى لايشعروا بالهوة الهائلة بين «هم البيض» و«نحن السود».

ويحاول البيض في أمريكا أن يمدوا أيديهم عبر هذه الهوة وأن يبالغوا في ذلك. ولكن المبالغة في التودد، هى مبالغة في الكذب أيضا !.

وقد عبر أحد الممثلين الزنوج عن ذلك عندما صفق له البيض طويلا فقال : سوف تشعرون بالخجل إذا اكتشفتم أننى لست أسود وإنما أنا أبيض صبغ وجهه فقط !

فكأنهم يصفقون له من باب الاسراف في التشجيع.. لكى يؤكدوا للسود ولأنفسهم أنهم مصابون بعمى الألوان.. فلا يرون إلا اللون الأبيض فقط !

ولكن المعنى عميق فى نفوس البيض : إن الذى يختلف عنى، - يتخلف عنى !

وهناك أوهام قومية : أى هناك أوهام تخلقها «نحن» في مواجهة «هم» .
فالألماني يصف نفسه بأنه شغال ومنظم، والايطالي عاشق وعاطفي
والأمريكي استعماري مرح، والانجليزى ثابت بارد، والصيني خبيث غامض
والاسباني مغرور وأنفه في السماء، والسويدي لطيف محبوب، والفرنسي
عصبى ثرثار.

وهى جميعا صفات مبالغ فيها.. صفات تعطىها الشعوب. وتحاول أن
تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول الشعوب أنها طبيعتها، وأن تكوينها منذ
البداية هكذا. وهذه الشعوب مختلفة في أعماقها بعضها عن بعض إمعانا في
توسيع المسافة بين «هم» و «نحن»؟

وقديما قال الحكيم كونفوشيوس : الشعوب متشابهة، عاداتها مختلفة
فقط!

وربما تشابهت الشعوب في صفة أخرى : هى قدرتها على الابداع..
إبداع أساليب للحب وأساليب أخرى للكراهية.. ومن ضمن أساليب
الاختراع والابداع : الكذب. وكل الشعوب تخلق لنفسها أكاذيب عميقة هذه
الأكاذيب ستار يحميها، ويضلل عنها غيرها. وأكثر الشعوب ضحايا
لاكاذيبها. كما أن بعض الحيوانات ضحايا دروعها وأحجامها. فالفيل
ضحية حجمه. والسلحفاة ضحية العظام التى تحملها وتخفق فيها وتحتها !

نعود مرة أخرى إلى أقاربنا من الحيوانات..

فالحيوانات فى الغابات.. لا يقتل بعضها البعض إلا نادرا – ولكن هذه
الحيوانات عندما انتقلت إلى أقفاص الحديقة، تماما كما انتقل الانسان
إلى شقق المدينة تتقاتل حتى الموت ! وكذلك الطيور. وفى استطاعتك أن

تلقى بعصفور غريب في قفص ملئ بالعصافير من فصيلة واحدة. إنهم يعزلونه حتى الموت جوعاً أو ألماً !

مثلاً : ذلك النوع من السمك الذى اسمه أبو شوكة. أن الذكر هو الذى يحمى العش من الذكور الأخرى. فإذا كانت الأعشاش في نهر من الأنهار فإن الذكر النادر أن يخرج للقتال أو للدفاع. فلا خوف عليه من أحد. ولكن إذا تقاربت أعشاش الذكور في أحد أحواض تربية الأسماك خرجت الذكور للقتال حتى الموت. فما الذى جرى؟ أنها تقاربت حتى أوشكت أن يغتال بعضها بعضاً. إنه المكان.. تقاربت أماكن السكن. ومورد الرزق. والزحام. والخوف من الكبار على الصغار. والخوف من الكبار على الكبار. والخوف من كل شيء بوضوح ومن غير وضوح !

وربما كانت الحيوانات أكثر صراحة.. في سلامها وفي حريها. ولكن الإنسان أكثر تعقيداً في الذى يريده، وفي الذى لا يريده. فى الذى يكشفه، وفى الذى يخفيه..

والعلم الحديث الذى يحمى الطفل من الموت. ويقيه المرض ويحول دون الجنين ودون الولادة بحبوب منع الحمل، هذا العلم هو الذى يعطى للإنسان سلاحاً يهدد بالقضاء على الحضارة الإنسانية.. وليس مستحيلاً أن تلتف حول الأرض سحابة ذرية تقضى عليها.. ولن يبقى من الإنسان إلا هؤلاء الزوج سكان الغابات.. وهؤلاء هم الذين سوف يستأنفون الحياة على الأرض.. وبذلك يرد إليهم اعتبارهم بأنهم أقدر الأجناس على البقاء.. وبذلك تنتصر «نحن» السود على «هم» البيض !

الإنسان حيوان..

إهانة للحيوان!

(٥)

يقال أن قابيل عندما قتل هابيل هرب من الله إلى المدينة.. ويقال أن برج بابل الذى تجمع فيه الناس من كل لون ولغة، كان يوصف بأنه مدينة الانسان الذى يتحدى السماء. فالمدينة – إذن – هى المكان الذى تأوى إليه الجريمة والمجرمون ويتزاحم فيه الناس ويتلاصقون دون أن يتفاهموا. ولا يزال سوء الفهم هو الأب الشرعى للجريمة!

والانسان قد ترك الغابة وراءه، وأقام لنفسه المدينة، ليأوى إليها ويهرب منها، بعيدا عنها.. حتى لا يكون قابيل أول ضحية له!

وهناك أسباب كثيرة تجعل من الانسان مجرما أو منحرفا، من بين هذه الأسباب: البيئة.. الظروف.. الجو.. النشأة.. أو ما يحدث للانسان فى حياته كل يوم منذ الطفولة. فالمخ الانسانى به ١٤ ألف مليون خلية. هذه الخلايا تسجل له كل ما يدور حوله أو ما يدور فى داخله. والمخ لا يحتفظ بكل شئ وإنما يحتفظ بكل ما هو ضرورى أو له أثر قوى.. فما أكثر ما حدث وما يحدث فى حياة أى إنسان أو حيوان. وليس من الطبيعى أن يحتفظ المخ بكل ما جرى لنا وإلا كان المخ مختلا. لأن معنى ذلك أن

الهام والتأفة على نفس الدرجة من الأهمية.. وفي هذه الحالة لا تكون هناك أهمية لشيء.. فهناك فارق كبير بين هاتين التجربتين: إرضاع الأم لطفلها.. وشرب كوب من اللبن المسموم والقيء ولمرض وحافة الموت.. وهناك فارق بين أن يشرب الطفل كوباً من الماء وبين أن يغرق في حوض سباحة..

فهناك أحداث تعبر المخ. وهناك أحداث تنطبع فيه.

فالطفل الصغير يرتبط بأمه.

وعندما يكبر يرتبط بواحدة أخرى من بنات جنسه..

ومن الممكن إذا لم يجد الطفل سوى خادمة في السنوات الأولى من حياته أن يرتبط بها فترة طويلة.. أو يرتبط بخالته بعد وفاة أمه، أو يرتبط بجده بعد وفاة أمه، أو بعدها عنه.. ولكنه بعد ذلك يعود إلى الارتباط بالأم إذا وجدها فالارتباط بغير الأم، قد خلقت الظروف..

وبين العصافير – مثلاً نجد أن العصفور عندما يخرج من البيضة فإنه يتجه إلى البحث عن الأم. ولو وجد العصفور أو الكتكوت أى جسم كبير يتحرك فإنه يمشى وراءه ظناً أن هذه هي الأم.. ويظل كذلك بضعة أيام. إلى أن تظهر له الأم، فيمشى وراءها. وهذه التجربة هي التي دلت على أن الارتباط بالأم ليس بسبب حاجته إلى الغذاء أو الدفء أو الحماية. أو أن هذا الارتباط نوع من كلمة الشكر لهذه الأم على أنها أطعمته أو تولت حمايته.. ويظل العصفور يمشى وراء أى جسم كبير، بضعة أيام ثم يستقل.. ويهرب من أى جسم كبير. وعندما يكبر هذا العصفور أو الكتكوت يعرف أمه. يعرف نوعها. ويقترب من العصافير أو الكتاكيت التي من نوعه. ويختار من بينها شريكة له. ومن نفس الفصيلة..

وهناك بعض الحيوانات تربيتها حيوانات أخرى فترتبط بها أول الأمر، وعندما تكبر تتجه إلى الحيوانات التي من نوعها ومن نفس الفصيلة.. ومن النادر أن تجد تزاوجا بين حيوانين من فصيلتين مختلفتين. ولا نعرف حتى الآن لماذا يحدث ذلك؟ ولماذا لا يحدث أيضا!

فهناك نوعان من السلوك.. السلوك الفوري الذي يقوم به الحيوان وهو صغير. والسلوك السليم الذي يؤديه الحيوان عندما يكبر.

وفي حديقة الحيوان يحدث ذلك كثيرا..

فالحمام عندما يعيش بين اليمام، فانه يتجه عادة إلى اليمام. ولا يتجه إلى الحمام. وكذلك اليمام الذي يفقس ثم يعيش بين الحمام، فانه يتجه إلى الحمام.. ويترك اليمام تماما!

والطاووس الذي اعتاد على السلاحف منذ خروجه من البيضة إذا اتينا له بطاووس آخر، ذكرا أو أنثى، فإنه يتفاداه حرصا على السلاحف التي ألفها، واعتاد عليها.. وهذا هو السلوك الخاطيء..

فأى حيوان انعزل عن بيئته الطبيعية، بأن وضعناه في الاقفاص فإنه يتجه عادة إلى الحيوان الآخر الذي اعتاد أن يعيش معه.. وهذا واضح في القطط والكلاب والطيور التي تقفز على يد الانسان وعلى رجليه وتظل تتمسح فيه وتلعبه - وكلها أشكال وألوان من السلوك الجنسي - وهو سلوك خاطيء.. لأن الصحيح هو أن تتجه جميعها إلى أبناء وبنات فصائلها. ولكن الصحيح هو أن تتجه جميعها إلى أبناء فصائلها. ولكن لأنها لا تجدها فإنها تنحرف إلى أى بديل آخر.. ويكون الانسان في هذه الحالة!

وقد عرفت نساء روما هذا السلوك من القطط والكلاب والحمام، منذ أكثر من ألفي سنة. وكان من المألوف أن نجد نساء روما في الحمامات، وقد تركن الطيور تقف على أذرعتهم، وتدور حول أعناقهم.. ساعات طويلة. وكانت نساء روما يرين في ذلك نوعا من الرقة والحنان لا تجده الطيور عند الانسان.

ولكن نساء روما لم يكن يعرفن المعنى الحقيقي أو التعويض الذى اهدت إليه الطيور.. أو اضطرت إليه..

فقد اعتادت هذه الطيور على حياتها مع الانسان. فإذا اتينا لهذه الطيور بطيور من نفس فصيلتها فإنها لا تهتم بها، ولا تتناسل معها..

وقد عرف العالم كله في العام الماضى، والعام الأسبق ماذا حدث للباندا – أو الدب الصينى. ففي خارج الصين يوجد ذكر وأنثى في العالم كله. الأنثى في حديقة حيوانات موسكو. والذكر في حديقة حيوان لندن. وقد قام العلماء بمحاولات علمية معقدة للتزويج بين الاثنين. ونقلوا الذكر إلى الأنثى في موسكو. وظل الاثنان في القفص متباعدين. ونقلوا الأنثى إلى الذكر في لندن.. وظل الاثنان متباعدين. وقيل أنه موقف سياسى. وحاولوا تدفئة الجو. حاولوا تجويع الاثنين. حاولوا تضيق القفص. استخدموا الموسيقى. ابعدهما تماما عن الناس.. توقفوا عن رصدهما بالعدسات ليلا ونهارا. ولكن ظل الذكر والأنثى متباعدين طول الوقت. عاد العلماء يبحثون ويدرسون ويتناقشون.. وأعادوا كل واحد منهما إلى مكانه. ثم اختاروا أوقاتا مختلفة من السنة.. ولكن ظل كل من هذين الدبين بعيدا عن الآخر.. ولا يهتم به. وقالوا أن هذا موقف غير إنسانى من الحيوانين. وسجلت الصحف حركات الاثنين معا، متباعدين، وتارة تقف الصحف النسائية إلى جانب الذكر، وتارة أخرى إلى جانب الأنثى. ولكن ماذا جرى لهما؟

إن كلا منهما قد عاش في بيئة إنسانية. واعتاد عليها. اعتاد على مداعبة الحراس وعلى رؤية الحراس. وعلى تناول الطعام من الأيدي. وعلى التمسح في قضبان القفص. وعلى التمسح في أيدي الحارس.. سنوات طويلة. حدث هذا في لندن. وفي موسكو. فلما ظهر حيوان آخر من نفس الفصيلة، لم يكن له أى معنى. فقد اعتاد كل منهما على الأسلوب والجو والمعاملة الانسانية في الطعام والوقاية..

والديوك الرومية أيضا.. نلاحظ أن الديك الرومى يهاجم السيدات. ولا يهاجم الرجال. بل أنه يدور حول الرجال، ويقفز على أرجلهم ويتمسح فيهم. أو إذا أعطيناه الوقت فإنه يقفز على أكتافنا ويلف عنقه حول اعناقنا.. نوع من العناق كأننا انتاه لماذا؟ لأن ملابس السيدات ملونة. ولأن ذيول الفساتين مفتوحة تشبه أجنحة الديوك الرومية. ولذلك يخيل للديك أن هذا ديك آخر له نفس الألوان وله أجنحة مفتوحة. ولذلك يهاجم المرأة ويعاديه.

هذه الطيور وهذه الحيوانات قد انحرفت عن سلوكها الطبيعى. لأن الانسان قد حبسها. وقد عودها على يديه وعلى لمساته.. وعلى أسلوبه هو في الحياة.. فتكررت لأبناء جنسها من الطيور والحيوانات..

وهناك تجربة الشمبانزى الهزاز.. هذا الشمبانزى عاش وحده مع الحراس ومع زوار الحديقة فترة طويلة. ثم وضعوه في قفص. وأتوا له بأنثى من فصيلته. وظل الاثنان عشر سنوات في قفص واحد. ومن الغريب أنه لم يقربها – لم يلمسها.. وأكدت البحوث أن هذا الحيوان سليم تماما. وأن الأنثى كذلك. وفي بعض الأحيان نجد أن الذكر عنيف قاس على هذه الأنثى.

والسبب واحد : ان هذا القرد الذكر لم يعاشر هذه الأنثى . وإنما فوجئ بها بعد سنوات من حياته مع الانسان .. ولذلك لم يعد يستجيب إليها .. ولا شيء يريد إلا الأيدى الانسانية التى تمتد إليه عبر الأسلاك وإلا منظر الحارس وهو يقدم له الطعام ويداعبه .. أما بنات جنسه فلا وجود لها فى حياته .. ! (بعض الذين يعيشون فى الخارج ، يتجهون إلى الفتيات الاجنبيات ويتعايشون ويتخذون موقفا معاديا لبنات جنسهم .. أو لمواطنيهم عموما !).

وقصة نمرة السيرك معروفة فى كل الكتب العلمية .. فقد جاءوا بنمرة من نمرات السيرك ووضعوها فى قفص مع نمر ذكر من نفس الفصيلة .. اقتربت منه راحت تشمشم فيه – وتدور حوله . ثم تشمشم فيه . وبعد ذلك اختارت ركنا من القفص . بعيدا عنه . ففى أول الأمر ، ابتعدت ثم امتنعت عن الطعام بضعة أيام . ثم امتنعت تماما عن الطعام . وأبعدوا عنها الذكر .. وظلت ممتنعة عن الطعام وأخيرا عادت إلى حياتها الطبيعية بصعوبة شديدة . وراحت تنتظر عودة الحراس ورؤية الزوار . وكانت لا تأكل إلا إذا جاءها الحارس وراحت تتمسح به ..

والكلاب عندما نربّيها .. ففى استطاعتنا أن نجعلها ملتصقة بنا إذا نحن عودناها على ذلك منذ اليوم السادس حتى اليوم الستين . أما إذا ربيناها وحدها وبعبدة عن أبناء فصيلتها ، فإنها تصبح شرسة أو متوحشة . فإذا اعتادت علينا أصبح من الصعب عليها أن تعايش كلابا أخرى ..

الأطفال المساكين لا يجدون الحنان الضرورى ، ولا الحب الضرورى ولا العناية .. ولا الأب ولا الأم . ولذلك كانت طفولتهم شقية قلقة . ورجولتهم أيضا . ولا تنسى الصحف البريطانية ذلك الطفل الصغير الذى نقلوه أثناء الغارات الجوية إلى أمريكا . فلما سألوه فى المطار : من أنت ؟ قال : لا أحد .. ولا شيء !

فهذا الطفل قد فقد أبويه.. واحتضنته إحدى الأسر.. ثم نقلوه من بين أحضان هذه الأسرة إلى حيث لا يدري ولا يعرف.. فكأن الطفل إنما يتحدد وجوده واسمه ورسمه بوالديه.. بذراعين من الحنان. والطفل الانسان - عادة - يرتبط بأمه. لأن طفولته طويلة.. ولأنه في حاجة إلى الطعام والماوى سنوات طويلة. بل أن الطفل إذا ما كبر وبلغ العشرين من عمره. وأصبح إنسانا مكتمل الخلقة، وقادرا على أن يكون أبا، فإنه يظل مرتبطا بوالديه ينفقان عليه ويعنيان بأمره.. ويعاملانه على أنه كذلك. والطفل الذى يجد الأبوين، يختلف عن أبناء الملاجئ من اللقطاء واليتامى. إن هؤلاء عرايا بلا حنان ولا أبوين.. أحس أنه لا أحد ولا شىء!

والحب من أول نظرة ليس وهما ولا أكذوبة. ولا موضة قديمة. وإنما هو استمرار لتجربة الحنان. والحاجة إلى إنسان فكأن الطفل يظل طوال الوقت يبحث عن الحنان - عن الذراعين عن الأبوين.. وتظل هذه الرغبة عميقة في نفسه.. وفجأة يستجيب لها من أول نظرة.. أو كأن هذه الرغبة تفتح قلبه بالقوة.. وهنا فقط يستأنف الطفل، أو الطفل الذى أصبح رجلا تلك الرغبة القديمة.. ويكون الحب من أول نظرة!

ويحدث بين الانسان ما يجرى بين الطيور أيضا.

فإذا جعلنا ذكور البط تعيش معا، فإنها تعتاد على هذه الحياة لدرجة أننا لو أتينا لها ببعض الاناث فإنها تنفر منها.. وترى الذكور تتعامل بعضها مع بعض كما يتعامل الاناث والذكور.. وكذلك الحمام. بل من الملاحظ إننا لو وضعنا البيض أمام ذكور الحمام، فإنها بسرعة تنام عليه.. ظنا أن هذا هو بيض الذكر الآخر.. ويظل الذكر نائما على البيض حتى يفقس.. فإذا فقس البيض فإن الذكور تعنى بالصغار.

وعندما لا يجد الانسان أمه، لسبب ما، فإن غزالا يستطيع أن يرضعه وقد حدث ذلك أكثر من مرة: الانسان الغزال في صحراء فلسطين والانسان الغزال في أسبانيا. وفي الفلسفة الاسلامية «قصة حى بن يقظان» وهى قصة طفل صغير أرضعته غزالة، وظل يعيش معها بين الغزلان بعيدا عن الانسان.. بل وهاربا من الانسان!

وفي حالات نادرة وجدنا الذئبة ترضع طفلا. فإذا كبر الطفل. فإنه ظل يعيش بين الذئاب. يأكل طعامها ويعوى مثلها.. ويهرب من بنى الانسان أيضا.. وكذلك الغزال الذى اعتاد أن يرضع اللبن من زجاجة فى يد انسان.. واعتاد على الطعام من الأيدي، عندما نقل إلى احدى حدائق الحيوان، مع عدد آخر من الطباء، ارتبك، وامتنع عن الطعام ومرض. ولما أبعدت الطباء وامتدت الأيدي إليه، عاودته الحياة والحيوية والمرح واللعب.

ومن المعروف الآن أن الانسان حريص على أن تكون هذه الحيوانات مثل أطفاله.. أى مثل أطفال الانسان. ولذلك فإنه اختار الحيوانات الصغيرة ليدللها. ويظل يحب هذه الحيوانات مادامت صغيرة. ويعاملها على أنها أطفال. فالكلاب التى يحبها الانسان هى الصغيرة جدا، أو ذات الحجم الكبير والأقدام الصغيرة، أى التى تبدو كأنها عاجزة عن الحركة وفى حاجة إلى مساعدة الانسان. ولذلك نجد أن الذين يشتغلون بتربية الكلاب وتناسلها يحرصون على خلطها بعضها ببعض من أجل الحصول على سلالات أصغر حجما وأكثر اعتمادا على الانسان..

هذه الحيوانات والطيور لا تعرف الانحراف والشذوذ إلا عندما يدخل الانسان فى حياتها. وينقلها من أوكارها إلى أقفاصه، ومن غاباتها إلى حظائره.. ومن الطبيعة إلى السجن النظيف فى حديقة الحيوان. هنا فقط

عرفت الجريمة والقتل والعنف.. هنا فقط أصبحت للحيوانات صفات إنسانية. ولذلك إذا قيل أن الانسان حيوان، كانت إهانة للحيوان. وإذا قيل أن الحيوان إنسان، كانت هذه شتمة للحيوان أيضا.

والانسان نفسه عندما انتقل إلى المدينة التي بناها وجملها ووسعها ورفعها، كان هو أيضا حبيسا للغرف الضيقة، والمكاتب الخانقة والمصانع المدوية والمصاعد المرتجفة، والسيارات السامة.. أنه هو أيضا ليس أحسن حالا من الحيوان، أن الذي سجن الحيوان، قد سجن نفسه أيضا.. وأصبحت حياته انحرافا من سلوك إلى سلوك ومن طريق إلى طريق.. أصبح الرجال أقل رجولة، وأصبح الأطفال أكثر طفولة.. وأصبح الناس أطفالا يرعون الأطفال ويكرهونهم.. ويكرهون أنفسهم أيضا!..

أنت تعمل... وزوجتك تتشاجر هذه ضرورة! (٦)

كل إنسان قرفان من حياته.

اما لأن حياته مرهقة له وهو يريد أن يستريح، واما لأن هذه الحياة تافهة لا معنى لها ولا قيمة.. فإذا جلس في البيت أو على المقهى قد يجد المعنى أو يستريح من البحث عن معنى لحياته.. أو يكون الموت هو المعنى الأخير لها.

وكثيرا ما نسمع أناسا يقولون: ياريت تنتهى خدمتى وأحال إلى المعاش لعلى أستريح.. أجلس في الشمس جنب الحيط. ويا دار ما دخلك شر.. كافى خيرى شرى.. وودن من طين وودن من عجين.. والحمد لله على كده!.
ولكن ليس هذا صحيحا.

فالذى يحال إلى المعاش سوف يعانى مشكلة خطيرة، وهى أنه قد اعتاد على حياة مليئة بالناس الذين يضايقونه أو يضايقهم. أنه قد رتب كل مشاعره عليهم.. على حبهم أو على الفرار منهم.. لقد ملأوا حياته.. وهو فى كل لحظة يفكر فيهم.. أو يستعد للقرف منهم. وفى استطاعتك أن تراقب حركاتك منذ اللحظة الأولى التى تخرج فيها من بيتك إلى عملك.

فإن كانت ليلتك مريحة فأنت تخرج من البيت مستريحا - هادىء
الخطوات، - واسع الصدر.. ولا تكاد تتجه إلى الشارع الذى ستنتظر فيه
الأتوبيس حتى يبدأ « فيلم القرف اليومى ».. سأفترض أنك وجدت مكانا فى
الأتوبيس.. وأنت وجدت الكمسارى وكان معه فكة، وركبت ونزلت بسلامة
الله. وعبرت الشارع وإن كان هذا صعبا بعض الشيء خصوصا إذا كنت
تعمل فى وسط القاهرة. وبدأت تدخل باب المؤسسة أو الشركة أو الهيئة أو
الوزارة. هنا فقط يجب أن تراقب حركاتك.. ولو كانت معك مرآة لوجدت
التكشيرة قد علت وجهك.. وبشكل غريب جدا قد التوت شفتاك وظهر بسرعة
شيء على لسانك.. أما هذا النقر فى الجانب الأيسر من البطن فليس
عفريتاً.. وإنما هو المصران الغليظ، وهذا الضيق المفاجئ فى التنفس ليس
سببه انسحاب الأوكسجين من الهواء بسرعة. وإنما سببه أن لديك شعورا
غريبا أن كل زملائك فى العمل يزاحمونك فى التنفس.. وأنهم لا يأخذون من
الهواء نفس نصيبك، انهم يأخذون أكثر منك قليلا.. فهم يسحبون الهواء
من صدرك !.

وإذا كنت قد وصلت الآن إلى مكتبك.. وجلست بسرعة، وامتدت يدك
إلى الدرج، وأنا أستبعد فلأنك تريد أن تضع همك فى الورق.. أو فى
سندوتش قد حملته معك وتريد أن تأكله أو تمزقه بأسنانك.. لعل هذا
السندوتش يرمز إلى شيء أو إلى أحد.. يعمل معك أو يعمل ضدك.. أو
أنت تعمل له وهو لا يدرى بك.. ولا يشكرك أو لا يمتن لك : زوجتك..
أولادك.. إخوتك.. أو أنت شخصا لا تحمد الله ولا تشكره على ما أعطاك !.

وفى هذه اللحظة يدخل مواطن.. ولو كانت هناك كاميرا سحرية لكان
وجهك هكذا : اللقمة الآن على شفتيك.. بين أسنانك.. ولقمة أخرى وقفت فى

حلقك.. وسوائل معدتك تتخبط كأمواج البحر على صخرة كريهة اللون والرائحة - ولكن سرعان ما تعاود الأكل بقليل من الاستطعام، لأن هذا المواطن لا يريدك وإنما يريد زميلاً لك لم يحضر، ولأنه لم يحضر فقد ارتفع صدرك وسقط بسرعة، فهذا الموظف الذى لم يحضر محظوظ أنه ليس متزوجاً.. وليس عنده أولاد.. مع أنك تعلم أنه ينفق على إخوته وعلى أمه. ولكنك تقول لنفسك: ياريت. كانت لى أم واخوة.. ولم يكن لى أولاد ولا زوجة.

ومعنى هذا أنك انتهزت هذه الفرصة لتحقق عليه.. وتؤكد سخطك على نفسك!.

وغير ذلك من الأشخاص والمشاعر التى تتكرر كل يوم مئات المرات فى المكتب وفى الشارع وفى الطريق إلى ومن المكتب.. عشرات السنين وكل ذلك سوف يتوقف مرة واحدة، إذا أنت أحلت إلى المعاش!.

تماماً كما يتوقف الأتوبيس مرة واحدة ويسقط الناس من النوافذ والأبواب على أرضية الشارع.. حيث لا حركة. وإنما أرضية الشارع الباردة فى الصباح والحارة فى الظهيرة.. ووحده على الأرض.. أليس فى عينيك إلا ظلال الناس وفى أذنك أصداؤهم، وفى نفسك قرفهم، أو القرف منهم!.

والإنسان يضيق بحياته إذا كانت صارمة طوال الوقت، أو خامدة طوال الوقت.. فالذى يعمل على ظهر مركب يتمنى لو عاد إلى الشاطئ وانحنى على الأرض يقبلها، وربنا تاب عليه من اهتزاز المركب، وصخب الأمواج والرياح.. أنه يريد أن يستقر على الأرض.. والذى يعمل على الشاطئ، قد

زهق من الركود والمكان الواحد، ويريد من الله أن يحول الأرض إلى موج، والهواء إلى عواصف، وتتحرك به ومن تحته هذه الدنيا لعله يجد لونا وطعما وراحة أحسن وأجمل.

والذى يجلس إلى جوار راديو صارخ دائما، لا يطيقه.. والذى يجلس إلى راديو هامس لا يطيقه.. وكل واحد يريد أن يرفع الهامس، ويخفض الصارخ، لكى يصبح قادرا على تذوق هذه الحياة.. والتكيف معها.. ثم يعيش.

والانسان هو هذا الحيوان القادر على أن يتكيف مع ظروفه، أو يكيفها.

وأجدادنا كانوا فى حالة صراع مع البيئة. فهم فى حاجة إلى جهد هائل لكى يعيشوا. فهم الذين يصيدون الحيوانات ويذبحونها ويطهونها. وهم الذين يبنون البيت ويدافعون عن الزوجة والأولاد ولكن الانسان ليس فى حاجة إلى كل هذه الطاقات فغيره يتولى له صيد الحيوان وذبحه. وغيره يصنع له الخبز ويأتى له بالماء. ويبنى له البيت ويعلم الطفل ويعالجه.. ويحرس الجميع..

وهناك نوعان من الحيوانات، أو نوعان من السلوك الحيوانى فى مواجهة البيئة. حيوانات فى غاية الكسل وحيوانات فى غاية النشاط والانتهازية.. فهناك حيوانات لا تأكل إلا النمل، وحيوانات لا تأكل إلا ورق الصفصاف مثل الكوالا، وهناك الثعابين والنسور لا تأكل إلا العصافير وبيض الطيور.. فإذا وجدت هذه الحيوانات طعامها. رضيت به وأكلت ونامت واسترخت. والنسر سعيد جدا فى قفصه فى حديقة الحيوان مادام يغرس منقاره فى دم أرنب جديد كل يوم.

أما الحيوانات الانتهازية فهي الكلاب والذئاب والقرود والانسان طبعاً
فهي تأكل كل شىء.. وهذه الحيوانات تضع أى «سهم» فى (قوس) الحياة
والعيش!

ولكن إذا وجد الانسان أو الحيوان ما يحتاج إليه من الطعام والشراب،
فالمفروض أن يهدأ ويسكن.. وخلص.. ولكن يبدو أن هذا ليس صحيحاً
فالانسان محتاج إلى إثارة مستمرة.. ومحتاج أن يرد على هذه الاثارة. بل
ان البيئة لو هدأت حوله، فإنه يحركها ليتحرك هو أيضاً. يهزها ليهتز..
يريد أن يحولها إلى كرة ليشوطها أو إلى نار ليخمدها.

وهذا ما يفعله القط فى البيت.. فإذا أنت أعطيته طعاماً، فإنه يضربه
برجله.. ويلقى به بعيداً.. ثم يذهب إليه، يهجم عليه. وينقض ثم يأكله.
وأحياناً يأكله ويمزقه بعنف.. كأن الطعام يقاومه. أن القط يفتعل معركة
ليقوم فيها بدور الصياد. ثم يقتل الفريسة. والكلب يفعل بالكرة أو بأدوات
البيت نفس الشىء.. أنه يهجم عليها.. ويفتعل معركة ويصيد الكرة ثم
يعيدها إلى صاحبها. وينتظر أن تداعبه مرة أخرى.. أو أن تختلق له الجو
المناسب للصيد.. كما لو كان ما يزال مفترساً فى الغابة.

هذه الحيوانات عندما نقلت إلى بيئة هادئة. إلى البيوت أو إلى حدائق
الحيوانات. فإنها اضطرت إلى هذا السلوك الغريب. أو الجديد. وهى
لا تفعل كذلك فى الغابة.!

وهناك حيوان الراكون من أكلة اللحوم ويعيش فى أمريكا الشمالية.. هذا
الحيوان تصفه الأساطير بأنه لا يأكل طعامه إلا إذا غسله بالماء.. ولكن
هذا الحيوان لا يأكل طعامه مباشرة.. أنه يظل يلقي به فى الماء ويصيده

كأن الطعام هارب منه.. مرة بعد مرة.. وفي هذه الأثناء يكون طعامه قد أصبح نظيفا والحقيقة أنه يفتعل المعارك ليفترس طعامه !

وبعض الحيوانات القوارض تقشر الفاكهة.. وبعد أن تقشرها تعود فتأكل القشور مرة أخرى.. فهذا الحيوان يأكل الفاكهة عادة. ولكن ما الذى يفعله بالوقت الكثير. ما الذى يفعله فى هذا الركود الرهيب فى حياة الحديقة.. لابد أن يشغله بشيء.. أن يحركه.. ولذلك يقشر الفاكهة، ويلقى بقشرها ثم يعود فيأكلها من جديد !.

انظر إلى ما تفعله الزوجة فى البيت.. عندها وقت كثير. والمكالمات التليفونية مهما طاللت فانها غير قادرة على القضاء عليه. إذ لابد أن تنتقل من غرفة إلى غرفة – وتعيد تنظيم ما نظمته بالأمس. أو تعيد لخبطة ما لخبطته بالأمس. أنها التنظيم والمساعدة والاشراف على الغسيل والطبخ. كل هذا روتين ممل. يجىء دور الخدم فى البيت. لا يمكن أن يكون سبب هذا الشجار اليومى والخلاف والخناقات اليومية فى كل بيت إلا هذا المعنى : تحريك الخمول والخمود والرتابة.. لابد من هز الحياة اليومية بعنف لعلها تتغير.. لابد من «تغيير الدم». دم سيدة البيت أو خادمتها.. ولا توجد سيدة واحدة لا تشكو من الخدم.. وخصوصا خادمت هذه الأيام.. أما ما الذى حدث هذه الأيام فجعل الخادمت مختلفات عن خادمت زمان، فلا شيء قد حدث!.. وإنما كل ما حدث هو أن سيدات البيوت ليس عندهن ما يفعلنه.. ليس عندهن ما يشغلهن.. فقد توافرت لهن لقمة العيش والبيوت والراحة والفلوس. ولا يهم من أين تجيء.. أو كيف يأتى بها صاحب البيت، فهو حر فى عمله وفى حياته المهم أن تجيء.. وصاحبة البيت عندها مشكلة بعد ذلك : – أنها تريد أن تهز كل شيء حتى

لا تشعر بالملل.. وإذا لم تكن الخناقة مع الجارة من الشباك أو من البلكونة أو في التليفون أو مع الخادمة، كافية للقضاء على الملل اليومى.. فإن سيدة البيت عندها فرصة لا تعوض وهى أن تتشاجر مع الزوج. ولا يحلو ذلك إلا عندما يكون الاثنان معا فى غرفة أو فى سرير.. تماما كما تفعل حيوانات الحديقة.. فى الأقفاص.. وهذه الخناقات تعطى لسيدة البيت فرصتها الذهبية فى أن تبكى. وفى بكائها راحة لها من كل مضايقات حياتها اليومية.. فهى قد تشاجرت مع الجارة والصديقة والخادمة ولم تستطع أن تنفس عنها فتبكى. وإنما زوجها هو الذى أعطاها هذه الفرصة العظيمة – ومع ذلك لا يستحق الشكر على شىء!.

فالعامل ليس ضروريا عند بعض السيدات، لأن هناك من يعمل لها – وهى فى هذه الحالات مثل كبار الأغنياء. أنهم لا يعملون. ولكن. هناك من يعمل لهم، ولذلك فهم يبحثون عن التسلية، وعن الاثارة. وعن العنف الذى يوقظهم من سبات الراحة والهدوء!.

أما إذا كانت الحياة نفسها غير مثيرة للحيوانات فى الأقفاص فإنها عادة تبالغ وتسرف جدا فى أفعالها.. فمثلا نجد أن القردة تأكل كل ما يلقيه لها الانسان من طعام. على الرغم من أنها لا تحتاج إلى هذا الطعام ولكنها تحاول أن تقوم بأى عمل. تحاول أن تجتذب الانسان إليها.. ولذلك تأكل القردة أكثر مما تحتاج إليه. فيزداد وزنها أو تمرض.

نحن نرى أن النعام يأكل حتى المعادن.. المسامير والمفاتيح والحجارة وعلب الصفيح.

وقد لوحظ أن فيلا واحدا فى حديقة الحيوان قد أكل فى يوم واحد ١٧٠٠ حبة سودانى و١٢٠٠ قطعة حلوى وألف قطعة سكر و٨٠٠ قطعة

بسكويت و ٢٠٠ فص برتقال و ٢٠ تفاحة و ٢٠ قطعة ورق ورباط جزمة..
وجوانتى أيضا وهناك حيوانات كثيرة فى الحديقة تموت من التخمّة.

وبعض الحيوانات تأكل طعامها، ثم ترجعه ثم تأكله مرة أخرى –
كما كان الرومان يفعلون من ألوف السنين وبعض أبناء الريف يفعل ذلك
.أيضا.. ففى حديقة لندن غوريلا تفعل ذلك كل يوم. وبعض الدببة.

وهناك حيوانات تظل تنظف نفسها لأنها لا تجد ما تفعله – بعض
السيدات أيضا – فالقط يظل يلحق نفسه. والطيور تنظف ريشها.

أما الانسان فهو يشرب ما لا يحتاج من المياه الغازية والعصير والخمور
فليس الانسان عطشان ولكنه الملل. وهو يأكل الحلويات والتسالى، مع أنه
ليس جائعا. ولكن ما الذى يفعله بالملل اليومى.. ما الذى يفعله بهذا
الوقت الطويل والتدخين كذلك. ويحدث للانسان ما يحدث.. للحيوان.
فالاسراف نفسه قاتل يهلك المعدة والكبد.

والطفل الصغير يمص أصابعه.. أنه اعتاد على الرضاعة. فان ابتعدت
الأم، أو أبعد عنها، كان لابد أن يقوم بما كان يفعله من قبل.

حتى الحيوانات إذا لم تجد ما تفعله أو ما تأكله فإنها تعاكس الزوار..
ان أسدا فى إحدى الحدائق انتهز فرصة وجود عدد كثير من الناس وتبول
عليهم.. فثار الناس وهربوا.. واندھشوا.. والتفوا حوله.. فى اليوم التالى..
أتى الأسد بشيء جديد.. فقد تبول على القريبين من القفص.. فلما
ابتعدوا عنه.. تبول على الذين يقفون وراءهم.. أنه هو نفسه الذى يستدرج
الجمهور لاثارته.. أنه هو الذى يتصيد الناس ليثيروه.. وبعض القردة
لا تكاد ترى الناس حتى تتشقلب وتتشاجر ليجىء الناس ويتفرجوا.

والفيلة تمد خراطيمها إلى الناس.. وكلب البحر يرش الناس بالمياه..
والتمساح يبكى إذا تزاحم الناس.. وأحيانا يدمع ليروا دموعه وهو يأكل..
كأن التمساح يعرف ما يقوله الناس عن «دموع التماسيح» فهي لا تبكى
إلا من فرحتها بالطعام.. فهي لا تبكى على الطعام وإنما تبكى بسبب
الطعام.. ويتفرج الناس!.

إن هذه الحيوانات الأخرى تتسلى، كما نتسلى بكرة القدم والشطرنج –
وافتهال المعارك والأحزان والحماس.. ويكون الوقت هو الكرة التى يتزاحم
الجميع على ضربها ومتابعتها.. ثم الراحة بعد ذلك من أجل البحث عن
لعبة أخرى.. وكذلك كل الفنون: إنها تسلية وقتية.

والحيوانات فى الأقفاص ضاقت الأرض تحت قدميها. ولذلك تقطع
المكان ذهابا وإيابا.. أو تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف كأنها فى مشوار
فالحيوانات إذا لم تجد المكان فإنها تتصرف كما لو كان هناك مكان واسع
طويل جدا لا تستطيع أن تأتى على نهايته ولذلك فهي تمشى طوال الوقت..
مع أن ضيق المكان يغيرها بالهدوء.

والانسان يجد الطعام. ولكنه لا يهدأ. إنه يحاول أن يأكل أكثر أو يحاول
أن يأكل طعامه بشهية أو شره كأنه لا يجد ما يكفيه. أو كأن هناك خوفا
لا يجد ما يأكله. ولذلك يضع على طعامه شطة.. ويجعل العطور أكثر تركيزا
ليشمها بشراهة.. والانسان يجد الفراش الذى ينام عليه.. ولكنه يجعل
الفراش من القطن أو من الحرير أو الكاوتشوك لى ينام أكثر.

والاثارة المستمرة تصيب الانسان والحيون بالمرض.. بالانهيار..
بالسقوط. فالحيوانات فى الحديقة إذا نحن نقلناها من قفص إلى قفص ثم
أدخلت معها حيوانات غريبة.. وجعلت الناس يتفرجون عليها، فان هذا

يرهق الحيوانات. فهي في حالة خوف وقلق. وغير قادرة على الهرب وغير قادرة على أن تختفى وتتوارى، كل ذلك يحطم احساسها وأعصابها.. إن بعض النمر تظل تروح وتجيء ثم تحك أنوفها في أسلاك القفص حتى يسيل دمها.. وبعض القردة تظل تتشقلب وتعض نفسها حتى يسيل دمها أيضا.

والانسان إذا كانت حياته مثيرة دائما فان المرض هو الحل الوحيد لهذه الاثارة. ويصبح السرير هو المخبأ الوحيد الذي يأوى إليه من غارات الحياة اليومية – ولكن بعد أن أصيب في أماكن مختلفة من جسمه.. في رأسه على شكل صداع أو في مصراخه الغليظ على شكل التهاب وهناك إصابات أعنف وأشد. في القلب مثلا، إذا كان عمله عقليا. ومن الغريب أن كل انسان يعمل بقلب، يصاب في قلبه ولكن أن يقال: إن كل انسان قلبه على شغله هو الوحيد الذي يصيبه شغله في قلبه مع الأسف!.

هذه الأمراض اليسيرة التي تصيب الانسان بسبب الاثارة المستمرة، ليست مرضا وإنما هي إشارة خطر إلى احتمال الإصابة بأمراض أقسى وأعنف.. وهي إشارة من صديق لا إشارة من عدو.. ولكن الانسان يشتري الاثارة بكل متاعبها، لأنها أهون الملل بكل حلاوته. ولذلك يشرب الناس القهوة رغم أنها تلهب المعدة، ويتعاطى الناس المنبهات رغم أنها تكسر الرأس وتوجع العين.. ويتعاطى الناس المثبرات الجنسية رغم أنها توجع القلب.. بل أن الانسان يتفنن في إثارة نفسه جنسيا.. انظر إلى ملابس المرأة.. أن كل هذه الملابس ما الذي تفعله: انها تتركز حول مناطق الاثارة الجنسية.. أو أنها تحرك مناطق الاثارة.. فهي تبرز الصدر والأرداف وتعري الساقين.. والملابس طالعة نازلة ووراءها عيون الرجل..

أما ملابس الرجال فهي رياضية.. والملابس الرياضية معناها أن صاحبها رجل غنى قادر.. وأن لديه وقتا لكى يلهو ويلعب.. فهو ليس عاملا ولا محتاجا إلى العمل. وانما هو إنسان قد فرغ من العمل، وهو الآن يستمتع بحياته.. وكل مוזات الرجال هي موزات الملابس الرياضية وكان الناس قديما يركبون الخيول ويصيدون بالكلاب والصقور. أما الآن فهم يرتدون ملابس الرياضيين فقط. وكذلك ملابس المرأة – الآن هي ملابس رياضية. فالمينى جيب هو بنطلون.. وجيب لاعبة التنس في سنة ١٩٣٠ وفي سنة ١٩٤٠.

والاعلانات تؤكد أن تكون السيقان طويلة، أو أطول مما يجب.. فهذا ما يثير الرجل، والمرأة تضع المساحيق لتجعل بشرتها أنعم. وهذا شئ مثير وتجعل بشرتها أفتح. وهذا يؤكد أنها لا تتعرض إلى الشمس. وانما هي – ست بيت ليست في حاجة إلى العمل. وانما هي غنية قادرة. وكل ما تطلبه هو أن تكون محبوبة مرغوبة.. وإذا جلست المرأة في الشمس فلا بد أن تبدو مختلفة. ولذلك لا تترك للشمس أن تحرق بشرتها. وتضع لذلك السوائل التى تعطى للبشرة لونها برنزيا لا تحرقه الشمس، ولا تقدر عليه الفتيات الفقيرات.

ولابد أن يكون الفلاح هو أسعد الجميع حالا.

فكل شئ من حوله هادىء وهو يريد أن يحركه بهدوء. أو ليس من الضرورى أن يتحرك. وأقصى ما يفعله الفلاح هو إقامة حفلات غناء وموسيقى وبعد ذلك يأكل وينام.. وليس من السهل اقناعه بأن ينظم النسل. فما الذى يفعله ما دامت الشمس تغرب مبكرا. والليل طويل لابد أن ينام. وتجيء الأطفال في الليل!.

وليس صحيحاً ما يقال عن الرجل التركي الذي أحيل إلى المعاش فأتى
بعدد من القلل. وراح يأمر الناس : اشرب من هذه. اترك هذه.

ونحن نضحك من هذا الوضع. ونقول لابد أن يكون الرجل تركيا ليفعل
ذلك. لأن الأتراك يحبون أن يأمرُوا الفلاحين.. وأن يتحكموا فيهم.. ولكن
لماذا لا نسأل أنفسنا : وكيف يقبل الفلاحون كيف لا يفكر واحد منهم في
كسر القلة.. أو كسر رقبة هذا التركي ؟ إن الاحتفاظ بهذه القصة على
ما هي عليه يؤكد أننا راضينا بهذا الوضع. ولا يغفر لنا أننا نضحك منه..
فالتركي يأمر ونحن نشرب من القلل؟.

ولكن كل إنسان إذا ما أحيل إلى المعاش، أو أدخل أحد أقفاص حديقة
الحيوانات هو هذا التركي.. يأمر وينهى ويشغل نفسه.. لأنه قد انعزل
تماماً عن حياة الاثارة.. فلا بد أن يخلق الاثارة وإلا مات.



ماہذا
الشیء العنیف
فی النار یخ؟!

هل.. يولد الانسان مجرما ؟

(١)

هناك شعوب نمت.. وهناك شعوب تنمو.. ومصيبة الانسانية هي هذه الشعوب التي نمت.. أى التي أصبحت قادرة على إنتاج ما تحتاج إليه من الطعام وزيادة. وقادرة على إنتاج ما تحتاج إليه من أسلحة الدمار وللقتل على الطعام ومصادر الطعام وعلى الذين يحتاجون إلى الطعام.. والدمار ليس ظاهرة حديثة.. إنه من أهم علامات الطريق بين الشعوب والحضارات من ألوف السنين.. حتى يمكن أن يقال أن الانسان مجرم بطبعه قاتل. ولد ليقتل غيره أو فهو إما قاتل أو قتل.

والحقيقة أنه القاتل والقتل.

فلماذا؟ هناك رأيان في تفسير الجريمة الانسانية.. أو في تفسير العنف والعدوان بين الشعوب.

رأى يقول: إن الانسان ولد مجرما. فالجريمة فيه.. ورأى يقول: إن الانسان لا يولد مجرما، وإنما يصير مجرما. فالجريمة ليست فيه. وإنما الجريمة مفروضة عليه.

ومنذ ألف سنة نرى ما يؤيد الرأي الاول. فقد رأينا في الشعر الصيني القديم أن أحد الشعراء يشكو من الامبراطور.. فقد قتل نصف مليون من الرجال دون أن يتساعل: ومن الذى يحرق الأرض؟ ولكن سيدة شاعت أن تجيب عن هذا السؤال. فبعد مقتل زوجها حملت الفأس وذهبت إلى الحقل.. وفي هدوء الليل كانوا يستمعون إلى بكائها.

وفي القرن الثانى عشر أعلن مؤرخ صينى عن السبب الوجيه الذى يجعل اللصوص وقطاع الطرق ينتشرون في الريف. فقد لاحظ أنه على أثر المجاعات والأوبئة والفيضانات وبرودة الجو ينتشر اللصوص. ويخطفون الطعام من أيدي الفلاحين، والحيوانات من الحقول، إنه الجوع الذى يحول المواطن إلى لص.

فالجوع إذن هو الذى يدفع الناس إلى العنف: أى إلى خطف الطعام، فإذا قاوم الناس سالت الدماء.. وانتصر القوى.

وعلى أيام هارون الرشيد كان الديك يصيح في الموصل فيسمعه الناس في البصرة - أى على مسافة ٧٠٠ كيلو متر فقد كانت المسافة عامرة بالبيوت، وعلى البيوت وقفت الديوك تتلقى الصياح وتطلقه.. ويقال: كان سكان العراق ثلاثين مليوناً.. فماذا حدث بعد ذلك.

وهذا الوادى الأخضر من مراكش إلى بلاد التركستان حيث الأنهار والوديان وحقول القمح والأرز وحيث بداية الحضارة الانسانية. وحيث قامت الحروب الكثيرة، فأهل البدو كانوا يهاجمون أهل الوديان.. وأهل الخيام يهاجمون أهل البيوت.. ثم أشعة الشمس.. ثم المستنقعات التى أطلقت الملاريا على الناس.. ثم حروب الفتوحات الاسلامية.. ثم غزوات المغول والحروب الصليبية.. ثم الضرائب الفادحة التى تحتملها ضرورات الدفاع..

ثم الحروب التي تجعل الناس ينشغلون عن الزراعة والرى والصرف..كل هذا العنف الاجتماعى قد أدى إلى خراب الأرض والقضاء على أهلها.. واحتاجت إلى مئات السنين حتى تستقر البذرة فى الأرض.. وحتى تثبت يد الفلاح على الفأس.. وحتى يطمئن إلى طعام يومه وغده.. وحتى يكتفى الناس بديك واحد يؤذن فى الراديو فيسمعه الناس فى كل مكان.

وفى أمريكا تخصصت الولايات الجنوبية فى زراعة القطن، وعاشت على القطن وعاشت له. إذا ارتفع سعر القطن، ارتفعت معنويات الناس.. وإذا انخفض انحط الناس إلى ما دون الحيوانات. وكان الزوج هم الضحية – فهم الأضعف – وقد قتل عشرات الألوف من الزوج فى سنة ١٨٨٠ ومن بعدها عندما انخفض سعر القطن.. وعندما سقط سعر القطن سنة ١٩٢١ كانت الكوارث فى الولايات المتحدة الجنوبية من كل نوع.. إنها إذن معركة الخبز والدم، إذا جاء الخبز اختفى الدم.. وإذا اختفى الخبز انفجر الدم.

وفى سنة ١٩٢٢ اجتمع ٥٢٨ من علماء النفس فى أمريكا وأثاروا هذه القضية، وتساءلوا: هل الانسان عنيف بطبعه؟ . وهذا العنف ضرورى والحروب ضرورية والعنف يؤكد به الانسان وجوده.. لأن العنف معناه: أننى هنا.. وليس من الضرورى أن تكون أنت هنا.. فما رأى العلماء الحاضرين فى هذا المؤتمر؟

٣٦٢ أجابوا بأنهم يشكون فى أن العنف أسلوب لا مفر منه و ١٠ فقط قالوا نعم.. أى أن العنف ضرورى و ٢٢ كانت إجابتهم غامضة و ١٥٠ امتنعوا عن الإجابة.

وبقيت المشكلة قائمة.. وبصورة عنيفة، لأن عدم فهم هذا الموضوع لا يفرض طريق العنف، فبعد الحرب العالمية الأخيرة اندلعت المظاهرات والانقلابات والثورات فى كل بلاد العالم.. بلا استثناء

كما حدث فيما بين ١٩٤٥ و ١٩٦٤ أكثر من ثلاثين نزاعا دوليا.. من بينها ١٢ حربا عالمية.

فهل هو الجوع والبحث عن الطعام أو المزيد من الطعام هو الذى يدفع الشعوب إلى أن تدوس الشعوب وتقضى عليها؟

يبدو أن هذا الرأى ليس صحيحا.. والدليل على ذلك أن المجتمعات التى نمت قد انتشرت فيها كل أنواع الجرائم، وكل صور العنف، فالمجتمع الأمريكى وهو «مجتمع الرفاهية» ملئ بكل صور الدماء. على الأرض وعلى الشاشة. ولكن يجب أن نفهم أن «مجتمع الرفاهية» ليس معناه المجتمع الذى يعيش أفراده فى رفاهية. ففي أمريكا فقراء تعساء بالملايين، وربما كان هؤلاء الفقراء أحسن حالا من زملائهم فى الهند.. صحيح أنهم ينامون على الأرصفة، ولكن الفارق الوحيد أن الفقير الهندى من الممكن أن يموت من الجوع.. أما الفقير الأمريكانى فمن الممكن أن يموت جائعا.. أى يموت دون أن يأكل كل ما فى نفسه.

ومن مقاييس الرفاهية أن يملك الأمريكى سيارة، ولكن السيارة نفسها ليست ترفا بل هى وسيلة ضرورية، كضرورة علبة الكبريت لمن يدخن.. وإن كان التدخين نفسه ليس ضروريا. ولكن الأرقام تقول لنا أن ٤٠٪ من الشعب الأمريكى يشترون ٩٠٪ من السيارات التى تنتجها المصانع.

فهل الناس راضون فى مجتمعات الرفاهية..؟

إن هناك سخطا شديدا، وهناك شبانا تأثرين، متمردين، يقفون يتفرجون على المجتمع، ويتمنون زواله. يقفون شامتين فى انهيار القيم الاجتماعية والاخلاقية ويفضلون أن يحرقوا أنفسهم على أن يعملوا، أى يفضلون الموت على الحياة فى مجتمع الرفاهية.

إذن ليس الطعام .. وإنما هو الشر والعنف الأصيل في نفوس الناس هو الذى يدفعهم إلى البحث عن فرصة.. عن مناسبة يؤكدون فيها لأنفسهم ولغيرهم أنهم مجرمون.

وفي مواجهة ثورة الشبان شكوى الآباء أيضا. فالآباء ساخطون على أولادهم، فأولادهم لا يشعرون بأى امتنان لما فعله المجتمع من أجلهم فهذا العقوق صفة من صفات الجيل.. بل صفة من صفات كل جيل جديد.

وقبل الميلاد بثمانية عشر قرنا وجدنا قوالب من الطوب في العراق تحكى قصة أحد الأبناء «الخنافس» في ذلك الوقت.. فأبوه يشكو من أنه صعلوك يتسكع في الشوارع ليلا ونهارا ويشكو من أن ابنه يتصور أن لدى والديه جبالا من الذهب.. وأنهما لا يتعبان في جمع المال.. وهو في نفس الوقت لا يفكر في أن يتعب نفسه. إذ يكفيه أن أباه قد تعب. فليس من العقل أن يتعب اثنان من أجل مبلغ واحد.

وهذا الابن العراقي كان ينتسب إلى طبقة المثقفين.

ولكن السخط الآن يشمل كل الطبقات في مجتمعات السرفاهية.. وهناك عشرات الكتاب يسمون أنفسهم بالأدباء الساخطين.. وهناك ملايين يسمون أنفسهم الساخطين.. وإن لم تكن عندهم قضية.. أى مبررات قوية للسخط، إنهم ساخطون وعلى غيرهم أن يفسر هذا السخط.. فإذا كانوا مرضى فليتحول الناس إلى أطباء.

وحدث في موسكو سنة ١٩٦٦ ما جرى قبل ذلك في لندن.. ألوف الشبان اجتمعوا في الميدان الأحمر.. ومن بين الشبان اثنان يحمل كل منهما جيتارا للأطفال بمناسبة خاصة، وحدثت شرارة وتعالّت الأصوات، وخرجت الأيدي

من الجيوب، ولمعت سكاكين. ونشبت معارك.. فضها البوليس بسرعة،
وصدرت بعدها إجراءات عنيفة، ولكن المهم أن شيئاً ما قد حدث..
لا يختلف كثيراً عما حدث في لندن أو نيويورك أو باريس بعد ذلك.

ولذلك يجب أن نتساءل مرة أخرى: هل صحيح أن كل أبناء مجتمعات
الرخاء يعيشون في رخاء؟ هل كل الفلوس متداولة بالعدل بين الناس؟ في
أمريكا نجد أن هناك أغلبية متوسطة الحال وأربعين مليوناً من الفقراء
وهناك أقلية تملك كل الثروات وكل القدرات.

ولذلك لا يمكن أن نصف الناس في أمريكا بأنهم يعيشون في رفاهية
ورخاء.. وإنما بعض الناس فقط.. لأن الفلوس كالأسمدة يجب أن نبذرها
وننثرها في كل الحقل وتحت كل الأشجار.

ولو انتقلنا من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان وهذا هو الأساس في
هذا الكتاب الممتع الذي أقدمه فإننا سنجد حقائق غريبة تدهشنا. ففي
عالم القردة مثلاً، وهي من الثدييات كالإنسان قد لاحظ العلماء أنها تعيش
حياة عنيفة في أقفاصها في حدائق الحيوان. فالقوى يقتل الضعيف..
والضعيف هو الطفل والأنثى.

وإذا كان عالم الإنسان هو: عالم الحق قوة، فإن عالم القردة هو عالم:
القوة حق.

وفي عالم القردة في أقفاصها نجد أن القرد عندما يثور قد يأكل أحد
القردة.. مع أن القردة حيوانات لا تأكل اللحوم.. ولكنها ثورة الغضب
وجنون العنف.

والعالم الكبير سوكرمان قد أجرى تجارب عديدة على مائة قرد ووضعها
في جبلاية، ووفر لها الطعام.. فعالم القردة هذا هو عالم الرفاهية.

فالمسكن متوافر والطعام كثير، والرعاية الصحية للجميع، ثم أن في داخل هذه القبيلة من القروء يوجد القرد القوى الذى يحكم القبيلة، والذى إذا اقترب من قرد صغير فى فمه موزة فإنها تسقط من فمه فوراً.. ثم يدير وجهه للحائط.. فماذا حدث فى هذا المجتمع؟ لم يتغير شىء.. إن أعمال العنف مستمرة. والسطو والخطف والقتل لأتفه الأسباب.. وإذا نشبت معارك دامية – وهى عادة دامية – فإن الأغلبية هى من الاناث والصغار.

وقد قام الأستاذ سوكرمان بتجاربه سنة ١٩٣٠ وظلت نظرية سوكرمان سيدة على كل الأبحاث العلمية منذ ذلك الوقت ، وخلاصة هذه النظرية أن الانسان والقرد لا يغيران من طبيعتهما إذا وجدا الطعام والشراب والمسكن، فكما أن القرد عنيف بطبعه، فالانسان كذلك وإذا كان الانسان عندما يقتل يقضى على الملايين، فإن القرد من الممكن أن يفعل نفس الشئ لولا أن الأسلحة الحديثة هى التى تنقصه فقط.. ولكن الرغبة والاستعداد والأسباب متوافرة.

وكان لابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن يكتشف العلماء تفسيراً آخر لأساليب العنف عند الانسان والحيوان.

وقبل أن نهتدى إلى هذه النظرية الجديدة يجب أن نعرف ما الذى تفعله هذه القروء قبل أن يحبسها الانسان فى قفص فى جبلاية فى حديقة فى مدينة.. يجب أن نعرف ما الذى تفعله القروء فى الغابة.

لا الانسان شرير بطبعه.. ولا الحيوانات. فهذا الذى نسميه «الطبع» يتغير حسب الظروف وحسب البيئة. ومن الممكن أن يكون أى إنسان أى شىء.

وقصص «أمن الغولة» التي ملأت كتب الرحلات القديمة، كانت تصف الغولة بأنها قوية جدا.. وأنها رقيقة أيضا تعطف على الأطفال وعلى الفقراء واليتامى.. ولكن ظهرت نظرية العالم الكبير سوكرمان وأكدت أن القردة عنيفة بطبيعتها. والانسان أيضا . وأن كل القصص القديمة عن الغولة هي قصص قديمة.. خرافات. وأما الأفكار الجديدة التي اهتمت إليها هذا العالم الكبير من ثلاثين عاما فهي: أن القردة عنيفة بطبيعتها. وأن العنف عند القردة وكل الحيوانات والانسان يسببه الجوع.

ولكن النظريات الجديدة ترفض ذلك، وهذا ما يعرضه علينا الأستاذان كلير ورسل في كتابهما «العنف والقردة والانسان».

فقد أتى العلماء بمئات من القردة ووضعوها في ظروف ممتازة، فيها الطعام والشراب والعناية. في اليابان وفي إحدى جزر المحيط الأطلنطي أيضا. ولاحظ العلماء أنه على الرغم من وفرة الطعام والشراب فإن أعمال العنف مستمرة. واهتمت العلماء إلى أن للعنف أسبابا أخرى غير نقص الطعام.

من بين هذه الأسباب أن يكون المكان ضيقا.. فمن عادة القردة أن تخصص مكانا للنوم. وبعض أنواع القردة لا ينام في المكان الواحد ليلتين متواليتين.. فإذا لم تجد القردة هذه الأماكن الفسيحة اضطربت وشارت. فجاءت أعمال العنف.. ومن المعروف أن كثرة الاضطرابات النفسية تؤدي إلى سهولة انتقال العدوى والمرض والموت.. ولذلك مات معظم القردة التي نقلها العلماء في أقفاص من الخيزران من آسيا إلى أمريكا.

وعندما يكون كبير القردة ضعيفا فإن هذا يؤدي إلى الفوضى في جبلاية القردة. فمن المعروف أن جميع أفراد الجبلاية ينظرون كل الوقت إلى

الزعيم ويتحركون وراءه فهو وحده الذى ينسق نظراتهم وحركاتهم.. ولكن إذا كان ضعيفا لا يخيف فإن هذه الوحدة فى الأفعال ترتبك.. والارتباك يؤدى إلى الانقسام. والانقسام يخلق التوتر.. ومن التوتر يولد العنف والمعارك الدامية التى يروح ضحيتها الاناث والأطفال.

ولكى يكون مجتمع القرود منسجما يجب أن يكون عدد الاناث ٩ أمثال الذكور. ولذلك فالزعيم القومى هو الذى ترضى عنه الاناث.. والأنثى فى القرود – وفى الانسان أيضا – تفضل الذكر القوى على الذكر القاسى.. والزعيم القاسى هو الذى تتخلى عنه الاناث. فإذا تخلت عنه لم يعد زعيمها. ومظاهر قوة الذكر هو أن يحمى الجماعة. ويختار لها مكان الطعام ومكان النوم ويداعب الصغار.

ومن عادة زعيم القرود أن تكون له زوجة مفضلة.. أو عشيقة. وهذه العشيقة تبدأ عادة بأن تكون رقيقة.. ثم بعد ذلك متغطسة. ولكن يحرص الزعيم على زعامته فإنه أحيانا يطرد العشيقة ويأتى بغيرها.. والذى يحدث فى عالم القرود يحدث فى عالم الانسان.. ففى انكلترا كان للملك جيمس الأول عشيق. وهذا العشيق كان متسلطا على الملك والحاشية. واضطر الملك إلى أن يتخلص منه. فقتله.

وفى فرنسا كان للملك لويس الرابع عشر عشيقة هى مدام مونتسبان بدأت علاقتها بالملك فى رقة ولطف. ثم راحت تتأمر وتأمر فتخلص منها الملك.. وظهرت عشيقة أخرى هى مدام دى مانتنون. وسارت فى نفس الأسلوب اللطيف وانتهت إلى نفس الأسلوب العنيف.. لم تكن هى التى تلجأ إلى العنف وإنما كانت تدفع الملك إلى أن يكون قاتلا.

والسيدة سارة تشرشل زوجة الدوق مارلبورو استطاعت عن طريق صداقتها القريية للملكة أن تتصرف في العرش وفي البلاط.. فلما استبدت أبعدتها الملكة.. والملكة اليزابيث الأولى كانت من أعقل الملكات.. ولكن عشيقها تسلط عليها وعلى العرش. فأبعدت العشيق وقضت عليه.

والملك هنرى الثامن كان سفاحا قضى على أكثر من سبعين ألف من الشعب الانجليزى.. بيده وببيد غيره.. وكانت له عشيقة اسمها آن بولين.. هذه العشيقة تسلطت على كل الناس.. فاتهمها الملك بأنها خائنة مع أخيها.. وقتلها.

ولاحظ العلماء في جبلاية القروود في بورتوريكو وفي اليابان أن زعيم القروود يترك لعشيقته أن تفعل ما تشاء أول الأمر. وبعد ذلك عندما يلاحظ أن القروود قد اتخذت منها موقفا عدائيا. فإنه يقضى عليها. وبسرعة تزحف وراءه.. وتتقف أمامه عشيقة أخرى.. وهنا تهدأ القروود ويستقر وضع الزعيم.

وإذا كان عدد الاناث أقل من عدد الذكور. أو كانت لكل ذكر أنثى واحدة. فإن هذا الوضع يصيب القروود بالاضطراب الشديد.. وقد تلجأ بعض القروود إلى اعتزال الحياة تماما.. أو إلى نشوب المعارك بين القردة تنتهى عادة بمقتل إناث.. فيتفرق القروود في الغابة.. أو أنها تحاول الانضمام إلى قبائل أخرى.. وكثيرا ما تقاوم القبائل الأخرى هؤلاء الغرباء فتطردهم أو تقتلهم.

أما القروود التى تعيش في الغابات، فلا تعرف العنف.. ومن الحوادث النادرة أن تقع معارك دامية.. ولكن المؤلف أن تحدث معارك واشتباكات.

وقد أكد العلماء خلال ألوف الساعات من الرقابة الدقيقة أن المعارك التي تؤدي إلى القتل نادرة جدا.. وإن كانت هذه المعارك منتشرة جدا بين القروء في الاقفاص أو في الأماكن التي ليست متسعة كالغابات.

ففي الهند مثلا يقدسون بعض أنواع القروء. ولا يمكن أن يعترض مواطن عملا من أعمال القروء. وهي لذلك تمشي في الشوارع وتتسلق الأشجار وتدخل البيوت في هدوء وبلا خوف. وإذا حاول إنسان أن يبعدها فإنه فقط يشير إليها بيده ولكنه لا يمسه. فهذه القروء تعيش في هدوء وأمان تام.. وفي سنة ١٩٦٠ فوجيء الناس في العاصمة بعدد كبير من القروء قد زحف على وزارة الدفاع.. وراحت القروء تمزق الدوسيهات وتلقى بها من النوافذ.. ولكي يسترد الموظفون هذه الأوراق الهامة فانهم يلقون بالطعام للقردة.. ومثل هذا الحادث الفريد لا يمكن أن يقع في أى بلد إلا في الهند حيث تعيش القروء والأبقار في أمان وسلام.. لأن الهنود ينظرون إليها بشيء من التقديس.

وفي حالات نادرة جدا وجدنا أن الأغلبية الساحقة من الاناث في جبلاية القروء اختارت واحدة وجعلتها زعيمة. وهذه الزعيمة تجمع حولها أكبر عدد ممكن من الذكور. ولكن زعامة النساء لا تطول عادة.. فبسرعة يقفز أحد الذكور الأقوياء فتتحول الزعيمة إلى عشيقة أو إلى جثة هامة.. ومثل هذا الموقف حدث أيضا في عصر أنطونيوس.. فقد كان الرجال مشغولين بالقتال والاستعداد للمعارك. أما النساء فقد كن مشغولات بالحياة الاجتماعية والسياسية وإدارة البيت وفي نفس الوقت إدارة الحياة العامة.. وكان أنطونيوس في حاجة إلى ضرائب جديدة من أجل الجيوش. ولما فرض الضرائب اعترضت النساء. وتقدمت النساء امرأة اسمها هورتنسيا.

وناقشته وهددته أمام النساء والرجال. وعدل أنطونيو عن الضرائب الجديدة. وظلت هورتنسيا هي الحاكم الحقيقي من وراء الستار.

أما كيف يحدث هذا العنف في جبلاية القروء؟

لاحظ العلماء أيضا أن الزعيم يبدأ بالعنف.. وبعد ذلك يسرى العنف كالنار في الجبلاية. فإذا غضب الزعيم على عشيقته وضربها على رأسها مثلا، وجدنا القروء كلها اتجهت إلى ضرب الاناث.. وأحيانا إلى ضرب الذكور أو الصغار ومعنى ذلك أن العنف يبدأ بضربة الزعيم ثم بتكرار هذه الضربة من بقية الأفراد.. دون أن تكون لدى هؤلاء الأفراد أية أسباب وجيهة.

أو بعبارة أخرى إذا افترضنا هذا العنف هو كرة يشوطها الزعيم.. فإن كل الأفراد «يمررون» الكرة ويحولونها وجهة أخرى.

فإذا دخل جبلاية القروء قرد أجنبي يكفى أن يلعب الزعيم بعينه ويفتح منخاريه ويحرك أذنيه، ليترجم القروء هذا كله بأنه من الضرورى طرده أو قتله فورا.. ويقتلونه فورا.

وقد صور الأديب شريدان هذا المعنى في قصة له اسمها «المتنافسون».. ففي القصة نجد أن الأب يضرب الابن.. والابن يضرب الطاهى. والطاهى يذهب إلى زوجته يضربها.. والزوجة تضرب ابنها.. والابن يضرب أحد المشاة بطوية بلا سبب واضح.. فكأن الأب هو الذى ضرب أحد المشاة.. فهذا التسلسل في العنف هو الذى يحدث في جبلاية القروء..

ويمكن أن يقال أن العنف الذى نراه له أسباب أخرى غير التى نلاحظها من أول وهلة.. فضرب الطفل لأحد المشاة ليس هو السبب.. إنما السبب أبعد من ذلك..

وكان الامبراطور فريدريك الأكبر يقول إن الجندي يجب أن يخاف من رئيسه أكثر من عدوه.. وهذا الخوف هو الذي يدفعه إلى القتال..

أما ليون تروتسكى الذى أنشأ الجيش الأحمر فكان يقول أن الجندي يجب أن يعرف أن هناك نوعين من الموت : موتا محتملا وهو إذا تقدم. وموتا مؤكدا إذا تقهقر.

ومن هذا الخوف تتولد الكراهية للعدو.

وقد ظن بعض الناس أن معارك الشباب في بريطانيا سنة ١٩٥٠، ومظاهرات الطلبة في أمريكا سنة ١٩٦٦، قد حدثت تحت تأثير قوى أجنبية.. أو مؤامرة غربية. ولكن الحقيقة هي التي أعلنها أحد أعضاء الكونجرس في حديث نقلته الأقمار الصناعية بين أمريكا وأوروبا يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٦٧ فقال : هذه المظاهرات هي نوع من الضيق يتحول إلى عنف..

وعملية ضرب الكرة وتميرها وتحويلها إلى وجهة أخرى هي التفسير الوحيد لأعمال العنف وكيف تتجه إلى ناحية أخرى ليست على البال.. ففي الولايات الجنوبية لأمريكا اتجه البيض الفقراء إلى قتل الزوج. لماذا؟ لأن البيض الفقراء ساخطون على البيض الأغنياء. ولكن البيض الأغنياء أقوياء.. فاتجه سخط الفقراء البيض إلى الزوج الذين لا ذنب لهم في هذه الفوارق الهائلة بين البيض..

فهذه الأعمال العنيفة التي قام بها البيض ضد السود هي في الحقيقة نوع من الكراهية العاجزة ضد البيض الأغنياء تحولت إلى كراهية قوية

ضد السود.. أى أن الكرة اندفعت إلى وجهة أخرى ضد أناس لا ذنب لهم.

وفي أيام روسيا القيصرية كان الشعب ساخطا على الظلم والارهاب القيصرى. فدفعت القيصرية بالشعب كله فى حرب مع الألمان.. واشتعلت معارك دامية عنيفة. وعرف الجنود الروس الجوع والمرض والهلاك.. وعندما انتهت الحرب عادت الجيوش توجه كراهيتها ضد القيصرية.. فكانت الثورة الروسية الكبرى.

وفي تاريخ إنجلترا نماذج واضحة لحيرة الشعب الانجليزى بين الكراهية الداخلية التى تؤدى إلى حرب أهلية. والكراهية التى تتجه إلى الخارج فتشعل حربا دولية.. وقد استطاع شكسبير العظيم أن يدرس التاريخ الانجليزى كله وأن يسجله فى مسرحياته التاريخية الرائعة.

ففى أيام هنرى الثانى (حرب أهلية).. وادوارد الأول (حرب دولية).. وادوارد الثانى (حرب أهلية) وادوارد الثالث (حرب خارجية).. وفى أيام ريتشارد الأول وهنرى الرابع (حرب أهلية).. وهنرى الخامس (حرب خارجية).. وهنرى السادس (حرب أهلية).

وفي التاريخ الأوروبى والأمريكى أمثلة كثيرة لذلك..

فليس نقص الطعام فى جبلاية القرد هو الذى يدفعها إلى العنف.. ولكن الخلل فى تكوين أفراد الجبلاية.. ونقص الأثاث وضعف الزعيم.. ثم ضيق المكان والزحام الذى يخنق الأفراد ويصد نفوسهم عن الطعام والحركة واللعب.. وإذا مات قرد صغير فى جبلاية فليس القاتل هو القرد الكبير الذى يقف إلى جواره.. وإنما القاتل هو أبعد من ذلك بكثير..

أو بعبارة أخرى إنسانية. كل من يضربك على قفاك هو إنسان مضروب بالشلوت من واحد مضروب على قفاده..

في أحد أعياد سنة ١٧٦٦ التف الفرنسيون حول قفص للقرود.. وتهامس الرجال.. وتزاحمت النساء أما الأطفال فقد تاهوا بين الأقدام.. وتغامز الجميع. وتقدم إلى الصفوف الأولى أحد العلماء الكبار. ورأى هذا المنظر الغريب وبصق على الأرض واستنكر أخلاقيات القرود وكتب في ورقة صغيرة في جيبه: هذه هي المرة الثالثة والعشرون اليوم. منتهى الوقاحة.. حتى القرود الذكور عندها هذه الرغبة السخيفة في استعراض القوة الجنسية وسيطرتها على الاناث.

وكان العالم الفرنسي هو الكونت بيفون..

وكان المنظر هو أن قردة أدارت ظهرها لقرود ذكر.. للمرة الثالثة والعشرين في يوم واحد.

وكانت الملحوظة صحيحة. ولكن التفسير خاطئ تماماً.

فقد اهتدى إلى معنى هذا المنظر عالم ألماني كبير في سنة ١٩٠١ في حديقة حيوان هانوفر.. فقد رأى منظرًا مشابها. أما تفسيره فهو: أن الخوف هو الذي يدفع بالأنثى إلى أن تدير ظهرها إلى الذكر... وأن هذا الاستسلام المتكرر ليس رغبة جنسية ولكن الخوف الفظيع هو الذي يدفع الأنثى إلى ذلك.. أما القرود القوي العضلات أو القرود الزعيم في الجبلية أو في القفص فلا يتردد في أن يبدو قويا، وليس من الضروري أن يكون العمل جنسياً تماماً.

والمعنى العام الذى أهدف إليه هنا هو: أن أى اضطراب فى مجتمع القروء يؤدى إلى موقف عنيف.. فالزحام الشديد فى المكان الضيق يؤدى إلى العنف. والعنف يؤدى إلى سطوة القوى على الضعيف.. والضعيف فى مجتمع القروء هو: الاناث والصغار والضعيف هو الضحية وعندما ننظر إلى قمة مجتمع نجد الذكور الأقوياء، أو الذكر القوى، وهو فى صحة جيدة. وحركاته بطيئة، ويأكل على مهل، ويهضم على مهل. وأحسن مقياس لصحته: نعومة فروة الشعر.. وعندما نراقب سفح مجتمع القروء نجد الصحة هزيلة. والأجسام نحيلة. ونجد الخطف والسلب ونجد الأرق عند النوم. فقد لاحظ أحد العلماء عند مراقبته لعشيق زعيم القروء عند اليوم: أنها تتحرك ٢٧ مرة فى الليلة الواحدة.. بينما وجد أن إحدى الاناث الأخريات من المنبوبات تتحرك ٩٢ مرة وهى نائمة..

وكلما زادت الاضطرابات النفسية، كان ذلك دليلا على أننا قريبون من الحد الأدنى للحياة الاجتماعية.. عند القروء أو عند الانسان.

والاقتراب أو التمسح هو الشئ الوحيد المقبول فى جبلاية القروء.. فالأنثى عندما تخاف فإنها تتمسح فى الذكر. ليس هذا فقط. بل أن الذكور عندما تخاف فإنها تدير ظهرها أيضا لزعيم القروء..

فهذا الموقف ليس حبا. وإنما الخوف هو الذى أدى إلى موقف جنسى زائف.. أو موقف جنسى منحرف..

وكثيرا ما فعل زعيم القروء ما يفعله القردة عند الخوف أيضا فأدار ظهره إلى شبان القروء.. فلا يملك القرد الشاب الخائف الا أن يطيع – وهذا موقف جنسى زائف.. أو منحرف.

ومن الممكن أن يحدث هذا أيضا بين إناث القروء..

وقد لاحظ الأطباء في مستشفى الأمراض العقلية وفي ولاية بنسلفانيا أن نسبة الاضطرابات بين الكاثوليك.. وبين الملونات من الكاثوليك أعلى من أية نسبة أخرى.

فالكاثوليك أقلية.. والملونات أقلية.. ولذلك كانت الاضطرابات عنيفة بين أقلية الأقلية.

وكان هناك رأى غريب يقول أن الانسان موجود في قاع المجتمع لأنه متخلف عقليا.. أى أنه في المكان المناسب له.. فالحقيقة أن الانسان مضطرب الأعصاب متخلف العقلية لأنه تحت.. لأنه عند قاع المجتمع.. فالحياة في القاع تخنق.. فالانسان ليس مخنوقا، ولذلك هو تحت. ولكنه مخنوق بسبب أنه ضغط ملايين الناس.

وقد لاحظ العلماء اضطرابا واضحا في سلوك القروء الأجانب. فنقلوا هذا القرد الأجنبى إلى جبلاية أكبر وأوسع.. وكان هذا القرد قويا لدرجة أنه استطاع أن يزحف ويصبح على مقربة من حاشية زعيم القروء.. وهذا الاقتراب من الحاشية جعله في مأمن. وهذا الأمان جعل القرد أكثر هدوءا عند الأكل والنوم.. وخف توتره العصبى – لأنه لم يعد منبوذا.

وعند الخوف أو الفرع في جبلاية القروء ما الذى يفعله الضعيف؟

الضعيف يتفادى مصدر الرعب، فينظر إلى ناحية أخرى.. ويتفادى أن ينظر في عيني القرد الكبير المخيف. وعندما يخاف فإنه يمسك شيئا آخر يمزقه.. بعض الحشائش.. أو يمسك طوبة ويلقى بها في الماء.. فهو إذن يحول خوفه إلى غضب.. أو يدير ظهره إلى كل قوى مخيف.

وكانت السيدة كلير راسل إحدى مؤلفي هذا الكتاب هي أول ما اهتمت إلى هذا الموقف الذي تتخذه القروود عند الخوف. وأطلقت عليه اسم «السلوك الجنسي الزائف». هذا الموقف الجنسي الزائف منتشر جدا بين القروود في الأقفاص أو في الجبلية. وبين الفئران أيضا. ولكن هذا السلوك الشاذ لا وجود له في الغابة فلم يحدث قط أن اضطر قرد ذكر إلى أن يستسلم بهذه الصورة الشاذة لقرد أقوى.

وهذا الذي يقال على القروود في الأقفاص، يمكن أن يقال على الناس في السجون وفي الأقسام الداخلية في المدارس والمستشفيات وفي معسكرات العمل وفي معسكرات الجيش أيضا وأخطر من ذلك: يجب أن نعيد النظر في كل ما قاله العالم الكبير فرويد. فلم تكن نظرية فرويد الجنسية قائمة على الجنس السليم. وإنما على الجنس الزائف، على الانحراف الجنسي.. على أنواع من الناس في أوضاع مشابهة لهذه القروود في الأقفاص. فهو أيضا قد رأى ما يفعله الخوف، فاعتبره نوعا من النهم الجنسي.. والحقيقة أنه ليس شرها ولا نهما جنسيا وإنما هو الخوف تحول إلى استسلام. له مظهر الجنس ولكنه ليس جنسا.

ولذلك يجب أن نعيد النظر في التقرير الشهير الذي نشره الدكتور كنزى هو وزملاؤه.. فقد كان التقرير عن العلاقات الجنسية في أمريكا قبل وأثناء وبعد الزواج.. وقد كشف لنا هذا التقرير عن نتائج خطيرة. ولكن عيب هذه النتائج أنها جاءت من مقدمات خاطئة.. فالمجتمع الذي درسه كنزى وزملاؤه هو أقرب إلى مجتمعات القروود.. أكثر ما فيه الخوف وأقل ما فيه الجنس.

وإذا نحن عدنا إلى التقرير الشهير الذى صدر فى سنة ١٨٥٩ عن البغاء فى مدينة نيويورك وجدنا أن ٢٥٪ من محترفات البغاء كان بسبب الفقر.. وأن ٢٠٪ بسبب اليتيم أو فقدان الأب أو الأم.. وأن ١٥٪ بسبب الحياة الاجتماعية الفاشلة.. هذا يدل على أن البغاء نتيجة حقيقية للخلل الاجتماعى فى مدينة نيويورك. ومعنى ذلك أن البغاء ليس سببه الرغبة الجنسية من جانب المرأة.. ليس الجنس هو الذى جعلها بغيا.. ولكنه الفقر والاضطراب الاجتماعى هما اللذان جعلها تتجه إلى الجنس.. إنه العنف الذى جعلها تخاف.. وجعل أمنها الوحيد هو أن تكون على مقربة من الرجل.. أى رجل..

وليس فى مدينة نيويورك وحدها ولكن فى كل العواصم والموانى.. وليس فى العصر وإنما فى كل العصور.

طبعاً هناك حالات كثيرة فيها شراهة جنسية. ولكن هذه الحالات أيضاً دليل على القلق والاضطراب النفسى والاجتماعى.. فليس من الطبيعى أن تجد إنساناً يأكل عشر مرات فى اليوم ثم يخفى الطعام فى جيوبه.. ثم إذا هو تناول طعامه أدار وجهه للحائط وراح يخطف الأكل خفياً.. مع أنه لا خوف عليه من أحد. ولكن هذا السلوك الغريب ليس سببه حب الطعام، ولكن سببه الخوف أن يحرمه أحد من الطعام وهذا الخوف قد أدى إلى جشع دائم.. وليس هذا بالسلوك الطبيعى.. فهى «شراهة» سببها الخوف. ثم هو خوف تحول إلى «عادة». وفى الجنس نفس الشيء. إنه الخوف الذى تحول إلى نوع من اللجوء الجنى إلى أى أحد.. إلى أكثر من أحد.. حتى أصبح «اللجوء» أو «الالتجاء» عادة.. وموقفاً ثابتاً.

أحسن صورة لكل أنواع العنف والخوف والكراهية والجنس والانحراف الجنسي والجوع والمرض والفلوس هو ما حدث في فيتنام الجنوبية.. ففي سنة ١٩٦٥ زاد عدد سكان فيتنام.. طبيعى.. نقص الطعام بسبب الحرب.. زادت القوات الأمريكية: شباب وفلوس وخوف وطعام.. وزاد عدد الأطفال اليتامى.. وفي سنة ١٩٦٤ كان عدد الأطفال الذين هم أقل من ١٦ سنة حوالى ٣٠ ألفا يعيشون على السرقة وعلى الدعارة.. الذكور لصوص.. والانات داعرات.. حتى لقد أصبح دخل الفتاة التى فى الرابعة عشرة من عمرها مائة جنيه فى الشهر.

وفى العاصمة سايجون وحدها عدد لا يمكن معرفته بدقة من محترفات الدعارة.. ولا يمكن أن يوصف هذا الموقف من الفتيات فى الثانية عشرة بأنه موقف جنسى.. ولا هو كذلك بالنسبة للجنود الأمريكان.. وإنما هناك خوف عام وفزع عام.. أدى إلى موقف غريب: ليس جنسا وإنما هو انحراف جنسى.. أو انحراف بالجنس.. بالجنسين معا.

ويمكن أن يوصف هذا النشاط المنظم فى فيتنام، وفى غيرها، بأنه تجارة رقيق.. وهى بالفعل تجارة.. والفتيات رقيق أصفر.. أو أبيض..

ولا تزال تجارة الرقيق منتشرة فى العالم بشهادة الأمم المتحدة.. ومن الملامح المعروفة فى التاريخ أنه عندما تظهر طبقة جديدة، وتحاول أن تتساوى اجتماعيا بطبقة قديمة قوية، فإنها تنادى بالعفة والشرف.. ولكنها لا تلبث بعد أن تنسى هذا أو تدعو إلى نسيانه..

ففى بريطانيا وجدنا رجال الصناعة الذين كانوا يحطمون بالمساواة مع الاقطاعيين فى عصر الملكة فيكتوريا، هم الذين ينادون بسطهارة اليد

والساق.. وهم الذين يطالبون بالعفة.. وهم في الحقيقة يطالبون بمزيد من القيود الأخلاقية لغيرهم من الناس. فهذه القيود الأخلاقية لغيرهم من الناس.. هذه القيود، تحميهم من الناس.. ولكنها لا تحمي الناس منهم. ولذلك لم تختف الرذيلة.. وإنما ظلت هناك في مقدور الأغنياء.. والرذيلة هي كلمة يطلقها الغنى عندما يقفل الباب وراءه بعد أن يخرج من بيت سيدة فقيرة. وهو قادر على أن يعطى المال، وهي لا تملك إلا جسدها.. ولأنه قادر فهو وحده الذى يملك حق إطلاق هذه الكلمة على المتعة التى نالها.. ولأنه دفع ثمنها.. ولأنه اشتراها – فهي رذيلة ولا أحد يعرف إن كان العدل يقتضى أن توصف المرأة الفقيرة بأنها أيضا كذلك.. وهي بالفعل.. ولكن يجب أن نبحث عن «صفة أخرى» و «بديل» لهذه الكلمة : الفقر.

ويمكن أن يقال أن ٩٥٪ من الشعب الأمريكى يرتكب نوعا من الرذيلة كل يوم. هذه إحصائية.

وفي ألمانيا كانوا يطالبون بضرورة العفة والطهارة واحتقار الجسم وذلك عن طريق السيطرة عليه وتسخيره لخدمة الجنس الجرمانى سيد الأجناس – كما يقولون – والنازيون لم يكونوا جادين في هذه المطالبة بالطهارة.. وما كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إلقاء التهم الجنسية على خصومهم ليطردوهم من مواقعهم في الحياة الاجتماعية في ألمانيا.. ويكفى أن يقال: أن هذا الرجل الشاذ.. ليصبح ذلك مبررا لفصله أو عزله أو سجنه. فالنازيون كانوا يبالغون في قيمة الفضيلة، ليكون الخروج عليها عملا إجراميا لا يمكن السكوت عليه.

والحقيقة أن معظم زعماء النازية كانوا شواذ من الناحية الجنسية.. فقائد فرقة العاصفة شاذ.. وقائد فرقة الحماية شاذ.. وأول من رأس منظمات الشباب النازية كان شاذًا..

وباعتباره.. وهذا الموقف الشاذ قد شجع الكثيرين من الشبان على أن يكونوا مثل أضعاف الذكور والاناث في جبلاية القروء.

والسبب العميق وراء الاضطرابات النفسية والاجتماعية والجنسية في أى مجتمع هو: الحرص على إشاعة التفاوت بين الناس.. بين طبقات الناس أو بين زعيم القروء وحاشيته من الذكور وبين بقية القروء في الجبلاية ويكفى أن نضع زعيم القروء بعيدا عن القروء. أى بعيدا عن رؤيتها له.. وحمايته لها، حتى يقع الخلل في كل مجتمع القروء.. ومثل هذا السلوك كان واضحا جدا في ألمانيا النازية.. ولذلك كان الشذوذ الجنسى من أوضح معالم المجتمع الألماني..

والمجتمع الأمريكى المعاصر، هو مجتمع الرخاء والرفاهية — هكذا يقول عن نفسه. ولكن هذا المجتمع ليس رخيا ولا مرفها كما نتصور. ففي أمريكا وحدها ٣٠٪ من الشعب فقراء لدرجة أن ما يحصلون عليه من الطعام والسكن أقل بكثير مما كان يحصل عليه الفقير في سنة ١٩١٠.. وهذا وحده يكفى لأن يحدث خللا واضطرابا عنيفا على سطح وفي قاع المجتمع الأمريكى.. والنتيجة معروفة.

والآن فقط نستطيع أن نجد تفسيراً لقصة عطيل المغربى ومحبوبته ديدمونة.. فعطيل هذا أفريقى مغربى. وحبيبته إيطالية.. وهو يحبها ويغار عليها..

وقد كان المغاربة يشتغلون في الملاحة في مدينة البندقية. وكان أصحاب السفن يعتمدون عليهم في التجارة وفي القرصنة أيضا.. ولكن لأسباب كثيرة استغنى الايطاليون عن العمل. وعندما تتعطل الأيدى ينشغل القلب.

ويصبح الحب شاغل العاطلين.. وحب عطيل للفتاة ديدمونة.. ليس إلا نوعا من التعلق بإيطاليا والحياة فيها.. وفي نفس الوقت ليس إلا محاولة يائسة لارغام ديدمونة على الاستسلام، وليس هذا الذى نراه حبا أو جنسا وإنما هو الكراهية قد تحولت إلى حب.. والخوف قد تحول إلى جنس والاضطراب الاجتماعى قد دفع عطيل إلى أن يتساند على حائط متين في يوم الطوفان.. كأن عطिला هو نوح الذى يحاول أن ينقذ بالحب أهله من العمال العاطلين في مجتمع شديد الاضطراب.. إن هذا الموقف قد استطاعت القروء أن تعبر عنه أحسن وأوضح.

والذى يفعله عطيل تفعله القروء.. وسوف ترى فيما بعد كيف أن الفئران البنية اللون أكثر وضوحا واقناعا.

وصورة أخرى لذلك تجدها في السويد وفي القطب الشمالى.. ففي الدائرة القطبية نجد طيور الكركر.. ويسمونها الاسكوا.. وهى شبيهة بطائر النورس.. هذه الطيور ما الذى تفعله في موسم الاخصاب. يذهب الذكر إلى البحر ويصيد سمكة ويقدمها للأنثى. وبسرعة تلتهمها.. وبسرعة يعود بسمكة ثانية وثالثة ورابعة.. وهو يختار نوعا معينا من السمك.

ويبدو أن الأنثى لا تستسلم للذكر إلا إذا شبع.. أو امتلأت تماما. وقبل أن تغمض عينيها لتنام يتم اللقاء بين الذكر والأنثى. هذا إذا لم يظهر ذكر أقوى.. وغالبا ما يظهر ذكر أقوى.. ويذهب الأقوى لىأتى بأسمك أكبر..

ومن العجب أن الأنثى تفيق وتكون في حالة من النشاط والحيوية والمرح.. وقد ترقص أيضا.. وتتجه إلى البحر الجليدى وتلقى بما في بطنها

من سمك.. وتنتظر. ويتم اللقاء بين الذكر والأنثى.. فإذا كانت الأسماك كثيرة. تم الإخصاب. وإذا نقصت الأسماك لم يكن هناك إخصاب. وقد لجأ العلماء إلى الاتيان بعلب السردين تعويضا لهذه الطيور عند النقص في السمك. وكانت الطيور تلتهم سردين العلب ولا يتم الإخصاب.. بل إن الذكور لا تحاول والانات أيضا.

ومن الغريب أن العلماء لاحظوا أن عددا من الطيور كانت تعمل على خدمة طيور الكركر.. وهذه الطيور تبدو أنها أقل في الدرجة وفي القوة وفي الجمال.. وكثيرا ما تجد طائرا من هذه «الطيور الخادمة» يتطوع بأن يأتي بالسمك.. ويتطوع بأن يضعه في منقار الأنثى.. بل أكثر من ذلك تراه يمزق الأسماك ويحطمها بمنقاره.. ثم يضعها في منقار الأنثى.. وعندما توشك الأنثى أن تستسلم ينشط ذكر الكركر زوجها في هذه اللحظة. ومن الغريب أيضا أن الأنثى تستسلم بينما أعطت منقارها للطائر الولهان الذي أطعمها سمكا لينا سهلا.. إن هذا الطائر الخادم هو عطيل بين الطيور.

إنها أسباب أخرى غير التي ذكرها الشاعر شيكسبير جعلت عطिला يحب تلك الفتاة ديدمونة.

فلماذا كل هذا العنف من الناس والحيوان والطيور؟ لقد أجاب المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٦٢ : إن الزحام يولد الضغط، والضغط يولد العنف، والعنف يولد الخوف، والخوف يولد الانحراف..

ومن الصدف العجيبة جدا في التاريخ أن يقف في فرنسا سنة ١٧٦٦ الكونت بيفون أمام قفص القروود وأن يصف المشهد الجنسي الذي رآه بأنه : وقح. وأن يولد في نفس السنة عالم إنجليزى اسمه مالتوس ويقف

أمام قفص القرد بعد ذلك بعشرين سنة. ويرى نفس المشهد ولكن ليكون
له رأى آخر.. فكان رأيه : إنه الزحام فى القفص.. وفى البيوت وفى المدن وفى
الدول هو الذى يؤدى إلى أن يكون الانسان قردا، وإذا كان قردا أن يكون
شاذا.

هذه المسافات

بين الطيور

(٢)

طلب القاضى الانجليزى من المحلفين أن يكفوا عن الضحك. لأن الموقف يبعث على البكاء. ثم اتجه بكل جسمه إلى المتهم وقال له : كم عدد أولادك ؟

ولم يجئ الرد سريعاً. كان المتهم لا يعرف بالضبط كم عدد الأولاد.. وإنما أخرج يده من تحت البالطو وراح يعد على أصابع يده اليمنى. ثم يده اليسرى.. ثم نظر إلى زوجته كأنه يطلب منها أن تعيره يدها ليكمل العدد وقال : عددهم ١٢ طفلاً.. سبعة ذكور وخمس إناث. وقالت الزوجة : بل عددهم ١٣ طفلاً.

وضحك الحاضرون. وعاد القاضى ينظر إلى الرجل وزوجته.. كل ملامحهما هي ترجمة مستفيضة للسذاجة والبساطة والصدق.

ومن الغريب أن عدد الأطفال ليس ١٢ طفلاً كما ذكر الأب ولا ١٣ طفلاً كما ذكرت الأم وإنما عددهم أحد عشر طفلاً.

والتهمة الموجهة إلى الأبوين هي أنهما أهملتا أحد الأطفال حتى مات من الجوع. ودافعت الأم عن نفسها فقالت إنها تركت الطفل لأخته الكبرى

وهذه الأخت مشغولة بحب أحد العمال فتركت الطفل حتى مات جوعاً.
وأما الأم فهي تعمل ليلاً ونهاراً ولا تقوى على العناية بأطفالها وأما الأب
فعاطل. وليست لديه أعصاب تقوى على صراخ الأطفال وهم يطلبون المزيد
من الطعام.. هذه القضية لم تقع في أواسط إفريقيا، ولا في العصور
الوسطى.. وإنما حدثت في شمال إنجلترا في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٥ بعد
الميلاد.

والذى حدث في هذه الأسرة يحدث في عشرات الألوف من العائلات
الإنسانية.. فتحت ضغط العدد الكبير من أفراد الأسرة الواحدة، يضعف
الأطفال جسمياً ونفسياً..

ويحدث نفس الشيء في جبلاية القروء..

ففي جبلاية القروء حيث يكون هناك زحام يكون ضغط. فإذا كان ضغط
كان عنف. وإذا كان عنف كان خوف وإذا كان خوف فلا مفر من
الانحراف.

وهناك طريقتان لكي يكون هناك زحام في جبلاية القروء: أن تكون
الأقفاص أو الجبلاية أصغر من عدد القروء.. أو يوضع الطعام في مكان
واحد. فيتزاحم القروء على الطعام وفي الزحام تتوتر الأعصاب. ويولد
العنف فوراً. وأمام الطعام يظهر فجأة القرد القوى أو القرد الزعيم. وإذا
ما ظهر قرد قوى، ظهرت في نفس اللحظة قروء الحاشية أو القروء التي تقل
عنه في القوة.. وأهم من ذلك ظهرت القروء المنبوذة أو المستضعفة. وعلى
هذه القروء المنبوذة تدور المعارك الدامية. ويكون من نتائجها أن تموت
الاناث والصغار.

... وفي حظائر الغزلان أيضا. فأمام قطع الغزلان إذا وضعنا طعاما رأينا بوضوح الغزال الزعيم.. ومن ورائه الغزلان الذكور والاناث والصغار ثم الغزلان الضعاف وتدور المعارك.. والضحية.. الاناث والصغار..

وفي أعالي النيل بدأت قطعان السيد قشطة تنقرض بسبب المعارك المميتة بين ذكور السيد قشطة. فهذه الحيوانات تتجمع في مكان معروف وهذا التجمع أو هذا التجمهر يؤدي إلى الاشتباك العنيف.. ولذلك فمن المشاهد المألوفة أن تطفو على سطح المياه جثث منفوخة في حجم زورق المطاط لضحايا هذه الحيوانات.

والتجارب التي أجريت على الفئران تؤكد أنه حيث يكون زحام، فإن التناسل يتناقص أو يتوقف.. فقد أجرى العلماء على مجموعة من الفئران تجارب عديدة. فأتوا بزوجين من الفئران وتركوهما ثلاث سنوات فتزايد عددها جدا. وبعد ذلك أخذ العدد يتناقص بسبب المعارك العنيفة والتوتر الشديد واستعدادها للمرض. ثم بسبب الطعام وبسبب الخلاف على الزعامة بين الفئران أيضا.

أما الحيتان في القطب الجنوبي فلها قصة أخرى.. فقد تزاوجت الدول كلها على صيد الحيتان. واستخدمت البنادق ذات السهام، واستخدمت المصانع العائمة أيضا. فماذا كانت النتيجة؟ إن الدول لم تتفق على حصة كل منها من الحيتان. ولم تسفر الاتفاقية الدولية سنة ١٩٤٥ عن أى اتفاق. فانقرض الحوت الأحدب سنة ١٩١٣.. وانقرض الحوت ذو الزعانف. وهذا الحوت أيضا أخذ في الانقراض.. وهذا الانقراض سببه أن الدول هي التي تزاوجت فكان من ضحيتها أن مات هذا العدد الهائل من الحيتان. ولو تركت الحيتان وحدها لنتكاثر لقتلت نفسها أيضا لأنها تتحرك في مجال ضيق وفي رقعة مخنوقة من البحر.

ومعنى هذا كله : أنه حيث يكون هناك زحام يكون هناك قتال حتى الموت. ولعل المفكر الانجليزى مالتوس هو أول من تنبه إلى خطورة الزحام أو تزايد السكان.. وأول من قال أن الطبيعة تقوم باختصار هذا العدد الهائل من الكائنات البشرية وإلا أكل الانسان أخاه الانسان، ومن المؤكد أنه يفعل ذلك.

لعل مالتوس هذا هو الذى نبه العالم دارون إلى أن الحياة تختار أصلح الأحياء للبقاء. فهي تختار الأقوى. وتختار الأكثر مرونة والأقدر على مطاوعة الظروف. أى الذى يرفرف مع الهواء ويسيل مع الماء. ولذلك انقرضت الحيوانات التى لاتنحني لعواصف البيئة.. وعاشت الحيوانات القادرة على التكيف.

ولا أحد يستطيع أن يتصور ما الذى كان يحدث لو أن سكان الأرض لم يموتوا بالمرض أو بالغرق.. أو بالشيخوخة.. فلو فرضنا أن سكان الأرض كانوا يتزايدون ١٪ منذ ١٢ ألف سنة.. لكان حجم اللحوم البشرية لا يقاس إلا بالسنوات الضوئية أى ملايين الملايين من الأميال طولا وعرضا.

والعالم الانجليزى مالتوس يرى أن هناك وسائل ممكنة لتحديد هذا التزايد فى عدد السكان : بالزواج المتأخر.. وبتحديد النسل.. وإلا كان الفقر وكانت الرذيلة.. والفقر يؤدي إلى زيادة نسبة الوفيات.. والرذيلة أيضا.

ومن الملاحظ أنه حتى عندما تكون الطيور فى الطبيعة – أى خارج أقفاصها فإنها تحرص على أن تكون بينها مسافات.. وهذا واضح إذا نظرت من نافذة القطار إلى خطوط التليفون.. وعليها طيور.. فأهم من هذه الطيور: هذه المسافة التى بينهما. فالطيور، والحيوانات كلها، تكره هذا الزحام وتكره التكديس.. وكثيرا ما أدى حشد الحيوانات والطيور فى أقفاص

وحظائر فترات طويلة إلى خلل في الغدد الصماء.. وهذا الخلل يؤثر في نموها وعلى تناسلها في الأجيال القادمة.

والانسان – ولا بد من الكلام عن الانسان – قد كتب تاريخه العنيف وهو يهرب من الزحام.. أى يهرب من الشعور بالأزمة. أو الشعور بالضغط.. ولذلك يتجه إلى العنف في أسرته أو خارج أسرته.. أو شعبه أو ضد الشعوب الأخرى.

وقد كتب الطبيب المشهور ياكوب كلزيوس سنة ١٨١٢ أن الأطفال المشوهين يتزايد عددهم في زمن الحرب.. كما حدث في الحرب الثلاثينية في القرن السابع عشر في ألمانيا، كما حدث في فرنسا أبان الحرب السبعينية.. وأكبر عدد من الأطفال المشوهين عرفتهم ألمانيا في ظل النازية.. وكذلك أبان الحرب العالمية الثانية.. كأن الطبيعة أرادت أن تنتج أطفالا على طراز الوحوش البشرية التي تحكم الشعوب.

ومن المعروف أن الانسان هو أكثر الحيوانات عناية بأطفاله.. وحضانة الطفل الانسانى طويلة.. وهناك آباء يموتون من أجل أطفالهم. وأمهماتهم أيضا..

ولا تزال الرحمة بالمرأة والطفل من علامات الحضارة الانسانية. فعند الطوارئ يتفق الناس جميعا على شىء واحد هو: إنقاذ النساء والأطفال أولا.

ولكن ليس هذا ما يحدث دائما..

ففى العصر الحديث علاقة قوية بين العائلات الكثيرة العدد وبين الفقر والمرض والجهل.

ففى انجلترا وحدها نجد أن ٢٥٪ من العائلات التى بها أكثر من ٥ أطفال ضعيفة البنية غير قادرة على العلاج والتعليم. وغير قادرة على أن تذوق اللحم مرة كل شهر.. أو مرة كل عام طبقا لآخر إحصائيات سنة ١٩٦٦.

ولذلك فحادثة إهمال الطفل حتى يموت جوعا، طبيعية ومنطقية.. وقد حدثت كثيرا – ولكن هذه أشهر حادثة سجلتها الصحف والمجلات العلمية فى ذلك الوقت.

ففى سنة ١٩٦٢ اكتشف ثلاثة من الأطباء الأمريكان أن هناك نسبة عالية من الأطفال الجرحى فى المستشفيات. وعند سؤال الأطفال عرفوا بأن الذى اعتدى عليهم بالضرب. الأب أو الأم أو الاثنان معا. بعض هؤلاء الأطفال مات وبعضهم خرج من المستشفى بعاهات دائمة. وبعضهم أصيب بانهايات عصبية.. ولأسباب متعددة من بينها: الفقر.. أو أن الحمل لم يكن مقصودا.. أو العجز عن العناية به.. أو عدد أفراد الأسرة كبير..

وفى بريطانيا حوادث مماثلة لضرب الآباء لأولادهم.. وقتل الآباء لأبنائهم أيضا. وفى أمريكا ارتفعت نسبة الأمهات اللاتى يقتلن أطفالهن ثم يقتلن أنفسهن بعد ذلك.

وفى سنة ١٩٥٥ ارتفعت نسبة قتل الأطفال..

وقال العلماء فى تفسير ذلك: إن قتل الأطفال هو مظهر من مظاهر العنف العام فى المجتمع الأمريكى.. ولكن هذا التفسير ليس مقنعا. فإن العنف أيضا فى حاجة إلى تفسير: أما السبب فليس هو نقص الطعام. فالمجتمع الأمريكى هو مجتمع الرخاء.. وإنما هو الزحام الهائل بين السكان فى المدن والمصانع والمواصلات.. ثم الزحام فى البيوت الضيقة.

والحرب أيضا صورة من صور العنف وأكثرها وحشية. وإذا كانت الأم تقتل طفلها، فإن الشعوب أيضا تقتل الملايين من أطفالها ولنفس السبب ومن المؤكد أن الحروب القديمة لم تعد تخيفنا لأن مشهد السهام والنبال ليس كالمدافع والطائرات. فإننى أدعوك إلى زيارة متحف مدينة زيورخ: وهناك ستجد جنودا قد ألصقت أيديهم إلى الحائط بالنبال، وثبتت أقدامهم إلى الأرض بالرماح. لقد كانت الحروب القديمة في غاية الوحشية.. وفي الحرب العالمية الثانية لجأ المحاربون إلى استخدام السلاح الأبيض أيضا.

والتاريخ الأمريكى يحتفظ لنا بقصة عجيبة.. فعلى أثر المعارك الدامية بين الأمريكان والهنود كان المؤلف أن نجد الناس مشوهين.. مقطوعى الأيدي والأذرع والسيقان والآذان.. وقد روت إحدى السيدات أنها رأت شابا يموت في فراشه.. وكان جسمه فاتنا.. فلم تكن به إصابة واحدة.. وظلت هذه السيدة وسيدات أخريات يتغزلن في جثمان الفتى الجميل.

ويوم ١٩ يناير ١٩٦١ تلقت إحدى الصحف البريطانية هذه البرقية من مندوبها في فيتنام:

لقد رأيت شعبا يطفو على سطح المياه.. ألوف من الأطفال ضحايا القنابل الأمريكية.

(ولكن لماذا كل هذا العنف، سوف يجىء الجواب بعد لحظات فانتظرنى).

ولم يكن المدنيون، عادة، من ضحايا الحروب الكبرى.. وإنما العسكريون فقط.. ولكن حدث تغير في ذلك:

٥ ٪ من ضحايا الحرب العالمية الأولى مدنيون..

٥٠٪ من ضحايا الحرب العالمية الثانية مدنيون.

٨٤٪ من ضحايا كوريا من المدنيين.. وأكثر المدنيين : نساء وأطفال..

بل إن الروس في الحرب العالمية الثانية كانوا يضعون النساء في الصفوف الأمامية.. أما الألمان فكانوا يضعون الشبان والأطفال.

والتاريخ يقول لنا أن حروب القرنين ١٨ و ١٩ كانت أكثر اعتدالا من حروب ١٧ و ٢٠.. ففي هذين القرنين عرفت البشرية أقصى درجات الوحشية الكامنة في الانسان.

ولكن لماذا العنف في القرن السابع عشر؟

والجواب هو: بسبب أزمة السكان في أوروبا. فقد كانت هناك أزمة سكانية عنيفة في أوروبا في ذلك الوقت ، كما توجد أزمة معاصرة في أوروبا أيضا.

ولم تكن هذه الأزمة موجودة في القرن الثامن عشر.. فقد هاجر الأوروبيون إلى أمريكا ابتداء من ذلك الوقت حتى بلغ عدد المهاجرين عند بداية الحرب العالمية الأولى أربعين مليونا.

وفي القرنين ١٨ و ١٩ خف الضغط السكاني على أوروبا عندما انتقل الأوروبيون إلى الحياة في المستعمرات.. ويحدث نفس الشيء في جبلاية القروء عندما يتزايد عدد سكان الجبلاية فيصبح نقل بعضهم إلى مكان آخر أمرا ضروريا. بل إن هذا ما يحدث في الغابة إذ تنقسم القبيلة الكبيرة إلى اثنين أو ثلاث.. وكل واحدة تختار لها مكانا للطعام ومكانا للنوم.. ويخف التوتر مؤقتا..

وفي القرن الثامن عشر اخترع المحراث الحديدي. فتمكن من حرث المراعى والغابات وزرعها بالقمح لاطعام الأفواه الجائعة في أوروبا. وبذلك حلت أوروبا مشاكل الزحام السكاني في القرن التاسع عشر بتصدير البشر إلى المستعمرات واستيراد القمح والمواد الطبيعية من الممتلكات الأفريقية والآسيوية.. ولم يكن هذا ممكنا في القرن السابع عشر ولا هو ممكن أيضا في القرن العشرين. فأمريكا قد أوقفت الهجرة أو ضيققتها. ثم أن دول أوروبا الوسطى ليس لديها مستعمرات. فنحن نشهد نهاية الاستعمار. وقد بدأت الأزمة السكانية في ألمانيا أولا وفي إيطاليا بعد ذلك. فنحن في عصر يشبه القرن السابع عشر. وإذا الأزمة اشتدت واحتدت، كانت الحروب هي الحل الوحيد.

والحرب نفسها ليست كافية للحد من أزمة السكان.. ولا بد أن تكون هناك حلول أخرى.. وكذلك العنف بين الحيوانات ليس هو العلاج الوحيد، وإنما العلاج هو القضاء على التوتر الذي لا ينفرج إلا بالحرب... والتوتر سببه هذا العدد الهائل من الزحام السكاني في البيت وفي المدن وفي المصانع وفي وسائل المواصلات.

ونحن نلاحظ أيضا أن عصور الحروب هي عصور التناقض في عدد السكان.. لا بسبب الحروب ولكن بسبب المجاعات والأوبئة التي تنتشر مع اشتعال الحروب. ففي زمن الحرب يضطرب الانتاج والتجارة والصحة العامة وتتأزم المواصلات.

وهناك أسلوب إجرامى للقضاء على أزمات الانسانية كلها: باستخدام الأسلحة النووية التي تقضى على الانسان..

وما دام هناك زحام : كانت هناك طبقات. وإذا ظهرت الطبقات كان الموت للضعيف. وكانت الحياة للزعيم وحاشيته. وهذا واضح في عالم القروء وعند الفئران فالفئران القوية هى التى تجدها قد امتلأت لحما وشحما. ولمعت بشرتها. وهى التى تأكل على مهل وتمضغ على مهل. ولا تضطرب أثناء النوم. ولا يدفعها الخوف إلى الانحراف الجنسى.

وهذه الطبقة موجودة بوضوح فى الجبالية.. وقد حدث أن أخفى أحد العلماء طعاما تحت كومة من التراب فى جبالية القروء.. فجاء قرد صغير وظل يرفع التراب حتى وجد الطعام. ثم أدار ظهره. وجاء الزعيم وقلب فى الطعام واختار مايعجبه ومضى.. ومن بعده جاءت بقية القروء.. فهذا الاستغلال موجود بوضوح فى جبالية القروء وفى أقفاص الفئران وفى حظائر الغزلان..

وفى الفوارق بين الطبقات قديمة جدا عند الانسان.. والمقابر الفرعونية أكبر دليل على ذلك.. وهناك حرص الانسان على أن تكون هناك فوارق طبقية وذلك باستخدام أنواع مختلفة من الملابس والدروع والشعر المستعار والسيوف وحتى طريقة الكلام.

وفى تاريخ الحضارة الانسانية تستطيع أن نلمح سبب هذه السيول الجارفة من الجنود تعبر الجبال والبحار.. فالحضارة الأوروبية بدأت ببلاد الاغريق، حيث الضغط السكانى على أشده ففى الألف الأول قبل الميلاد كانت هناك هجرة واسعة إلى المستعمرات الاغريقية على البحر الأبيض حتى البحر الأسود.. وتخصصت أثينا فى النشاط الصناعى والتجارى. واستوردت طعامها ومواردها الأولية من المستعمرات ومن جنوب روسيا. وكانت فى أثينا أيضا مناجم للفضة..

وظلت الحضارة اليونانية تنتعش حتى بلغت قمتها في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

وفي مواجهة الهجرة الاغريقية ظهرت هجرة أخرى في لبنان.. هجرة الفينيقيين.. إلى كل المستعمرات الاغريقية.. وزاحموا الاغريق في التجارة والملاحة.

وعرفت اليونان أزمة سكانية هائلة. ولكن جاءها الفرغ عندما عبر الاسكندر الأكبر إلى الشرق الأدنى وراح يقيم المدن في كل مكان.. ولكن هذا الاتساع الهائل لم ينقذ الحضارة اليونانية التي كانت قد ضعفت في اليونان نفسها.

وبعد الحضارة الاغريقية جاءت الأزمة السكانية في إيطاليا.. ولكن إيطاليا أقامت الامبراطورية التي تعتمد في طعامها على الدول التي ابتلعتها.. ولكن حدث خلل في إدارة الامبراطورية.. أى ميزان مدفوعاتها.. ومع الحروب والجوع انتشرت الأوبئة التي استمرت ستين عاما فقتلت نصف السكان وأسقطت الامبراطورية الرومانية.

ومن الطبيعى أن تكون الاختراعات العلمية التي اهتدى إليها الانسان قد ظهرت في العصور التي جاءت بعد الأزمات. ولكن في ظل الأزمات من الصعب على الانسان أن يبدع. لأن اضطرابه وقلقه وخوفه يشغله عن التفكير المركز وإذا لم يكن هناك تركيز في الفكر لم يكن هناك شىء جديد ففي القرن الثانى عشر فى أوروبا أقيمت الكاتدرائيات القوطية الطراز.. وعصر النهضة الأوروبية بلغ قمته فى القرن الخامس عشر.. أما الابداع العلمى والكشوف الكبرى فقد بدأت تظهر فيما بين القرنين السابع عشر والعشرين..

وفي هذا العصر الحديث تبدو لنا الصورة بشعة ومخيفة : زحام في كل مكان. وفي دول الرفاهية والرخاء : كالولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك قاعدة تحكم كل تصرفات الانسان كفرد أو كجماعة : عندما يكون هناك نمو سريع في السكان يكون هناك احتقان.. أو تكون هناك جلطة دموية..

وقديما جدا كان يوليوس قيصر يطلب من العربات ذات العجلات الا تمشي في قلب المدن نهارا، حتى لا تدوس الناس.. أما الامبراطور ماركوس أوريليوس فقد منع العربات ذات العجلات من السير في كل المدن.

وهذا الزحام البسيط الذي كانت تشكو منه الامبراطورية الرومانية قد أصبح أزمة مخيفة بين الطائرات عبر المحيط الأطلنطي حيث توجد ثلاثة مستويات للطيران حتى لا تصطدم الطائرات بعضها ببعض. هذه المستويات الثلاثة ضاقت بالطائرات.. وضافت الدول الكبرى بهذا الزحام.. وغدا تضيق بالرحلات إلى الكواكب الأخرى.. وهذا الضيق على كل المستويات، في الشوارع وفي البحار والأنهار والهواء والكواكب سوف يؤدي إلى نتيجة واحدة عرفتها القروء والفئران : إلى الحرب.

ولا علاج إلا بتحديد عدد السكان.. إلا بتخفيف التوتر الذي هو من نتائج الزحام، الذي هو من نتائج الزواج المبكر وعدم استخدام حبوب منع الحمل.. ولا بد من العودة مرة أخرى إلى جبالية القروء والفئران لنجد عندها علاجا لوحشية الانسان.

وأخيرا..

وقف عدد من الأطباء أمام أحد القضاة في بريطانيا يوم ٨ أكتوبر ١٩٦٥.. وحاول القاضي بكل ما استطاع من وقار أن يمنع هيئة المحلفين من الاعتداء على الأطباء المتهمين.. قال القاضي: وكيف حدث ذلك وقال أحد الأطباء: لست وحدي. قال القاضي: أعرف أنكم سبعة.. ولكن كيف حدث ذلك في وقت واحد وفي ثلاثة مستشفيات؟؟.

ولم يجب الطبيب.. ولا أجاب الستة الآخرون. فقد أمسك هؤلاء الأطباء «مناشيرهم» وقطعوا سيقان عشرة أطفال على سبيل الخطأ.. وأمروا عشرين طفلا بمغادرة الفراش على سبيل الخطأ.. فماذا كل هذا؟؟ لأن هناك عددا كبيرا من المرضى في المستشفيات وعددا قليلا من الأطباء والممرضات.. ولأن الرعاية الطبية غير ممكنة.. تماما كرعاية الأب والأم لأبنائهما الذين لا يعرفان لهم عددا.. وفي هذا الزحام تدوس الأقدام أقداما أخرى، وتقطع الأيدي سيقانا ورقابا..

ولم نكن نعرف ذلك حتى تعلمناه من صراحة القروء.

من قسوة الآباء يولد أطفال مجرمون ! (٣)

عندما أصدرت الصين قانون الطلاق سنة ١٩٥٠ فوجئت المحاكم بقصة غريبة : دخلت فتاة عمرها ٢٨ سنة إحدى المحاكم ومعها طفل عمره ثمانى سنوات . وركعت على ركبتها تطلب الطلاق من هذا الطفل .

فقد كان من عادة العائلات الصينية أن تخطب الفتاة وهى طفلة لطفل آخر.. وليس من الضرورى أن يكون هذا الطفل قد ولد . وإنما تجرى العادة أن تعيش الفتاة مخطوبة للطفل الذى سوف تلده أم من الأمهات .. وهذه الفتاة ظلت عشرين عاما تنتظر حتى ولد الطفل فأصبحت مخطوبة له وانتقل الطفل الرضيع إلى حضن زوجته . وظلت الزوجة تربي زوجها حتى أصبح فى الثامنة من عمره عندما صدر القانون الذى خلصها منه .

وقيل فى الحكمة عن هذه العادة انها إحدى الحيل الاجتماعية لتحديد النسل فى الصين .

ولم تنفع هذه الحيلة فقد بلغ عدد سكان الصين ما يقرب من الألف مليون .

والعالم كله يتزايد بصورة مخيفة. والذين زاروا المعرض الدولي في بروكسل سنة ١٩٥٨ قد توقفوا عند ساعة في مدخل الجناح البريطاني.. هذه الساعة تتحرك مرة كل ثانية.. وليس هذا غريبا.. وإنما الغريب أن هذه الحركة تدل على أن طفلين قد ولدا في دول الكومنولث البريطاني. وقد عرفنا قبل ذلك – فيما سبق – أن زحام القروء يؤدي إلى التوتر والتوتر يؤدي إلى العنف.. والعنف يؤدي إلى الاستبداد من ناحية.. والخوف من ناحية أخرى والخوف يؤدي إلى الانحراف والشذوذ.. ويؤدي إلى القتال حتى الموت.

وربما كانت أوضح الصور لهذا العنف ما نراه في عالم الفئران.. فقد استطاعت الفئران البنية اللون أن تقضى نهائيا على الفئران السوداء في أوروبا في مدى ثلاثة قرون.. ومن التجارب التي أجريت على إحدى مستعمرات الفئران أن أتى طبيب بستة من الذكور وواحد من الاناث ووضعها جميعا في مكان مقفل.. فسارعت الأنثى واحتمت في جحر.. واقترب أحد الذكور منها ومازال يحاول حتى تسلل إليها في داخل الجحر.. وأمام قوته استسلمت. ثم استدار الاثنان يهاجمان الفئران جميعا.. ومن هذين الفأرين تولد الألوف في سنوات.. وعادت المعارك الدامية بين الفئران.

وفي مملكة النمل أيضا نلاحظ أن الملكة – تماما كزعيم القروء – أصبح جسما وأكبر حجما بل أنها في بعض الأحيان تستطيع وحدها أن تصنع في عشر سنوات ستين مليون بيضة.. وهذا الزحام في مملكة النمل يدفع إلى معارك دامية.. وهذه المعارك مصدرها التزاحم على المكان وعلى الطعام.. وفي مملكة النمل نظام دقيق فلا يسمح النمل الشغال لنملة أخرى أن تتسلل إلى المستعمرة المخصصة لها.. ولذلك لابد من شم النملة عند الدخول أو عند الخروج.. فإذا أحس النمل أن هناك نملة أجنبية قتلوها فورا.

وقد حدث في جزيرة برمودة أن نقلت السفن الأوروبية أنواعا غريبة من النمل إلى الجزيرة. وتصادف أن هذا النمل الأوربي كان متطورا من ناحية «تنظيمه الاجتماعي» واستطاع هذا النمل الغريب أن يبني مستعمرات النمل «الوطنية». فقد أقام هذا النمل الأجنبي مناطق المراقبة والحراسة وحاصر النمل «الوطني» وقضى عليه في سنوات.

وأنها مشكلة «المجال الحيوي».. أو مكان الحياة.. أو المكان الذي تصبح فيه الحياة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الأفراد.

وحدث أن اكتشف أحد العلماء في الدراسات الانسانية في سنة ١٩٥٣ أن عددا كبيرا من السكان الأصليين لأستراليا كانوا يقتلون أطفالهم بسبب العطش والجوع.. ولم تكن المشكلة في أستراليا هي مشكلة المكان.. فقد كان سكان أستراليا الأصليون عندما اكتشفها الرجل الأبيض نصف مليون نسمة.. موزعة على المناطق الساحلية المزروعة أي بمعدل أربعين ميلا مربعا للفرد.. وإنما هي مشكلة المساحة التي يدور فيها هؤلاء السكان لكي يحصلوا على طعامهم من البحر.. هذه المساحة كانت ضيقة.. ضاقت بهم الأرض.. فضاقت بعضهم ببعض.

وحدث هذا أيضا في المناطق التي يتزاحم أهلها حول مياه الأنهار.. فلا تزال المياه العذبة مشكلة لعدد كبير من دول العالم بما فيها الولايات المتحدة و٤٣ دولة أخرى.. والحضارات القديمة كلها قامت بين الوديان: أي على الزرع وعلى الماء الذي يروى الزرع والحيوان والانسان.. ولاتزال مشكلة المياه الحلوة هي إحدى مشاكل الشرق الأوسط أيضا.

وإذا نقصت المياه جف الزرع ومات الحيوان والانسان.. وإذا فاضت غرق الزرع وجاع الانسان والحيوان.. وربما كانت أول كارثة

عرفها الانسان بسبب فيضان المياه ما جاء في كتاب «جلجامش» عن العراق القديمة.

ولاتزال المعارك الدائرة بين الهند وباكستان بشأن منطقة كشمير سببها المياه ومساقط المياه.

ولابد أن يكون هذا هو السبب الذي دفع الصين إلى أن تشترك في حرب عنيفة مع كوريا سنة ١٩٥٥.. لقد كانت تخشى على مصانعها في منشوريا التي تشغل بكهرباء نهر بالو عبر الأراضي الكورية.

وهناك مشكلة من نوع آخر في البحث عن الطعام.

فقد عرفت الصين غزوات الرعاة وملوك الرعاة وهؤلاء الرعاة كانوا يتنقلون بمواشيهم عشرات الألوف من الأميال دون أن يوقفهم أحد. وكانت تدور المذابح الدموية.. ويكفى أن نشير إلى الصعود والهبوط في عدد السكان بالصين لنعرف ما الذي فعله الرعاة في الفلاحين من أبناء الصين. في سنة ٧٥٤ قبل الميلاد كان سكان الصين ٥٢ مليوناً وفي سنة ٨٢٩ بعد الميلاد كان سكانها ٣٠ مليوناً.. وفي سنة ١١٢٥ بعد الميلاد كانت مائة مليون.. وفي سنة ١٢٩٠ بعد الميلاد كان سكانها ٥٩ مليوناً وفي سنة ١٦٦١ بعد الميلاد كانت ١٠٥ ملايين.. ولابد أن يكون الامبراطور جنكيز خان هو الذي ساق الملايين في الشرق والغرب إلى ما تحت التراب.. (وحتى لا ننسى فإن سكان العالم الآن ٣٥٠٠ مليون نسمة..).

ويمكن أن نشير إلى هذه التوترات العنيفة التي ألمت بالانسان والحيوان بأنها على التحديد أزمة مساكن.

وباريس الآن هى أكثر عواصم العالم كثافة بالسكان.. ففيها ثمانون ألفا يسكنون فى ميل واحد مربع. ولذلك ليس من العجب أن يكشف العلماء أن معظم أطفال باريس الذين يدخلون المستشفى ليسوا مرضى.. وإنما هم ضحايا إهمال الوالدين.. أو بعبارة أخرى: أنهم يتركون أطفالهم فى المستشفيات حلا لأزمة السكن.

ومن المعروف تاريخيا أن مدينة «أور» فى العراق القديمة كانت أكثر عواصم العالم كثافة.. بالسكان.. وكان ذلك قبل الميلاد بألفى سنة..

ومدينة كلكتا بالهند الآن نموذج مخيف لشيء يجب ألا يكون فى الدنيا: ١٧٪ من سكانها بلا مأوى.. و ١٥٪ ينامون فى الدكاكين.. و ٣٠٪ ينامون كل ثلاث عائلات فى غرفة واحدة..

ومن الطبيعى أن تبرز مع مشكلة السكن مشكلة الطعام أيضا.

ومدينة روما القديمة فتحت أبوابها لعشرات الألوف من الأسرى.. وأقام هؤلاء الأسرى فى بيوت خشبية. ومع هذا الزحام العنيف من الأجانب انتشرت أشكال العنف الاجتماعى والرياضى.. فقد كان يلتف أهل روما حول الساحات التى يصارع فيها الأسرى أسودا ونمورا.. أو يتقاتل فيها الأسرى حتى الموت.. وبلغت موجة العنف مداها فى سنة ٦٤ ميلادية عندما أحرق الامبراطور نيرون هذه المدينة.

وحدث أيضا عندما هاجر ٨٠٠ ألف إيرلندى سنة ١٨٤٠ إلى كندا وأمريكا أن أقاموا فى كهوف تحت الأرض. وكان من أثر هذا الزحف الأجنبى أن ارتكبت أبشع الجرائم التى عرفها التاريخ.

وما حدث في أمريكا سنة ١٩٦٥ من جفاف ونقص مياه الشرب أدى بمطاعم نيويورك إلى الامتناع عن تقديم ماء الشرب إلا في أقصى الظروف.. وفي سنة ١٩٦٦ نقص ماء الغسيل.

اننا أمام مشكلة غريبة: وهى أن الانسان يجب أن يكون بمفرده ويجب أن يكون مع غيره ويجب أن يكون له مكان خاص، وأن يكون له مكان عام.. فهو يريد أن تكون له غرفة خاصة.. أو بيت خاص.. ولكن عندما يريد أن يلعب وأن يعمل فمع الآخرين.. عندما يذهب إلى الملاعب تتضاعف سعادته عندما يكون بين الألف. وعندما يذهب إلى الشاطئ فهو يحشر نفسه في زحام الأجسام العارية.

وهذا واضح عند القروء والنمل والفئران.. فهى حريصة على أن يكون لها مكان خاص بها.. وفي نفس الوقت حريصة على أن تتجمع في مواجهة العدو.. وأن تتجمع في أوقات الاخصاب.. وأن ترعى أطفالها وأن تلاعبها.. فإذا تحول مكان الطعام إلى مكان للنوم تحولت إلى العنف وسفك الدماء..

وقد لاحظ الأطباء السويسريون أن كثيرا من نزلاء السجون تتحسن صحتهم إذا ما انفرد كل واحد بغرفة خاصة.. وهذا الانفراد يجعله هادئا وميالا إلى أن يحتمل الألم ويتذوق الحياة أيضا.. وذلك شوهدت الزهور والكتب والمجلات والنظافة في الغرف التى ينزل بها سجين واحد.. واختفت في الغرف التى يكون بها أكثر من سجين.. وان كان هذا السجين حريصا أيضا على أن يلتقى بزملائه أثناء الطعام أو الرياضة أو الصلاة.

وهناك حلقة مفرغة عنيفة.

فالتوتر يولد العنف.. والعنف يولد التوتر الذى يؤدي إلى العنف أيضا.

فقد لاحظ العلماء اليابانيون أنه بعد سقوط قنبلة هيروشيما بستة أسابيع ازدادت أعمال العنف في المدينة.. وارتفعت نسبة حوادث السرقة والنهب والقتل.

وحدث كذلك في فرنسا أيام حرب المائة سنة.. وفي ألمانيا أيام حرب الثلاثين سنة.

ولم يكن الموت الأسود في أوروبا إلا مناخا مناسباً لمواتيا لمذابح القرن الرابع عشر.

وحريق لندن سنة ١٩٦٦ كان مقدمة للأعمال العنيفة ضد الكاثوليك. وسببا وجيها لاحتراق المشتغلات بالسحر.

وفي طوكيو سنة ١٩٢٣ وقع الزلزال الشهير.. وأدى هذا الزلزال إلى أن اتجه المجتمع الياباني كله إلى القضاء على المهاجرين الكوريين.. ولم يكن الزلزال هو السبب الوحيد.. فقد كانت هناك أزمة حادة في المساكن.. هذه الأزمة هي التي دفعت باليابان إلى أن تشن حربا على كوريا بعد ذلك.

ومن المعروف لنا – أى بعد هذه الفصول التي تعرض وجهة نظر جديدة في العنف – أن النساء والأطفال هم الضحايا الأول لكل عمل جماعى عنيف.. في عالم الحيوان أو الحشرات أو الانسان.

وقد نبه كاتب فرنسى اسمه بوليتو إلى هذا المعنى في كتاب أصدره بعنوان «الجريمة تفيد».

أما موضوع هذا الكتاب فهو أن المؤلف اختار عددا من مشاهير السفاحين.. ودرس حياتهم.. وانتهى إلى النتيجة التي تتمشى تماما مع هذه النظرية في تفسير العنف في التاريخ.. وأول سفاح اختاره هو وليام

بيرك الذى أعدم سنة ١٨٢٩ لأنه قتل مجموعة من المواطنين وبيع جثثهم لطلبة الطب.. واختار السفاح ترويمان الذى أعدم فى باريس سنة ١٨٧٠ والذى قتل أسرة من ثمانية أشخاص الواحد أمام الآخر. واختار جورج سميث الذى أعدم سنة ١٩١٥ لأنه أغرق ست عرائس فى الحمام بعد الزفاف مباشرة.. واختار السفاح دذيرى لاندري والتى أعدم فى باريس سنة ١٩١٦ لأنها قتلت عددا كبيرا من الأطفال.. واختار السفاح هارتمان الذى أعدم سنة ١٩٢٤ لأنه قتل عشرين شابا وبيع أجسامهم لحما للجزائريين.

وانتهى المؤلف إلى أنه حيث يكون الطفل مهملًا يتحول إلى الجريمة.. وحيث يكون الأب قاسيا يتحول الطفل إلى القسوة على الآخرين.. كأنه يريد أن ينتقم من أبيه فى كل إنسان.. وحيث يكون الأب فاشلا يكون الابن مجرما أو ميالا للجرام.

وقد لوحظ هذا أيضا فى عالم القردة بوضوح أكثر. فإن القردة والحيوانات الأخرى لم تتعلم أن تكذب وأن تنافق، وأن تخادع كما يفعل الإنسان.. فقد أدرك العلماء أنه عندما تكون الأم عصبية المزاج أو مريضة فإن صغارها يصبحون مرضى.. أو يتحولون إلى الشراسة.. والشراسة القردية فى جبلاية القردة عمرها قصير.. أى تجعل عمر القرد قصيرا.

ومن التجارب التى قام بها أحد علماء اليابان أن أتى بقردة أنثى وشغلها بعدد من الذكور.. ولما ولدت الانثى ترك طفلها معها أيضا.. وهذا جو غير طبيعى متوتر عنيف ولم يكن من السهل على هذه الأم أن تكون أما. ولا أن تكون أنثى لذكر واحد.. أو عشيقة لقرد واحد.. فقد كانت هذه الذكور على درجة متقاربة من القوة.. كما أنه من الصعب أن تكون هناك

درجات زعامية كما يحدث في الجبلية.. وكان من نتيجة ذلك التوتر الأعصاب الجميع.. أما القرد الصغير فقد حاول أكثر من مرة أن يخنق أمه.. ولكنه لم يستطع فقتله أحد القروء الذكور.

والحادثة المشهورة في أمريكا يوم ١٦ يوليو ١٩٦٦ عندما قتل شاب ثمانى ممرضات في وقت واحد.. لقد وقع الحادث في مدينة متوترة عنيفة هي مدينة شيكاغو.. وفي اليوم التالى قامت مظاهرة.. قتل فيها ثلاثة من الشبان وجرح خمسون.

ومن الممكن أن يؤدى التوتر في داخل الجبلية إلى أن يكون هناك عدد من القردة المارقين.. أن تكون هناك عصابة من القروء المارقة.. أو تكون هناك عصابة من القروء لا تنتسب إلى قبيلة.. وهذه العصابة تشيع الرعب.. ولأنها عصابة فليس لها زعيم بالمعنى الحقيقى، وهذا هو أحد العيوب الأساسية في تكوين أية قبيلة للقروء.

وقد حدث مثل ذلك في جزيرة صقلية.. فهذه الجزيرة تعاقب عليها الرومان والألمان والأسبان والفرنسيون والقراصنة.. وعرفت القلق مئات السنين.. وكان من الطبيعى أن يصبح التمرد العنيف أهم معالمها.. فتكونت عصابات المافيا.. التى ترتكب الجرائم المنظمة في أوروبا وفي أمريكا.. وقد تزعم هذه العصابة الشاب آل كابونى.. ولم يكن آل كابونى هذا زعيما لها.. وإنما كان زعيما لها ظاهريا فقط لأنه ليس من صقلية وإنما هو من أبناء نابلى.. والعلامة الواضحة في وجهه ليست إلا من أثر شجار بينه وبين الحلاق.. فقد طلب إليه أن يحلق شعر رأسه كما يفعل أعضاء عصابة المافيا فرفض الحلاق.. فكانت معركة.. وخرج من هذه المعركة بطلا صالحا لأن يكون عضوا في العصابة.. وقد استعانت به القوات الأمريكية في السيطرة على جزيرة صقلية في الحرب الثانية.

إن أسباب العنف في التاريخ ليست نقص الطعام دائما.. وإنما هي هذا
الزحام حول الطعام والشراب واللذة والسيطرة والمسكن.. وفي هذا
الصراع: كل الناس قروء.. أو كل القروء بشر.

مُتَلَصِّمًا
وَلَكِنَّكَ عَرَبِيَّة!

جعلنا للشفاه

قيمة جنسية !

(١)

إذا ذهبت إلى حديقة الحيوانات. وسمعت من يصرخ وراءك ويقول :
يا حيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث.. فكل ما فى
الحديقة حيوانات : التى فى الأقفاص.. والذين خارجها.

وإذا وقفت أمام قفص القرود ورأيت القردة تفلّى ابنتها الصغيرة
فلا تضحك.. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف. أما فى المدينة فالكوافير
يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل إليه عقل الانسان.

وإذا أنت ألقى ببعض السودانى وتزاحمت عليه القرود وضحك طفلك
الصغير، فأظن أنه لا داعى لأن تضحك أنت.. لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى
المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه. فمكان العمل هو قفص أقسى
من قفص القرود. وأنت محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد
ومخاوف.. وإذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فانك تقفز مثل
هذا القرد وأكثر.. وليست العلاوات إلا أنواعا من الفول السودانى الذى
يلقى لنوع آخر من القرود..

وإذا رأيت القرد – أمام كل الناس – يركب ظهر الأنثى. فليس القرد قليل الأدب، ولا نفسه انفتحت لمجرد رؤيتك. ولكنه في حالة خوف. والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا. والناس في جو الخوف يتعانقون. إنهم يواجهون الموت بالقبلات، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء.. والبقاء عن طريق الجنس..

وإذا كان القرد ليس له مستقبل في أن يكون إنسانا. فمن المؤكد أن الانسان له ماضى. وهذا الماضى ما تزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها في جبلاية القرود. فإذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد.. فهو قريب من جدنا البعيد. وإذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين.. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة في أقفاص القرود..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب التى صدرت أخيرا في العالم بلغات متعددة.

وإذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان، فإنهم – عادة – لا يتفقون على رأى واحد.. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على أنه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا. وأن به نظريات جريئة وجديدة ولا بد أن تدير ألاف من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك في إمكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس.

هناك ١٩٢ نوعا من القرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر: وهذا القرد العريان له صفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه

يقضى نصف عمره بحثاً عن معنى سلوكه وتصرفاته.. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى. وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلاً. والحقيقة أنه عاقل حقيقة، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية.. فالحيوانات كلها معتدلة، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه أنثاه..

والحيوانات لها مواسم. والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضاعة والولادة.. فكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون «حيواناً» ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى، وخصوصاً الحيوانات الراقية مثل القروء لنعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم.. ولا نفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها.

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى إحدى حدائق الحيوانات يوجد «سنجاب» وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحدائق ويداعب الأطفال. هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد.. وكتبوا على القفص.. هذا السنجاب أفريقى نادر. ولا نعرف اسمه العلمى.. فنحن لم نر قبل الآن سنجاباً له قدم سوداء.. وأنف أحمر..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى. لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعاً من السناجب التى عاشت فى العالم كله. ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماماً وأصبحت لها عادات خاصة، ولها نداءات جنسية خاصة. ولا بد أنها مرت بظروف غريبة. وأنها توافقت مع

هذه الظروف. وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى.

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الانسان - هذا القرد العريان - نتساءل كيف عاش. ولماذا بقى. وكيف تطور.. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات إلى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر. ثم الثمار.. ثم انتقل من الغابات إلى الأرض الواسعة.. ثم كيف تحول من التقاط الثمار إلى صيد الوحوش.. ثم إلى زراعة الأرض.. ثم كيف حاول الهرب. واستخدم رجله.. واستخدم يديه في صناعة أدوات حياته..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة في الحر والبرد.. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية - أى التى لها أثداء ترضع بها أطفالها - تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف في حفظ درجة الحرارة في الشتاء. والوقاية من حرارة الشمس في الصيف.. والوطواط وهو طائر ثديى عريان في معظم أماكن جسمه.. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه.. وهناك حيوانات أخرى مائبة ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدراويل.. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان..

والانسان في تاريخه الطويل فقد القدرة على الابصار. وفقد قوة السمع والشم. أما الحيوانات الأخرى وخصوصا أكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع والشم. ففي سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم، فأثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة.

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا. وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل. وانما لأسباب وجيهة: الجوع.. أو جوع صغارها..

وحتى الحيوانات التي استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد.. والانسان أيضا. فالكلب الأليف يجب أن يخرج به سيده إلى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة.. وهى لعبة لأنها ليست خطرة. وكذلك القط الذى تلقى إليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير.

وبعض الكلاب تخفى طعامها.

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة في الصيد.. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب.. وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود. والذئاب تحاصر الفريسة.. أما الكلاب المتوحشة فإنها تمشى في طابور طويل.. وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت.

وهناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القردة الأخرى. هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة. هذه الفترة يعيش فيها مع أمه. ويتعلم منها الكثير. وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج. ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره. ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين.. أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة..

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها.. وهى أن الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال. لأن المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها.

والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى، أن تبقى هذه الأنثى له وحده. وأن تبقى وفيه مخلصه له إذا ذهب للصيد في الغابات. هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما. وهذا الحب أدى إلى الارتباط والارتباط أدى إلى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة.. أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال.. وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان متنافس أيضا. وكثيرا ما أدى به التنافس إلى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر.. وإذا كانت رغبة الانسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة، فان رغبته في التنافس هي التي جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال.. وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة.. تاريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها: حب الانسان لأخيه الانسان..

أما لماذا سمى الانسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة هناك رأى يقول إن طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما.. ثم ينبت له الشعر كلما كبر. والانسان لأن طفولته طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر.. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين..

ومن المعروف أن الجنين في الشهرين السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان.. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن.. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم.. كالقرود تماما..

ويقال أيضا ان الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشعر. تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة. وكان الانسان يعيش فى الكهوف.. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه.. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه. على عكس الحيوانات الأخرى. وهناك نظرية تقول إن الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة إلى أغطية من الشعر.. أو فروة من الشعر.. وأنه قادر على أن يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا. وأن يجد الدفء أمام النار ليلا.. وأن هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله.

ويقال إن الانسان قد عاش مئات الألوف من السنين ينتقل بين البر والبحر وإنه كان يعيش على أكل السمك. وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله. ولا يبقى إلا رأسه على سطح الماء.. ولذلك – مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى – أصبح جسمه خاليا من الشعر.. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر، أكثر من الحيوانات الأخرى..

وربما كان للشعر تفسير جنسى آخر. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الاناث ولذلك أصبحت الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل. وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا. بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة.. ولذلك يطلق شاربه ولحيته.. ويترك الشعر فى صدره وتحت إبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة. ولا معنى ذلك أن المرأة أحببت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر.. ولكن معناه أن الانسان أحب الواقع.

نعود مرة أخرى إلى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان..
ان القردة لم تذهب إلى الحلاق ولا إلى صانع أحذية وإلى مصمم أزياء..
ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان.. والكورسيه والكعب العالى..
ولا الغمز بالعين..

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون
شهوانيا.. وأن يكون مشتتلا جنسيا، وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود
إليه.. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له
أسرة وأولاد.. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب،
الذى هو اسم مهذب للجنس.. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى
قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية. واسمه تجارب التاريخ الذى
طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتها.. وفى الصراع مع
الحيوانات الأخرى تحركت ساقاها.. وقاومت فتحركت يداها.. واهتز عقلها
أيضا.. وسكنت الكهوف.. واستقام ظهرها.. وكبر عقلها.

وأصبح الانسان لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم أنه
مختلف عنها تماما.. ولكنه قرر يصنع الأقفاص لغيره.. ولنفسه.. ويجعل
أقفاصه هو مكيفة الهواء إذا كانت على الأرض.. ومكيفة الهواء والضوء
والضغط إذا كانت فى طريقها إلى القمر. والانسان قاتل من يومه..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف. وما يزال يقتل. فقد أصبحت لهذه
الأسلحة أسماء جديدة: الصاروخ والطائرة والدبابة. فهو – إذن – لم
يتغير.

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل. وإنما هذه الرغبة هى التى طورت
الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها..

والانسان – هذا القرد العريان – كان صيادا في الغابة، يعيش على التقاط
الفاكهة: التفاح والرمان والتوت. وما يزال. ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان
النهود وتوت الشفاه.

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان. وإنما رغبات
الانسان هي التي أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة
الانسانية. فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية: يجوع
إليها، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود إليها. ويبدأ الانسان هذا الشوق
الجنسى في سن مبكرة. ثم يعرف اللعب الجنسي. والمداعبة. والمطاردة.
والصيد. والانتباه الجنسي والهيّاج الجنسي.. والاشباع..

والانسان حيوانى شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على أن تكون له أسرة. أى تكون
له امرأة واحدة. يحرص عليها ومن الضرورى أن تحرص هى أيضا عليه.
والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف إلى الصيد في الغابة. ويبقى
فترات طويلة. ويترك وراءه أنثاه وأولاده. وهى بذلك تكون عرضة لعدوان
الذكور الآخرين. ولا بد من حماية لها أثناء غيابه.

ولذلك عرف الانسان الحب. وعرف العطف على الانثى. وعرفت الأنثى
حماية الذكر. وهذا الحب كان ضروريا للانسان. لأنه عقد غير مكتوب
ويمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق في أن يحتفظ بهذه الانثى. ويصبح لهذه
الانثى الحق في أن تعيش في كهف هذا الرجل ولهذا الرجل وألا تسلم
نفسها لذكور آخرين..

ولكى يبقى هذا «العقد» محترما كان على الذكر أن يحترم عقود
الآخرين.

وفي الوقت الذي بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج. ولذلك لم يعد هذا الانسان في حاجة إلى عضلات الحيوانات وسرعتها في الجرى والهرب. وإنما عقله هداه إلى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة. وهداه أيضا لاستخدام أسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس.. وهداه إلى وضع حدود اجتماعية لتحميه وتحمي ذريته. وفي أثناء فترة الصيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه. وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى. وهذه الأصابع هي التي مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا. وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى..

وتمكن الانسان - خلال مئات الألوف من السنين - أن يصلب عوده وأن يقف. وتعلم الانسان أن يكون له رفيقة واحدة. هذه الرفيقة هي الشريكة. أو هي اللصيقة. أو التابعة.. فلم تظهر كلمة: الزواج أو كلمة الزوج إلا فيما بعد ذلك بألوف السنين.

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرود مثلا..

ففي فترة الحمل عند القرود - أقرب الحيوانات إلينا - تقرف الانثى من كل صلة جنسية. بل إنها تبعد تماما عن الذكور. فيما عدا الانسان - هذا الشهواني - لا يقوى على الحرمان طويلا. ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجه زوجته إلى ذكر آخر.. وكأن الانثى أرادت هي الأخرى ألا يتجه الذكر إلى أنثى أخرى. فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل.

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة، هذه النعومة في البشرة.. فهو إذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان.

وأصبح الجسم الانسانى شديد الحساسية للملامسة. وفي هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس. والانسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك.. ولذلك فى استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصبعه على الجسم الانسانى العريان.

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان..

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة خاصة. وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة. ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا.. ويقول علماء آخرون.. أن شفتى الانسان قد كبرت وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة. أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر.

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنهما مقلوبتان إلى الخارج. على خلاف شفتى القرد.. فانهما حادثان بلا طبقة شحمية. فإذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أو على عنقك. ولكن القبله من شفتى إنسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا. ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة. ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان.. وتنقلان الحرارة والوهج الجنى إلى كل الجسم بل إن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات.. وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى.. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة.

وبعد الشفتين تجيء الأذنان..

يقول بعض العلماء أن أذنى الانسانى كانتا طويلتين – كأذنى الحمار مثلا ثم ضممت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لهما هذا الشكل الذى نراه.. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد.

ولكن هناك خلافا واضحا: هذه الشحمة التى تتدلى من الأذن.. من أين جاءت؟ وما فائدتها؟ ليست لها فائدة. ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية.. أمسك الأذنين بأصبعه أثناء اللقاء الجنى. واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية. وأصبحت جرسا يضغط عليه فإذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح..

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان.. ويتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا.

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة. وضرورة لها. ولكن أشداء القروء ليست فى ضخامة أشداء المرأة. على الرغم من أن أشداء القروء أكثر افراز لللبن. ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القروء لم تؤد إلى تضخم ثدى القردة. ولكن أنثى الانسان لها نهذان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة، ولكن بسبب الأنوثة.. فالنهدان جهاز تنبيه جنسى أيضا. اعتاده الانسان واستراح إليه وعليه.

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى. والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة. وإذا كانت حاسة الشم عند الانسان قد ضعفت فإن هذه الحساسية تقوى عند العناق. ويصبح الأنف

قادرا على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق
العطور ورائحة الجسم الانسانى نفسه..

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات
الآلاف من السنين.. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل الذى نمتاز به عن
الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الانسان الآن.. هل ما يزال
الانسان كما كان من مئات الآلاف من السنين.. هل نحن مختلفون عن
أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشباع.. لم يتغير شيء.. وانما الأسماء فقط
هى التى تغيرت.. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد. والحب
بدلا من السطو. والزواج بدلا من التزاوج..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها: القانون.. القواعد.. الأصول..
التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز. هذه الفواصل. هذه الأسلاك
الشائكة. هذه العلامات البيضاء على الأرض. علامات المرور العاطفية.
متى ظهرت. متى أصبحت لها هذه القوة؟..

فبين الرجل وأنثاه لا قيود. ولا تقاليد. ولا عادات. إلا ما اتفقنا عليه
وهو حر فى بيته. وهى أيضا. وفى استطاعة الانثى أن تمشى عارية. والرجل
أيضا. ولكن عندما يظهر شخص غريب: تنكمش الحركة ويتغطى الجسم.
وتنزوى المرأة. ويبعد الرجل عن زوجته..

وإذا كان الرجال معا يذهبون إلى الصيد، ويتركون النساء وحدهن فقد
حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا. هذا الاختلاط حتم إقامة
الفوارق والحدود. وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف. أى أن
المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير..

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز وإقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم. وفي العصور الوسطى كان الرجل يضع «حزام العفة» حول زوجته.. ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح في جيبه.. عاما.. وعشرين عاما. ويترك في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط. وكان البعض من المتمزمتين يضع الحزام السد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم!

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن يكون له امرأة خاصة... وأن يكون جسمها خاصا به. وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه. (وفي كل اللغات العالمية نجد أن كلمة «نام» الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته).. إذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة. والبيت الخاص. وعرف السرية والخصوصية في كل تصرفاته الجنسية والعاطفية.. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا..

ولو نظرنا إلى مكان يزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصطدم أحد بأحد.. أو يصطدم رجل بامرأة.. لأن الملامسة لها معنى جنسى. وإن كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك. وإنما فقط نقول: عيب أن نصطدم بسيدة.

هذه قلة ذوق.. هذا سوء تربية.. ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة ليس مباحا. وإنما هو خاص. وليس من حقك أن تلمسه.. وإنما من حق غيرك، وإن كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد، لأنه لا مفر من ذلك، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب.. ولو فرضنا أن سيدة اصطدمت برجل في الزحام، ولم يعتذر لها لقاتل أنه قليل الأدب.. ولكن لو ذهبت إلى الطبيب نفسه للعلاج فإنها تنزع ملابسها أمامه.

ويتحسس جسمها. ويولدها. ولا يتهمه أحد بسوء الادب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق. وفي المرة الثانية له هذا الحق!

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان. كان من الضروري أن تخفى المرأة معالم جسمها. وقد دفنت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس ألوف السنين. ولكن عندما أصبح «العمل» ضرورة حيوية.. خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر إليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس!

ولذلك نحن نطلب إلى الطفلة الصغيرة إذا جلست أن تضم ساقها. وألا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك.. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس.. وكذلك المرأة عندما تضحك فإنها تحاول ألا يكون صوتها عاليا. وأن تخفى ضحكتها وراء يدها.. أو تنحني لتخفى ضحكتها أيضا.

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة، ويجب ألا تكون عامة!

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن؟

إن ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه.. بل أن الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه. فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا. ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه. وهذه الاستدارة والتضخم والبرز لها دلالة جنسية. فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسي.

وكذلك أرداف المرأة. فهي حريصة أيضا على إبراز الردفين وتكبيرهما.. ولذلك تستخدم الكورسيه.. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية

المصنوعة من القطن. وكما أن المرأة تحقق صدرها بالشمع. فانها تحقق أردافها أيضا.

فكأن المرأة لا تخفى جسمها. وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر.. فلماذا؟
نعود إلى جبلاية القروء: ففي عالم القروء نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة إلى الاستسلام للذكر القوي أو الانثى القوية وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى. ويعتليه الحيوان الأقوى. والخوف في جبلاية القروء سببه الزحام على القوة. وعلى السلطة. وعلى الطعام وعلى الاناث. ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه. وليس لدى القروء إلا جسمها. فتضعه أمام الذكر الأقوى!

وفي عالم الانسان أيضا. فالمرأة عندما تخرج إلى الشارع.. تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل. وفي نفس الوقت تذويب رغباته العدائية أو العدوانية.. إلى مجرد رغبة.. إلى إعجاب إلى اشتها.. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل. وتنجو أيضا من الاعتداء عليها.. ولولا خروج النساء إلى الشارع لا نهدمت الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين.. فكأن المرأة عندما تخرج إلى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول: من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا!

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج إلى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل. أى رجل.. فهي لا تستطيع أن تسد عيون الناس. ولا أن تسد أفواههم. ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم..

وإذا كانت العين بصيرة، فمن المؤكد أن الأيدي ستكون قصيرة – وهذا هو المطلوب!

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود، ولماذا هذه الاثارة في نفس الوقت، لماذا نفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة في نفس الوقت؟

لأن الرجل حيوان «بريالة».. فلماذا سال لعبه، أصبح حيوانا ذلولا ذليلا.. فكأن المرأة هي وحدها القادرة على تحويل النمر إلى قط وتحويل الذئب إلى كلب.. إلى قرد عريان.. فكأن المرأة هي وحدها التي تقوم بترويض الرجل الشرس في الشارع وفي البيت.. وهي وحدها القادرة على أن تحمي الحدود التي وضعها الرجل.. وعلى إزالة الحدود وإزالة الرجل أيضا!

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا: اعتاد أن ينظر.. أن «يبص» وأن يجد متعة في النظر والبصيرة.. واعتادت المرأة أن تكون منظورة.. ملفتة.. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع.

ولذلك نجد متعة أيضا في مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون.. إنهم يقومون بكل شيء بالنيابة عنا.. إننا نشاركهم فقط بعض اللحظات.. بل إننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطة في حالة عناق حار. ولا أحد يسأل نفسه، طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا أخذنا ايه؟..

لا شيء طبعاً.. ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطة وننسى أن الذي أمامنا هو تمثيل في تمثيل.. ولكن النظر متعة.. ولذلك عندما

يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب.. وتتعالى أهات الحرمان..
أهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة!

وفي الصحف والمجلات صور عارية.. وفي الروايات قصص عارية..
وصفحات غرامية من نار.. كل هذا نبحت عنه.. لأنه لذة. ومتعة. ومشاركة
بالعين فقط..!

وفي هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل إنسان أسرة
أيضا!

وفي البلاد التي يسمحون فيها بالدعارة.. نجد أن هذه الدعارة تحمى
الأسرة أيضا. فالرجل يذهب إلى إحدى الغانيات بلا حجب ولا مقدمات
فتمتد يده دون أن يراها.. أى يكون طويل اليد قصير النظر.. ولذلك
لا يفكر في أن يتزوج غانية.. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية..
ومن أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين!

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والاخلاقى – هى أحد السموم وحاولوا
وضع الأطفال في مكان عام دون حاجة إلى أم أو أب.. يستخدمونها لتغذية
التربة!؟

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية.. أو التخفيف منها
تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية. فقد حاول المفكرون أن يبحثوا
عن وسائل للحمل بدون أب معروف.. وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام
دون حاجة إلى أم أو أب.. كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ
الانسان عنها ولكن لم يتحمس لها. فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا..
يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص. وأن تكون له خصوصيات..

وأن تكون هناك، حدود عليه وحدود له.. وأن يكون له أطفال.. وأن يتولى
هو تربية أطفاله وهذه هي إحدى مشكلات الأسرة وأحد أعباء الزوجين..
والمجتمع والدولة.. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية.. فلا شكوى للقرود
منها.. وإنما هي مشكلة إنسانية جديدة ومتطورة كما سنرى!

من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس! (٢)

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه. يمسك بشعرها وجلدها. ويتعلق بها. كأنه تدرب على هذه العملية في بطن أمه ومنذ وقت طويل.. ولا يستطيع الطفل الانساني أن يفعل ذلك إلا بعد وقت طويل..

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه إلى تربية أو تدريب.. ثم أنه ليس عبثا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها.. وينفخ صدرها.. ويعتمد عليها.. أما الطفل الانساني فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها. ولا بد أن يبكي الطفل أيضا. ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكي الطفل. فإذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهانى من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها.

وينزل طفل القرد ومعه «خلاصه» هذا الخلاص تقوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه. وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم الطفل ثم يغسل جسمه تماما.. أما الطفل الانساني فإنه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء.. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود..

ولا بد أن قطع الخلاص على طريقة القروود كان أسلوب أجدادنا من ألوف السنين. فيما عدا أنهم لا يأكلون الخلاص. ولا بد أن حاجة الأم إلى مساعدة الآخرين في هذا الموقف ترجع إلى مئات الألوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود إليها بالطعام. فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق من الام الولادة..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانساني يبدأ لبن الأم في السيولة النشطة. فإذا أعطت الأم ثديها لابنها ظل يرضع حوالى العشرين شهرا.. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط.

وعندما تتوقف الأم عن إرضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد.. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا.

والرضاعة عند القروود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان – هذا القرد العريان – مشكلة كبرى. فالطفل الانساني غير قادر على أن يطعم نفسه، وعلى الأم أن تساعدته فهي تحمله على صدرها. وهي تضع ثديها في فمه. وهذه مشكلة. فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية. وليس من السهل إدخالها في فم الرضيع. ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه. ثم أنه يجب أن تكون الرضاعة سهلة في الايام الخمسة الاولى، وإذا فشلت الأم في ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها. وهي لا تدري. ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا. كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها. فلا يعرف

كيف يتنفس. ففمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها..
ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك. وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى أن صدر
الأم – نهديها – ليس جهازا للأمومة. وإنما هو علامة من علامات الأنوثة..
والجنس. فهذه الاستدارة المرنة. وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة
لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل. ويكفى أن ننظر إلى زجاجات اللبن
التي يرضع منها الطفل. فحلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على
الطفل أن يرضع منها. ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم.. وتشبه هذه
الزجاجاة النموذجية ثدى القردة فثدى القردة مترهل يسهل على الطفل أن
يمسكه.. كما أن حلمة الثدى طويلة ممدودة تدخل بين شفثيه بسهولة
تامة.. بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة في وضع الحلمة في فمه..
ولا يقوى على إمساك الثدى بسهولة القروء.. فكأن ثدى المرأة خلق
للرجال وليس للطفل!..

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج إلى تفسير جديد.. فقد دلت الأبحاث على
أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الذراع
اليسرى وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من
اعتمادنا على الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى
لا تستخدمها عادة.

ولكن لوحظ أن ٧٨٪ من الأمهات اللائى يستخدمن الذراع اليسرى
يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا!!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم. وأن
الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم.. وعندما يولد الطفل
عاجزا ضائعا في هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده إلى جنبها إلى حضنها

كانها تعيده إلى أحشائها في ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه إلى دقات قلبها من جديد.. ودقات قلب الأم هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام. والمرأة تفعل ذلك بالفريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين..

وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا في غرفة واحدة في الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب - أى ٧٢ دقة في الدقيقة - ف لوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة. ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا. كما أن وزنهم قد زاد.. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفهم.. فهؤلاء الأطفال يبردون طاقتهم في البكاء.

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : أطفال في غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة في الدقيقة.. وأطفال في غرفة بها جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة.. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى.. ف لوحظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع إلى الهدوء وإلى النوم. ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدر القلب وليس الرأس. نشير إلى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة.. فنحن نشير إلى الأمن والأمان إلى جوار الأم.

ولا بد أن تكون «مرجحة» الطفل.. وهددته حتى ينام.. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم.. ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام.. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه يعيده إلى هدوئه عندما كان في بطن أمه.. وهذا ما نفعله نحن الكبار..

فلا يكاد الانسان يجلس إلى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به.. أو عندما نهز أرجلنا.. كل هذه محاولات لأن نهدي أنفسنا.. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم.

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التي يستريح إليها الشبان هي موسيقى الدقات العالية.. دقات الطبول.. دقات القلوب المصنوعة من الجلد.. هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر.. وقد اختار الشبان في العالم اسما لهذه الموسيقى هو: موسيقى الخفقان.. موسيقى دقات القلب.. ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون.. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقي.. ثم يصحون بعد ذلك أن استراحت أجسامهم وأعصابهم أيضا.. إن هذه الموسيقى قد أعادتهم إلى طفولتهم.. إلى قلب الأم.. وإلى حنان النغم.. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلب الأمهات!

وبعد ذلك يتولى نمو الطفل: بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه إذا نام على الأرض. وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده إلى الأشياء. وبعد أربعة يستطيع أن يجلس في حجر أمه. وفي الخامس يمكن وضعه في مقعد. وفي السادس يمكن أن يجلس وحده وفي السابع يعتمد على أمه في الوقوف. وفي الثامن يعتمد على أثاث الغرفة في الوقوف. وفي التاسع يزحف. وفي العاشر تساعد على المشي.. وفي الحادي عشر يعتمد على أثاث الغرفة في الوقوف.. وفي الثاني عشر يستطيع أن يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة. وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى.

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة! وفي هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات. ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفي السنة الثانية يعرف ٢٠٠ كلمة وفي الثالثة ٥٠٠ كلمة وفي الرابعة ١٦٠٠ كلمة. وفي الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى. وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام.

فمثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش في نفس بيئة طفل إنسانى. وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا.. وماما.. كوب.. وان كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات، فإنه عاجز تماما عن تقليد الأصوات. على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الانسان.. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى.

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد. وهناك طيور أقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات.

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده.. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج في جماعات الصيد. وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصيادين.. فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان.

والطفل الانسانى ككل أطفال الحيوانات الثديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم. وبعض الطيور لها صرخات أيضا. والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو إذا ظهر أمامه

أو حوله شيء غير مألوف أو إذا سحبنا من تحته شيئاً يستند عليه.. فإنه يصرخ.

فهو يصرخ إذن بسبب: التعب أو الخوف. وإذا صرخ الطفل الانساني يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه. وفي هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذي ينام عليه.. وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار في الرأس ودموع في العين، وفتح للفم وسحب للشففتين إلى الخلف وتنفس مرتفع. وعندما يكبر الطفل فإنه عندما يصرخ يتجه إلى أمه ويتعلق بها. وكل هذه معلومات معروفة. ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا.. مشكلة الابتسام والضحك.. فالابتسام له علاقة بالصراخ. فالصراخ نداء إلى شخص بعيد.

والابتسام حديث مع شخص قريب. وملامح الوجه عند الصراخ هي نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك: صراخ وفتح للفم وسحب للشففتين إلى الخلف وتقلص عضلى واحمرار في الوجه..

البكاء يتحول إلى ضحك. فالطفل الضاحك هو الذي يعرف أباه، والطفل العاقل هو الذي يعرف أمه. وعندما يعرف الطفل أمه فإنه يخاف من الآخرين.

والضحك معناه: أن الخطر ليس حقيقيا. وإذا عرف الطفل الضحك، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه بدون أن يصرخ.

وهناك اناس كثيرون إذا ضحكوا لا تعرف أن كانوا يضحكون أو ييكون.. فملامح الوجه واحدة. والصوت نفسه واحد.. وإذا كنا نقول عادة: أن فلانا ضحك حتى بكت عيناه، فيمكن أن يقال عن الطفل: أنه بكى حتى

ضحك.. فالطفل يبكي حتى يجيء أحد.. فإذا جاء توقف عن البكاء.. فإذا عرف هذا الذي جاء فإنه يبتسم.. ثم يضحك.. وكثيرا مايتوقف الطفل عن البكاء فجأة ويضحك.. نفس الملامح مع خلاف بسيط في لمعان العينين.. وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فإنه يصبح لعبة الأبوين والأقارب.. ويدخل الطفل مرحلة من حياته.. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير..

والشمانزى يبتسم ويضحك ويلعب مع صغاره.. والشمانزى إذا ضحك فإنه يمد شفثيه إلى الأمام.. وهى قريبة من الضحك الانسانى وعندما يخاف الشمانزى فإنه يسحب شفثيه إلى الخلف ويكشف عن أسنانه.. فالحيوانات تضحك وتلعب.. والانسان أبرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب.. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بأنواعه المختلفة.. اللعب جسميا وعقليا وفنيا.

وإذا نحن نظرنا إلى الشبان عندما يستمعون إلى مطربهم المحبوب.. أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم.. فنجد أن هؤلاء الشبان يصرخون ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر.. إنهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء.. ولكن الانفعال إذا ما كان بالغ الشدة فإنه يتحول إلى شعور بالألم.. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد.. وإنما صرخات بقصد تنبيه الآخرين إلى أن هذا هو شعورهم وإحساسهم.. وإنهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم..

ولو أتينا بشاب أو شابة وجلسناها مع المطرب الذى هو فتى أحلامها فإنها لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها.. فالصرخة ليس لها معنى هنا.. لأن الصرخة نداء إلى الآخرين.. لأن الصرخة .. لغة .. عبارة.. كلام لا بد أن يسمعه إنسان آخر.. أو آخرون!.

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة. وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه.. والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل. والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا..

والأم التي تبتسم لطفلها فإنها تهدئه. ولكن إذا فوجئ الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة، فإنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذي تقصده أمه.

وإذا الأم افتعلت ضحكة أو ابتسامة، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا، ومن المستحيل خداع طفل صغير. وهذه حقيقة تعرفها الأمهات. وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة. وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم فإذا تغيرت لأي سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة!

والابتسام تفاهم متبادل.

ومعناه، لا خوف. وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة. ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة. ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام؟

سبب ذلك أن جلدنا ناعم

عريان من الشعر. فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه. ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه. وعندما يتركها لأول مرة، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها. فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول إلى منطقة الأمان. حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود إلى صدرها يتعلق به.. والطفل الانساني عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شيء. وليس لديه شيء يمسكه أو يتعلق به. ولذلك لا بد أن يعتمد

على الأم نفسها. وعلى اقترابها منه ومعاملتها له.. ويجب أن يصرخ حتى تجيء. والشمبانزى لا يحتاج إلى هذه الصرخات، لأن أمه أمامه موجودة. أو لأنه يتعلق بها. ولذلك فالإنسان الصغير محتاج إلى علامة إلى إشارة تدل على أنه في حاجة إلى معونة ومحتاج إلى إشارة أخرى فيقول إنه قد تحققت له المعونة وأنه استراح إلى ذلك.. والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه.. فهو إذا ابتسم كأنه قال لها: شكرا.. وإذا ابتسمت هي فكأنها قالت له عفوا..

وابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة.. إنها ابتسامة عامة.. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز: على عيني الأم.. ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينا.. لابتسم لهما أيضا.. وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم.. وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه.. وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته.. أنه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى.

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع. هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر.

وبعد ذلك تتركز على العدو.. أو الشخص المخيف.. وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه ويقدراته.

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف.. ومهمة الأم هنا تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه. والطفل الإنساني يتعلم بالتقليد والتلقين.. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى.

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات لبذور غرست في الطفولة..

ولكننا ننسى ذلك.. كل ما فعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا، وليس في الحقيقة إلا ما تسرب في نفسه منذ الطفولة.. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا.. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التي ترسبت في طفولة المجتمع الانساني. فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم. فإن القديم يقاوم ويتحمس له الناس. لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولتهم أو يجردهم من تاريخهم.. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا..

وهناك مجتمعات تجردت من كل القديم، وتعلقت بالجديد.. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية. وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها.. ولكن المجتمعات السعيدة - كالانسان السعيد أيضا - هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها، وتحفظ من القديم بما ينفعها أيضا.. أي المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضي الكريم والمستقبل الباهر.. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة.. كيف تغرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس، وتبعده عن الذي يضر غيره.

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك إلى ضرره.. يريد أن يعرف.. أن يمد عينيه ويده.. وخياله.. ويلعب أول الأمر. ثم يحول اللعب إلى فن: رسم. نحت.. تمثيل.. موسيقى..!

القرد والسلسلة

والقرديات !

(٣)

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تشمشم في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للأكل . والقرد هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الانسان فهو أكثرها شراهة ويمكن أن يقال أن الانسان حيوان «دباغ» أى يأكل أى شىء وفى أى وقت..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفى نفس الوقت خانقا أيضا.. فالحيوان الذى يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة.. وإذا اختفى هذا النمل لأى سبب مات هذا الحيوان..

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية. فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما. لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء.. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون في

حالة يقظة مستمرة.. فالانسان يجب أن يبحث عن طعامه في كل مكان، وأن يكون البحث واعيا وإلا مات.

والقروود عندها حب استطلاع شديد. تماما كالانسان، ولكن عندما تكبر القروود، فإن هذا الاستطلاع يتوقف، ولا يتطور على عكس الانسان الذى يقوده السؤال إلى جوانب ثم إلى سؤال آخر وهكذا..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان: حب الجديد والخوف من الجديد.. فكل شىء جديد ربما كان خطرا.

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا: ولكن إذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة؟ هذه الرغبة في أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفاً شيئاً مألوفاً. وبذلك نكتسب تجربة جديدة، ونذكرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد..

فالطفل الانسانى يريد أن يعرف، يمد يده إلى كل شىء، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله، ويجرب، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئاً خطرا يجب أن يتدخل الوالدان.. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شىء بشراهة: إنهم يتصرفون كالوحوش.. ولكن الأصح أن يقال: أن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال - أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا: اللعب، فاللعب عند القرد يشبه اللعب عند الطفل الانسانى، فالصغار عموما يحبون الشىء

الجديد. يمسكونه، ويرمونّه ويكسرونه، ويخترعون أشكالاً جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على أن ينقلوا إلى آباءهم معنى الألعاب أو الحركات التي اكتشفوها. أما الطفل الانساني فيستطيع إلى حد ما، والفرق بين القرد الصغيرة والأطفال الصغار: أن القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم..

وإذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلمًا، فإنه يمسك القلم ويرسم به على الورق، وعندما ينظر إلى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به.. فهذه الخطوط شيء جديد، ويظل يرسم بالقلم على الورق، وأحياناً يرسم دوائر ناقصة.. وأحياناً خطوطاً متقطعة.. أما الطفل الانساني فيتهدى إلى الدوائر والمربعات.

والأطفال والقرد يحبون الخبط والرقع.. أى يحبون أن يلعبوا بالأشياء التي لها صوت، وكلما كان الصوت مدوياً كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر.. يحبون البمب.. والبالونات ومسدسات الفل..

والطفل الانساني عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة، ويرسم الوجه الانساني وذلك بأن يجعل له عينين وفماً وأذنين.. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضاً، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذي يمارسه إلى والديه فيقول لهما ما الذي صنعه أو اهتدى إليه، وإنما هو يرسم فقط... إنه كالذي وجد قرشاً على الأرض. وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف أن هذا القرش له معنى آخر.. أو يستطيع أن يشتري به أى شيء.. أو بعبارة أخرى: أن القرش لعبة، أى أنه يساوي ثمنه لعباً، أى أن

اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا. فهو في مرحلة اللعب لمجرد اللعب. وفي عالم الأصوات: لا نجد أن القرد الصغير أو الكبير تجارب في عالم الصوت، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئا جديدا، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى: أى بقلب الحروف ولخبطتها.. إنها مهارة جديدة اكتشفوها في أنفسهم.. وإن كانت القروء لها أصوات معروفة ثابتة.

وإن كانت لها أيضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح، ولكنها دقات معروفة محدودة، كما أن القروء في بعض الأحيان تنفخ في الأجسام المفرغة الجوف.. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عودا أو قيثارا، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى. ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة.. أو حركاتها مدروسة كالرقص عند الانسان. أو كالألعاب الرياضية.. فالرياضة هي حركات ذات إيقاع، هذا الإيقاع متنوع من لعبة إلى لعبة.

حتى الكتابة هي أيضا نوع من الرسم، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا.

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا إلى غيرنا، ونقلها أفكارنا من جيل إلى جيل، وأصبح لنا تاريخ مشترك. ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان.

ولكن الجديد في عالم الانسان.

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به، فإذا أصبح مألوفاً اتجه إلى غيره، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية.. وهو الفارق بين الانسان والقرد، أو بين القرد العريان والقرد..

وإذا رجعنا إلى لعب الأطفال لوجدناه موجهاً إلى الآباء فى أول الأمر، فالأب يلاعب طفله، والطفل يلاعب والديه، وعندما يكبر الطفل، فإن اللعب يتجه إلى غيره من الأطفال.. أى يكون للطفل نشاط اجتماعى، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معاً، وهذه مرحلة دقيقة جداً فى حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير فى حياته، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر.. والطفل الذى يفشل فى أن يكون له أصدقاء وهو صغير، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر.. وإذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالكناى صعبة فى الطفولة، فإن علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأعقد.

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال، أى الذى ليست له علاقة اجتماعية، سيجد نفسه فى وضع سيئ وسوف يكون علاقات اجتماعية معقدة ومرهقة أيضاً..

ومن التجارب التى أجريت على القردة مثلاً: أننا إذا عرفنا قرداً من القردة الأخرى.. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقردة فإنه يظل عاجزاً عن المشاركة معها فى اللعب أو اللهو حتى فى الجنس.. بل أنه يفقد رغبته الجنسية تماماً، وقد لاحظ العلماء أن القردة التى تنعزل طويلاً إذا وضعت

في مجتمع القرود فإنها تقف إلى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها.. وأحيانا تخفى وجهها بيدها.. كأنها في حالة خوف أو خجل أو عجز عن الاشتراك في أي عمل جماعي..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية، ولننظر ماذا يحدث في عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذي لا يضره، وهذه هي مرحلة الأمان عن طريق الحنان، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها، يشترك مع القرود الأخرى في اللعب فإذا عاد إليها فإنها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : إنك كبرت على حضن الأم فابحث لك عن حضن آخر، وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها، ولا تنطق لحمايته إلا في حالة الخطر الشديد أما إذا لم يكن هناك خطر، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فإنها تطرده وتضربه، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه، وأن يدافع هو عن نفسه..

وكذلك الطفل الانساني تماما، إذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية..

والطفل الانساني الذي يفقد الحنان وهو صغير، ثم أصبحت له علاقات اجتماعية بعد ذلك، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية..

وإذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة، وإنما سيظل كالطفل متعلقا بأمه.

ولا يريد أحداً آخر غير الأم فإذا فقد الأم فإنه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم. وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس، ولأنه ليس أما لأحد..

والإنسان الذى يخاف من المجتمع يكون إنساناً انسحابياً أو هروبياً، وهذا الإنسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئاً جديداً، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف.

فالذى يعرفه أحسن، وهو لذلك ليس اجتماعياً، ولا يحب أن يكون، وقد يكون نشاط جسمى، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكرراً، أى لا يأتى بحركات جديدة، وإنما هو أسير العادة التى استراح إليها.

بل أننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة.. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم، وتكون لكل واحد منهم «لازمة».. لماذا؟ لأن هؤلاء الهروبين قد وجدوا البيئة مخيفة، معادية، لا ترحب بهم، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوفاً، مألوفاً أكثر من اللازم. أى جعلوا أنفسهم مفهومين عاديين – لا يخاف منهم أحد أولاً يلتفت إليهم.. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك. فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد على كل شىء هو إنسان (عادى) – أى يجعل العادة تتحكم فيه. حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية، لا يخيف أحداً، وهناك مثل شعبى يقول: أفتى: معرفتى، وراحتى: ما أعرفش – ومعناه أنه لا شىء يخيف أكثر من المعرفة، ولا شىء يريح أكثر من الجهل!...

ولابد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتى بالأفعال الرتيبة.. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريخ الطفل. وكل عمل

يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا، أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر.

وفي استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية أنه يدق بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه.. أو يتحرك في الغرفة.. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم في فمه.. أو يلعب بشاربه.. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب..

وهذه الحركات.. أو هذه (اللازمة) لها فائدة: فهي تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذي ننتظره في خوف.

وإذا نحن أسرفنا في استخدام هذه (اللازمة) فإنها تصبح فكرة متسلطة علينا.. أى أننا نضع القلم في أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان.. أو نروح ونجىء في الغرفة من غير مناسبة من غير أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف عنها!..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل.. وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة في أقفاصها الحديدية.. وهى منعزلة عن العالم الواسع. وعن العلاقات الجماعية.. أى عن الاتصال بالحيوانات الأخرى، فهى في حالة انسحاب وانزواء، كأنها هربت من الحيوانات الأخرى، أو هربت منها الحيوانات الأخرى.

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات.. أن هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا وننسحب وراءها، وننكمش وننطوى ونتقوقع ونجتري تجاربنا ولا نضيف إلى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا، وإنما نفرز من أنفسنا نسيج

دودة القز ونتواري وراءها.. أو نندفن، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات: أنها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا.. والانسان يفعل ذلك أيضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس، ونجد القرد تلعب فى أذنيها بأعواد الشجر، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة، وبعض الحيوانات تشد شعرها، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها.

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة. يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد أن ينعزل.. فإن هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا الشيء الذى ألقيناه فى قفصه، ومعنى ذلك أنه لا شيء يثيره أى لا شيء جديد يثيره.. وإذا كان الحيوان لا يلتفت إلى الشيء الجديد، فلن يعرف شيئا.. وإذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان.

وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها، إنها أيضا مثل حدائق الحيوانات: كل إنسان له قفص، هذا القفص من أعواد حديدية، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق إذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان: أحدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد.. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه إلى الجديد، بخوف.. أو على الاصح

ولكن هناك سلسلة أخرى تشد الفردانى إلى السرد . مهد . الرجل . . .
عالم محدود، عالم القروء، ويمشى فى أماكن محدودة. ويعود إلى بيته
ويجلس إلى جوار الحائط ولا ينام إلا والقروء إلى جواره وإلا على صوته،
ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع.. فأى
الاثنين هو القرد؟ أيهما هو المربوط بالآخر.. من المؤكد أن القرد هو
المربوط فى الرجل، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من
القرد... وبالقرد..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى أقفاص، وليس الإنسان هو
الذى يذهب إلى الحديقة ليتفرج على القروء.. إنها أيضا تتفرج عليه وعلى
قيوده التى لا يدرى بها!..

فكما أن هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه «انساناتى»!
وكلنا كذلك!!

لولا سلامك !

سبق كلامك !

(٤)

لسببين يعتدى حيوان على آخر: دفاعا عن الأرض التى يعيش عليها،
أو حرصا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة
أو عن اللقمة.

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا تهمها السلطة.. وحيوانات تدافع
عن مركزها ولا تهمها الأرض. أما الانسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض
والسلطة.

وفى جبلاية القروء نجد أن القرد الأقوى هو الذى يسيطر. أما قوته فهى
فى عضلاته أو فى حيويته. فإذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يعتلى
كل الاناث وكل الذكور أيضا. ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه
لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطور الانسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة، تطور
أيضا فى ممتلكاته. فكل واحد له شئ يملكه : أرض أو بيت وقد وصل
الانسان إلى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيدا

للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم وأولادهم . ولذلك كان لابد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . وإذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى، فكأنه يحمى الأقوياء – وهم أقلية – من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة..

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه إلى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الأدرنالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . يصعب على الحيوان أن يتبول . ثم أن الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع إلى الأماكن التي تحتاج إليه . وإلى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أي جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد

هذا الجسم الملهب. ولذلك لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التي يصل إليها!

وكما ارتفعت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد. فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحني. وهذه الحركات تبين كيف استعداد الحيوان للمعركة، وهي في نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان.. وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد!

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال، استعاد جسمه نشاط العادي.. فريقه يجرى وبوله أيضا!

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات: فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التي يتبول فيها خاصة به. فهو يترك أثره فيها. والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور، فهذا هو المعنى. وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بأسراف في المدن، فلأن في المدن عددا كبيرا من الكلاب. وهذا يثيرها ويدفعها إلى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى: فله ذيل عريض. وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن. وبذلك يحدد الأرض التي تخصه. وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة.. هذه الروائح هي انذار لكل الحيوانات الأخرى: هذه أرض تخص حيوانا آخر.. فاحترس!

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات: النباح والعواء والفحيح والزئير.. وأحيانا الانتفاخ: عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا!

وهنا إشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر أن هناك خطرا.

وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهي أن عضلات الحيوانات تكون في غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص.

رقصة القتال. أو رقصة الحرب.

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر. وحول نفسه. وهذا الدوران معناه أن هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع عن ذلك.. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الأرض بقدميه!

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة. ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قد وضع « غله في شيء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش في جسمه.. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشا وهميا.. وبعض الحيوانات تنام فجأة.. وتتناءب وتتمدد..

بعض العلماء يقول : إن الحيوان إذا أكل فهو جائع حتما. وإذا هرش فإن حشرة تلسعه. ومن الطبيعي أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة في حالة التعب أو العدوان!

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست إلا محاولة لتخفيف درجة التوتر. أو ليست إلا نوعا من الانسحاب. وقد ينتهي الموقف هكذا.

وينصرف كل حيوان إلى سبيله.. ولكن إذا فشلت هذه الحركات في تهدئة الحيوانات، كأن تكون قطعانا كبيرة. وكأن يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة. استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها. وذيلها يكون كالكرباج.

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر. ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته. فالأسد إذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله.. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان.. فإذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر. وتركه. أما المنهزم فعليه أن يؤكد أنه انهزم! وعليه أن يهرب إذا استطاع.

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات: من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغمض عينيه ولا يزأر.. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر.. كأن يقدم له إحدى يديه.. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه.. أو يضربها.. أو يكتفى بهذا الاستسلام.

وبين القردة نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول.. وخصوصا الاناث، والانات تعطى نفسها للذكر. وفي هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف. والذكور الضعاف تفعل ذلك أيضا!

وهذا هو قانون الغابة: الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله. وإذا استسلم له تركه. وانتهى الخلاف..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان. مع فارق أن كل هذه الاضطرابات تبدو على وجهه. وهذه مزايا القرد العريان – أى.. الانسان.

فوجهه يصفر ويحمر.. من الغضب ومن الخجل. أما شعر الانسان فلا يقف.. رغم اننا نستخدم هذا التعبير!

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد. أو تهديد من بعيد. وأحيانا نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رءوسنا. ولكن مانزال على مسافة من الخصم.

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب إلى الشخص الذي يخلصنا. ولذلك نقول: ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه.. والسيدة التي تكسر الأطباق في حالة غضب مع زوجها، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وإنما هي تقصد أن تحطم رأس زوجها! وهذا بالضبط ما تفعله القروء فهي في حالة الغضب تحطم الاغصان والثمار وجدران القفص!.

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام. فالذى كان في نيته أن يضرب بيده يجدها مفرودة. وأصابعه متراخية. وهي عملية تحويل الغضب إلى تهدئة.. وهدوء وكذلك «الطبطة» على الكتف تهدئة أيضا. وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك يخفض «عرفه» والأسد عندما يخفض شعر رأسه.. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا، وأقل صلابة.. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل. وعند العدوان نبثق في الخصم. فإذا أغمضنا العين أو نظرنا إلى الأرض كنا بذلك نهدي أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد في حاجة إلى الحذر والترقب. ونحن في حديثنا العادي لا ننظر إلى الذين نتحدث إليهم طوال الوقت، وإنما فقط في نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام.

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متريصين أو عدوانيين. ولذلك فالذى ينظر إلينا من وراء منظار يجعلنا نشعر

بأنه ليس وديا.. فالنظارة عبارة عن عيينين مفتوحتين بلا اجفان ولا رموش!

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات.. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات. فإذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها!.

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور. ونحن نستخدم الأقنعة ذات العيون. وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة. وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن.

بل إن الشركات لم تكتف بهذه «العيون المخيفة» وإنما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا؟

ولذلك فالسلام باليد هو إعلان وقف إطلاق النار من العيينين وتجسء القبلات بعد السلام.. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء، أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر: فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت إلى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين – أى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية! ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا «طفوليا».. فيتحول الرجل إلى طفل.. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة. أى أنه يحول نزعاته العدوانية إلى نزاعات استسلامية أو سلامية.. ويتحول الرجل والمرأة إلى أسلوب الحمام. فيشرب الواحد من كوب الآخر.. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر: وهذا نوع من التقبيل!.

والمثل الذى يقول: لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح.

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر: نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه ».. وهذه « التفلية » تهدى أعصابه. وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء.. وقبول لهذا الاقتراب. فلا خوف ولا عدوان !.

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان. مثلا نشعل سيجارة. أو نمسح النظارة. أو نلعب فى شواربنا أو ننظر إلى الساعة أو نحرك عقاربها. أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة. أو نطلب أى رقم فى التليفون. أو نقضم أظافرنا بأسناننا أو نطقق أصابعنا..

ونحن قادرون على الكذب بلامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم. وهناك اناس كذابون محترفون: الممثلون. فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية.

والانسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة. وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته. وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى.. ملايين السيارات الأخرى التى تشبهها. وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب أنه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى.. وإذا سألته لماذا؟ قال لك: انها هكذا ألطف وأجمل.

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا. وإنما الصحيح أنه يريد أن يجعلها مختلفة. يريد أن يجعلها خاصة به هو.. ومن الضروري أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور. نفس الموقف وأن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما – كلانا نحن والكلاب – يريد أن يؤكد أنه هنا.. وأن هذا المكان خاص به وحده. وأنه مضطر أن يفعل ذلك في مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !.

وهنا تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور.. مثلا عندما نكسر إشارات المرور ويدركنا عسكري المرور فما الذي نفعله؟ الأفضل أن نتحدث إلى عسكري المرور وأنت في سيارتك. أى في مكانك. في أرضك. في بيتك. هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة. وفي هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا. سوف يجيء العسكري إليك. أى إلى حدود مملكتك.. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدواني إلى اقتراب ودي. وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا. ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك. ولكن إذا نزلت من سيارتك، أى تركت أرضك. وذهبت إلى أرضه. فالموقف في يده. وهو سيده.. والنتيجة ضدك عادة!

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا.. ومن أعدائنا فكان لابد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال، فأصبح في الامكان قتله عن بعد.. والآن تحولت السهام إلى صواريخ وقنابل وفي هذه الحالة نحن لا نصيب العدو وإنما نقتله.. أما الحيوانات فهي تهزم عدوها فقط.

الحب قبل الحرية..
والحنان قبل الحب!

.. فى ملامسة الناس

(١)

سئل الحكيم الصينى بوذا : قل لنا يا أستاذ ما هو أكثر الأشياء
جاذبية ؟

– الشر !

– وما أبقاها ؟

– الخير !

– وما أكثر ايلاما للنفس ؟

– تأنيب الضمير !

– وما هى أعظم سعادة ؟

– القناعة !

– وما الذى يفسد الصداقة ؟

– القرب الشديد والبعد الشديد !

– فما الذى يبقى على الصداقة والمودة والمحبة وكل ما يربط الناس
بالناس؟

– الاعتدال فى ملامسة الناس!

أروع ما قال الحكيم بوذا. فالذى بين الناس هو أنواع مختلفة من
اللمس باليد وبالأصابع وبالعين وبالفم.. فالمسافات التى بين الناس تتقارب
وتتباعد. وبمقدار الصداقة والعداوة والمحبة والكراهية والأبوة والأخوة
والأمومة والزمانة والزواج والطلاق.. بالمداعبة بالضرب بالقتل بالقراءة
بالكتابة.. وكلها أنواع من اللمس من قرب أو عن بعد..

فاللمس هو أبو الحواس أو أبو الاحساسات كلها..

ويبدو أن العلم الحديث أصبح يباعد بين الناس ويجعل الاتصال بهم
بصورة أخرى.. فالناس يتقاربون فى السكن. ولكنهم يتباعدون فى المشاعر.
ويتجاورون فى العمل والأمل، ويتباعدون فى كل شىء آخر. ولم تعد هناك
العائلة المتشابكة. لم يعد هناك «بيت العائلة». التليفونات جمعت بين
الناس. والتلغرافات والسيارات والطائرات والمسارح والملاعب والشوارع.
ولكن الناس يتجاورون. ولكنهم لا يتقاربون. أو يتقاربون ولكنهم
لا يتلامسون أو يتلامسون ولكنهم لا يتعاطفون.

ونحن نستخدم فى لغتنا العادية كلمات تدل على اللمس بالجسم لأن
شيئاً غريباً يحدث عندما تلمسنى أو ألمسك. فنحن نقول: هزتنى التجربة.
أو شدنى المنظر. أو جرح شعورى. أو دوخنى الفيلم. وكلها تعبيرات تدل
على أن شيئاً معنوياً لمسنا بعنف كأنه شىء مادي.. فاللمس هو ينبوع
الحقيقى لكل المشاعر التى نحبها أو التى نكرهها، التى نحرص عليها أو
نحرص على التخلص منها.

ولنرجع إلى القاموس: «لمس الشيء معناه»: مسه أو اقترب منه ولمس المرأة أى عاشرها. والضوء يلمس العين: يخطفها. وهذه المرأة لا ترد يد لأمس: أى أنها امرأة سهلة. والمرأة اللميس: أى اللينة الناعمة. ويقال، مس الشيء: أى لمسّه. والقرآن الكريم يقول: (أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر). ويقول أيضا: (لا يمسه إلا المطهرون) ويقال: لمص العسل. أى تذوقه بأصبعه: ولمصه: أى راح يقلده ويسخر منه. ويقال: لمظ الماء: تذوقه بطرف لسانه. ويقال لمز أى ضرب. ولمز الشيب رأسه، أى ظهر فيه.

ويقال: قرب وأقرب والقريب والقربى. والقرآن يقول: (ولا تقربوهن حتى يطهرن). ويقول (ولا تقربا هذه الشجرة).

ويقال: وصل يصل: فى الحب والغرام.. والوصال والوصلة والتوصيلة.. إلخ.

وأصل هذه المعانى كلها أن أحدا يلمسك أو تلمسه بيدك: مصافحا أو مقاتلا، معانقا أو مطاردا. وعلى أساس شكل اللمس باليد تكون معانى هذه العلاقة أو الملامسة بينك وبين الذين حولك.

وفى عصرنا الحديث، وفى العصور التالية، سوف تتباعد المسافات بين الناس. وسوف يتباعد الأطفال عن الأمهات فى سن مبكرة. وقد دخلنا بالفعل فى العصر الذى لا ينام فيه الطفل على صدر الأم – الخادمة تكفى. والذى لا يرضع فيه ثدى الأم – الزجاجة تكفى. والذى لا تجد فيه الأم وقتا لكى تكون أما – مثلا: تهدد طفلها حتى يكف عن البكاء أو حتى ينام – إن عربات كهربية تهتز من تلقاء نفسها وتؤدى نفس العمل. ويجد الطفل كل ما يحتاج إليه – إلا شيئا واحدا هو المشاعر!

وأساس اللمس والوصل والقرب يبدأ في طفولتنا – وهذا هو المعنى الهام الخطير جدا الذى يجب أن ندير إليه رؤوسنا وتقع عليه عقولنا. لأن الذى يحدث في الطفولة يتكرر بعد ذلك بأشكال مختلفة. والصورة التى تنطبع على نفوسنا ونحن صغار لا تفارقنا حتى الموت – هذه حقيقة علمية. و«اللمس» يبدأ قبل أن نولد. ويبدأ ونحن في بطون أمهاتنا. وبطن الأم يحتوينا. ويحمينا. ولولا هذا الاتصال ما كانت حياة. فالجنين في بطن الأم يشعر بحركة رقيقة حوله. لا يديرها. فالأم في شهور الحمل الأخيرة حركاتها رقيقة. والجنين في بطن الأم محاط بمادة مخاطية عازلة. وبمرور الوقت يعتاد الجنين على أصوات وحركات منظمة حوله. هذه الحركات هي ارتفاع صدر الأم عند التنفس إحدى عشرة مرة في الدقيقة. ويعتاد على دقات قلب الأم ٧٢ مرة في الدقيقة. وسوف يعتاد الطفل فيما بعد على أن الحركات والدقات هي الحياة نفسها.

ولكن ما الذى يجده الطفل في بطن أمه؟ إنه يجد البطن كأنه حصن هادئ دافئ. ففي هذا الحضن يعرف الأمان والراحة والاستسلام.

ولكن بطن الأم أو رحم الأم تتحول بعد ذلك إلى عضلات قوية جدا – أقوى من عضلات أى رياضي في الدنيا وهذه حقيقة – لكي يدفع بالجنين إلى خارج البطن. وأخطر حدث في حياة أى جنين هو أن يولد. هو أن يطرد من الحضن الدافئ إلى الخارج. إلى عالم لا يديره. ولا يقوى على مواجهته وحده. إنه في حاجة إلى الأم. إلى بديل عن الرحم إلى حضن من نوع جديد. وسوف تكتب لهذا الطفل الحياة إذا أعطته الأم حضنا آخر: هدوءا ودفئا وأمانا وراحة.

وبعد عشرين أو ثلاثين ثانية من ولادة الطفل : فإنه يبكي . وبكاؤه هو الموسيقى الساحرة التي انتظرتها الأم . إنها صرخات كائن عاجز أعمى . أعطته أمه الحياة وسلبته الحنان والدفء فجأة ! ويبدو المولود كأنه قطعة من اللحم . وبعد لحظات يبدأ الاحتجاج برجليه ويديه ويصرخ بصورة غير منتظمة . ثم يرهقه الصراخ والبكاء وبعد ذلك يغيب في نوم عميق طويل !

فإذا صحا الطفل من نومه احتاج إلى عناية جديدة متجددة . إلى لمس مستمر . إلى أحضان إلى تعويض سخى عن الدفء الذى كان في بطن الأم . وهذه الأحضان معناها : أن تجعل الأم أكبر مساحة من جسمها قريبة من جسم الطفل دون أن تخنق أنفاسه أو تعوق حركته الصغيرة . والأم تعلمت بالغريزة ذلك . وهذا هو الفارق بين الأم والأب عندما يتناوبان حمل الطفل . الأب : يحمله ولكن الأم تحتضنه .. الأب يمسك الابن بعيدا عن جسمه ، والأم تلتصقه بجسمها .. فالأب يرفعه ولكن الأم تحتويه . المهم – دائما – أن تخلق الأم لطفلها رحما أو بطناً ، خارج الرحم وخارج البطن ..

وإذا لم تفلح الأم في تهدئة الطفل وهو يبكي ، فإنها تحمله وتتمشى به في الغرفة .. أو تهدده .. أو ترفعه إلى أعلى برفق .. أو تهمهم بالقرب منه كل هذه « اللمسات » أو « الملامسات » لها أثرها على المولود القلق . كأن الأم أعادت المولود إلى الحركات والأحداث التي اعتاد عليها . ولذلك تعلمت الأم بالغريزة أيضا إذا حملت طفلها إلى صدرها أن تجعل رأسه ناحية قلبها . فقد اعتاد على دقات القلب وهو في بطنها – وهذا هو الحضان الحقيقي للطفل !

كل هذه الصرخات وكل هذه المهدئات التي تستخدمها الأم ، سوف يكون لها أثر بعد ذلك عندما يكبر الطفل ويصبح رجلا عاشقا أو زوجا أو أباً ..

فأرجو ألا ننسى هذه المعانى. فنحن فى حاجة إلى تذكرها ومقارنتها فيما بعد !

وبعض الأمهات يتصورن أن الطفل إذا بكى فهو فى حاجة إلى طعام. فتطعم طفلها. ويظل الطفل يبكى. وبعض الأطباء ينصح الأمهات بأن يتركز الطفل يبكى حتى يتعب.. ويقولون أن البكاء يقوى الحبال الصوتية ويقوى صدره.. وأهم من ذلك أن الطفل يجب أن يتعلم أنه ليس بالبكاء يحصل على ما يريد. وهذا كلام له معنى. ولكن الطفل فى هذه المرحلة يحتاج إلى حب الأم أكثر من حاجته إلى حرته فى أن يطلب ويرفض ويهدد بالبكاء. إن الطفل محتاج إلى حضن الأم. أكثر من حاجته إلى الطعام. أما بعد ذلك بسنوات عندما يكون الطفل قد كبر فممن الواجب أن تعلمه الأم مبادئ السلوك وأن تلقنه أنه ليس بالتهديد أو البكاء يحصل على ما يريد.. أما فى الشهور الأولى للطفل فهو لا يعرف ولا يدرك – ولكن حاجته إلى حب الأم أهم من كل شىء آخر..

وبعبارة أدق: أن الحب أولا والحرية ثانيا.. أو بعبارة أفضل: الحب قبل الحرية والحنان قبل الحب..!

بل أننا لو نظرنا إلى القرود لوجدنا صغارها تتعلق بها فترة طويلة. فالقرود الصغير يظل ملتصقا بالأم ولا يتركها أينما ذهبت. وهذا ما لا يستطيعه الطفل الانسانى. أنه عاجز عن أن يفعل ذلك.. بل أنه يحدث فى كثير من الأحيان أن الطفل القرد وهو يولد نجد أن يديه قد أمسكتا بالأم فى نفس الوقت الذى ما يزال نصفه الخلفى فى داخل بطن الأم. ولكن الطفل الانسانى لا يستطيع ذلك إلا بعد شهور من ولادته..

هذه الشهور الأولى بعد الولادة يجب أن يعيش الطفل فيما يشبه بطن الأم. فهو ملفوف بقماش والقماش مشدود عليه. ويجب أن يكون مشدوداً حتى يحس الطفل بالحماية والأمان.. وبعد ذلك يجب أن تكون «اللفة» متراخية حتى لا تعوق نمو الطفل أو حركته.. إلى جانب ذلك نجد أن الأم قد بدأت تلامس طفلها بالتقبيل والتدليل والتنظيف والتدليك والدغدة.. ثم الاستحمام.. كما أنها تربت على ظهر الطفل برفق شديد.. أنها دنيا جديدة من اللمسان لا تنتهى والهمهمات عند أذنيه – وكل هذه الاحساسات الجديدة سوف تتكرر طول العمر. وسوف يطلبها الطفل. وإذا فقدها يوماً، راح يبحث عن بديل لها عند الأم وغيرها – وعند غيرها أكثر!

شئ جديد جداً يدخل دنيا الطفل: حلمة ثدى الأم.. لحم مستدير دافئ يدخل في فمه. وبالضغط عليه ينزل سائل أبيض حلو المذاق. سوف يعتاد عليه الطفل. ويطلبه. لأنه يملأ الطفل باحساسات لا نهاية لها. ومن هذه التجربة الجديدة تتولد منها عشرات المعانى والمواقف المعقدة المتداخلة بعد ذلك.

والعلماء ينظرون إلى ثدى الأم على أنه مصدر الرحمة والوحدانية في هذه الدنيا – والطفل الذى حرم ثدى الأم، فقد حرم الكثير.. والتاريخ يعرض لنا نماذج من وحوش البشرية لم يعرفوا إلا صدر الأم ولا أحضانها ولا حنانها ولا لبنها – وهذا المعنى يجب ألا يغيب عنا منذ الآن.

وفي هذه المرحلة ليس للطفل إلا أن يرضع وينام، ويصحو ليرضع وينام، والأم عليها أن تلاحقه باللمسات والاهتزازات والهمهمات حوله وفي أذنيه.. وبعد ذلك ينام..

وعندما يبكى الطفل فمعنى ذلك أنه يطلب إلى أمه أن تجيء إليه. وإذا ابتسم الطفل فمعنى ذلك أنه يطلب إليها أن تبقى إلى جواره.

كثير من الحيوانات لا تبكى ولا تبتسم. فالقرد مثلا لا تبكى على الأم لأنها ملتصقة بها دائما. ولا تبتسم لأنها ليست في حاجة إلى أن تطلب إلى الأم أن تبقى إلى جوارها. لأن القرد الصغير ملتصق بأمه طول الوقت. فهي موجودة. ولذلك لا يبكى على فراقها، ولا يفرح بمجيئها إليه فهي هناك دائما.

والابتسام هو أولى الحيل التي يلجأ إليها الطفل لكي تبقى أمه إلى جواره. سعيدة بأنه في حاجة إليها. وسعيدة أكثر لهذا التعبير الجديد.. الذي تطلب منه المزيد.. والطفل يعطيها ما تريد من الابتسام..

والطفل عادة يصرخ دون أن يبكى. وإذا بكى فبلا دموع. ويعد ذلك تجيء الدموع وتجيء الأم لتمسح الدموع، كما تمسح بقيّة الجسم. وفي عملية مسح الدموع على الخد تدليك ولمس ودغدغة ومداعبة ترضى الطفل. وبعد ذلك عندما يكبر فإنه يدمع دون أن يبكى!

وعندما يصبح الطفل في الشهر الثالث من العمر فإنه يتعلم أن يمد يديه.. وأن يربط بين الذي يراه وبين الذي يلمسه.. ويلمس الأم.. وفي الشهر الخامس يستطيع أن يمسك أى شىء بما في ذلك شعر الأم.

وبمرور الوقت يزداد تلامس الأم والطفل، بالرؤية وبالحركة والتعبير.

وعندما يكون الطفل في الثالثة من عمره يستطيع أن يكون على صلة بكل من حوله.. فهو قادر على الكلام. عنده ألفاظ وعبارات. وعنده رغبة في أن يعرف أكثر. ويحاول هو مع الجميع أن يتوافقوا. وأن يتفقوا ولا تزال

الأحضان والقبلات والمداعبات مستمرة.. وأن كانت بأشكال مختلفة.
وينشغل الطفل بالأشياء التي يلعب بها.. كلها ملونة ومن مواد ليخة مثل
لحم الأم.

وهو يحاول أن يجد البديل المستمر عن حضن الأم. وعن الأم نفسها..
ولكنه ما يزال في حاجة إلى الأم. صحيح أن الحضن قد اتسعت أطرافه
وأصبح أقل ليونة وأقل مرونة.. وأقل حرارة. وأقل أمانا.. ولكن لا بد أن
يكون هناك حضن بشكل ما.

وفي سن المراهقة، وهي مرحلة دقيقة حرجة. لا يزال اللمس والاتصال
والاقتراب موجودا بين المراهق وأمه. ولكن المسافة تباعدت. فهو دائما
موضع نظر أو تحت النظر أو تحت المراقبة - أي أن أمه تلمسه من بعيد.
ولكنها تلمسه بشكل ما وهو يريد أن يهرب من هذه الملاحقة بالعين والأذن
واليد. يريد أن يتحرك دون لمس من أحد. وربما كانت الفتيات أكثر تأثرا
بمرحلة المراهقة. فتلاحظ الأم أن ابنتها أصبحت أقل مرحا. وأكثر
سرحانا. ولا تحب أن تشارك أحدا. أو يشاطرها أحد شيئا. إنها دائما
وحدها. وتريد أن تكون وحدها وتشعر الفتاة وكذلك الفتى أنه وحيد.. وأنه
غريب عن أسرته. وأن أحدا لا يحبه. أو يعطف عليه. أو يفهمه.. أما
الأحضان فقد اختفت. أما القبلات فهي مجرد لمس للخدود.. أو شيء
يشبه نقرات العصافير على الزجاج.

لم يعد هناك ذلك اللمس المباشر. لم يعد هناك ذلك الحضن الذي
يحتوى ويعطى الأمن والراحة والدفع.. ولكن هناك محاولات غير مباشرة
للمس. فتقول الأم لابنتها مثلا - تعالى أشد لك السوستة..

أو تقول للابن: تعال أربط لك الكرافته..

إنها حيل من الأم لكي تلمس ابنها.. أو ابنتها.. لكي تكون على صلة بهما.. لكي تكون على مقربة منهما.. وفي بعض الأحيان يكشف الابن أو الابنة هذه الحيلة فيقول الابن: شكرا.. أربطها وحدي.. أو تقول الابنة للخدمة: تعالى يا فاطمة - وتنادى خادمتها لتشد السوستة بدلا من الأم!

وتقول الأم: أن أحدا منهما لا يطبق يدي.. أنا التي حملت وولدت، وارضعت، وغسلت وداويت وسهرت وبكيت!

وكل ما تقوله الأم صحيح. لولا أن الطفل كبر ويريد أن يستقل بشيء آخر: يريد أن تكون له لمسات من نوع آخر عند شخص آخر.. أن يكون له دفء جديد.. وأحضان مثيرة!

وعندما يحب الطفل الذي كبر، فإنه يتحول إلى طفل مرة أخرى.. فالحب هو الذي يجعل الرجل طفلا. فهو لا يشبع من اللمسات.. والقبلات والأحضان - ونجد بين المحبين من يقول للآخر: يا قطتي.. يا كتكوتي.. يا ننوسي - وكلها كلمات كانت تقولها الأم للطفل وهو صغير. ولكن الحب هو الطفولة الثانية للرجل والمرأة، وليست الشيخوخة فالشيخوخة هي الطفولة إذا كنا نتحدث عن عجز الطفل عن أن يكون مستقل الحركة. ولكن الحب هو الطفولة الثانية، ففيها كل شيء: القوة والرغبة والضعف والاحتجاج وفيها يتحول الرجل إلى ابن وتتحول المرأة إلى أم.. وتتحول المرأة إلى ابنة ويتحول الرجل إلى أب أو أم.. فكلاهما ابن للآخر.. وكلاهما محتاج إلى حضن الأم وبطن الأم..

إن كل شيء يبدأ بلمسة يد.. وتجيء بعد ذلك ملايين اللمسات التي تأكل المسافة بين الناس.. ويحب الرجل زوجته أكثر من أمه.. ويحب

عشيقته أكثر من زوجته.. وفي نفس الوقت.. يشكو الرجل من أن شيئاً قد
راح منه : كرامته.. هيئته.. قيمته.. وزنه..

يقول شاعر إيران سعدى أن رجلاً أحب فتاة جميلة جداً. ولكن لسانها
طويل جداً. وكان يقول للشاعر سعدى :

لو كان لسانها أقصر قليلاً !

فقال سعدى : عندما يكون هناك حب ، لا يكون هناك سيد وخادمة !

كل شيء يدعوك إلى أن تقترب (٢)

أنت لا تستطيع أن ترفع عينيك عن طفل صغير. ولا أن تمسك يدك عن لمسه. انه هناك ضعيف. وجهه برىء. وعيناه واسعتان. وذراعااه الصغيرتان تحاولان أن تصلا إليك. ثم أن جسمه ينتفض. أنه من أوله لآخره يدعوك لأن تفعل شيئاً. أو أنه يستضيفك عليه.. على الاقتراب منه. على لمسه. على مداعبته. على تدليله. فالطفل الصغير: دعوة صريحة مفتوحة لكل إنسان أن يقترب منه وأن يداعبه.. أو يساعده على شيء.

وإذا كبر الطفل عشر سنوات وراح يضحك أو يصرخ فإن الناس يترددون أو يتحفظون في الاقتراب منه.. وإذا كبر عشر سنوات أخرى، أصبح الحذر شيئاً ضرورياً.

وكل إنسان في كل سن يقول لمن حوله شيئاً. وكلما نضج الانسان أصبح الاقتراب منه خطراً، ولكنه لا يتوقف عن الإشارة وعن الكلام الملفوف والكلام الصريح. فهو حريص على أن يلفت الأنظار إلى نفسه.. وإلى أنه نضج: وإلى أنه يريد أن يقترب وأن يلمس وأن يمد يديه وأن تمتد إليه

الأيدى. وهو يؤكد بأساليب متعددة أنه قادر على كل ما يدور في رأس الذين حوله. وكيف؟ فلننظر إلى ملابس الرجال والنساء. والانسان قد اخترع الملابس لأربعة أسباب: أولا - ليواجه بها الحرارة والبرودة. وثانيا - ليبين للناس مركزه الاجتماعى. وثالثا - ليخفى بها المناطق المثيرة والمحرمة من جسمه. رابعا - وليكشف هذه المناطق ويبرزها ويلهب الرغبة إليها ويشعل النار في الخيال بحثا عنها وتقربا إليها وهذا هو أخطر هذه المعانى كلها! مثلا: مقدمة الجسم. وهى أكثر المناطق اختفاء وأعمقها. وهى مركز الممنوعات والمحرمات وعلى الرغم من اختفائها فإن الانسان حريص على أن يبرزها. ولذلك نجد أن الرجال فى العصور الوسطى قد استخدموا البنطلونات الضيقة. ووضعوا فى مقدمتها «حشوا» من القطيفة أو الفراء. ثم إنهم وضعوا لها زركشة حمراء وزهبيّة. وبالغوا فى ذلك والمعنى مفهوم. والمرأة قد ارتدت البنطلونات الضيقة والشورت والمايوه.. وجعلتها ملتصقة كان الالتصاق دعوة إلى الرجل أن يفعل ذلك. وليس على الرجل إلا أن ينظر بخبث ليعرف ما هو المقصود. وفى العشرين عاما الأخيرة ضاقت البنطلونات للجميع وقال الرجل ما تقوله المرأة. ولم يعد أحد فى حاجة إلى أن يسأل. وإنما يكفى أن ينظر والمرأة عليها أن تنظر. والرجل عليه أن يحاول. ليفوز الاثنان فى النهاية. ولا يهم من الذى فاز بالثانى. المهم أن الفوز هو النهاية الحارة لل اثنين معا..

وكثيرا ما يجد الشاب متعة فى أن يتفرج على مجموعة من الصور قدمتها له فتاة والصورة كلها فى المعمورة أو المنتزه. ويجد الفتاة تتحدث عن الذى يسكن إلى جوارها أو تحدثه عن العربات الواقفة على الشاطئ.. وقد يكون الشاب ساذجا لدرجة أن يسأل عن أصحاب هذه الكبائن ومن أولادهم - كمظهر من مظاهر الغيرة عليها وينسى المصيدة المنصوبة له:

فالفتاة أثارت الغيرة ولكن الأهم من ذلك أنها عرضت عليه صورها بالمايوه. ليرى أبعد وأعمق – فهذا هو المطلوب. ولكن الفتاة شاءت أن تقدم الساقين في حريق من الغيرة عليها والتمسك بها..

وشفنا المرأة تقولان الكثير. وهى حريصة على أن تضع الكلام الصامت على شفتيها فمن المعروف أن الشفتين عند الاثارة الجنسية تمتلئان بالدم وتنتفخان وتصبحان أكثر ليونة وحرارة. ولذلك فالمرأة تضع الأحمر على الشفتين. وهذا اللون يجعلها أكثر تضخما. أى أكثر دعوة للرجل. أى أن المرأة تريد أن تقول له : إنها بالفعل قد أثرت. وأنه لم يبق أمام الرجل إلا القليل، فعليه أن يحاول..

فلتلوين الشفتين ورسمهما ليسا إلا كلاما صارخا بارزا، وليس إلا استعداد للرجل عليها. ومن الغريب أن المرأة تدعو الرجل وتصدده. تناديه وتتظاهر بأنها لم تسمع أو بأنها لم تطلب من أحد شيئا – وهذا بالضبط ما تفعله في شفتيها وفي غير شفتيها أيضا..

وهناك مواطن أخرى للنداء والاستدعاء والاستعداد أيضا. فالمرأة عندما ترتدى المايوه من قطعتين فانها تكشف عن بطنها. وعن سرتها أيضا. وإذا كان مسموحا للمرأة أن تكشف عن هذا الجزء على شواطئ البحر في الصيف. فإنها لا تفعل ذلك في أى مكان آخر. فقط في الهند تجد المرأة تكشف وسطها كله. والذين يشاهدون الهنديات في الزمالك وفي شارعى سليمان باشا وقصر النيل يجدون أن المرأة قد عرت – وسطها وكشفت سرتها. ولكن الراقصات يغطين هذا الجزء بقماش شفاف. لأنه لا يصح للمرأة أن تكشف عن التجويف المستدير عند المرأة الممتلئة والمستطيل عند المرأة النحيلة.

وبهذه المناسبة أبدى أسفى على كاتبنا الكبير يحيى حقى الذى دخل التاريخ العالمى لأنه هو الذى أصدر قرارا بأن تغطى الراقصة هذه المنطقة. وبذلك لا يكون الرقص «شرعيا» إلا إذا غطت المرأة بطنها. وكثيرا ما وضعت الراقصة الورود فى هذا الجزء من بطنها. أى أنها غطته، ولم تغطه. أى أنها أخفته وأبرزته فى نفس الوقت. ثم جعلت الغطاء كأنه ليس غطاء.. وفى ذلك كلام كثير يفهمه الرجل. أو يدعى أنه فهمه. فإذا كان الرجل مخمورا، وهو غالبا كذلك، فإنه يرى ويتوهم ما يحلو له. وكل هذا مقصود !

وهناك الأرداف أيضا. وأنثى الانسان هى الوحيدة بين كل الاناث التى تتميز بهذين الردفين. وهما كتلتان من الدهن الناعم مستديرتان.. ومن المعروف أن - إناث الحيوانات الأخرى تظهر البروز فى مؤخرتها ومقدمتها فى مواسم الاخصاب فقط. ولكن الانسان ليس له مواسم للاخصاب، لذلك استدارت وانتفخت أماكن كثيرة فى جسمه على مدار السنة والمرأة تعلم أن استدارة الردفين وفى نفس الوقت ليونتهما واهتزازهما يثير الرجل. وقد ساعدتها الملابس والكورسيهات على ذلك كثيرا.

ولا نجد إلا عند قبائل البوشمان فى جنوب أفريقيا هذه الأرداف الممتلئة الثقيلة بل أن هذه القبائل حريصة على تأكيد وجودها. ولذلك تجد المرأة إذا مشت فإنها تتعمد أن تنحى إلى الأمام لتزداد أردافها بروزا.. وفى أوروبا وفى العصور القديمة وجدنا لوحات لنساء لهن أرداف ثقيلة. وهذا غريب. وربما كانت هذه أحلام يقظة بعض الفنانين الذين كانوا يشتهون هذه الأنوثة الصارخة، فلما لم يجدوها خلقوها على الجدران !

وفى العصور الحديثة أصبحت الأرداف على النحو الذى نراه على الشاشة : صغيرة مشدودة. وعلى جدران المعابد الفرعونية القديمة نجد

راقصات ليست لهن أرداف. ولكن في نحافة راقصات اليوم. وحتى فينوس أشهر جميلة في التاريخ، لو عاشت حتى اليوم فإن خط ردفها لن يزيد عن ٢٨ بوصة.

ومنذ وقت بعيد ونحن نعرف الأرداف الصناعية. أى اضافة «حشو» من القماش والقطيفة وأحيانا من الجلد لتعويض المرأة عما فقدته من الدهن. وعندما اتسعت الفساتين سنة ١٨٧٠ لم يعد من الضروري أن تكون للمرأة أرداف صغيرة أو كبيرة فالفساتين قد انتفخت واستدارت وأخفت ما تحتها، ولذلك اتجهت العيون إلى أماكن أخرى للنداء الجنسي في جسم المرأة – لأنه لابد أن تكون هناك ميكروفونات تصرخ في مكان ما!

ننتقل بعد ذلك إلى الساقين. وهذا الانتقال ضرورى. فممنز أقدم العصور أهتم الرجال بجمال ساقى المرأة. وهى تعرف ذلك. ولذلك فالمناورة والمداورة بينهما لا تنتهى. وهو يريد أن يرى وهى تخفى وتظهر وهناك ألف حيلة. واهتمام الرجل بالساقين سببه أن الساقين طريقان إلى الأماكن المحرمة. إلى المنطقة الحرام. ولاتزال الساق الجميلة هى: الممدودة الناعمة اللينة. ولذلك تحرص المرأة على أن تكشف الساق وأن تغطيتها. فيقصر الفستان ولكنها تغطى الساق بجورب طويل.. وإذا جعلت الجورب شفافا فإنها ترتدى تحت الجورب جوربا آخر. والمرأة استخدمت الكعب العالى لجعل ساقها أطول. وإذا جلست المرأة فإنها تضع ساقا على ساق، وهذا من شأنه أن يسحب فستانها إلى الوراء قليلا، فيبدو جزء آخر من الساق. وتنتهز المرأة هذه الفرصة لتسحب فستانها إلى الأمام قليلا. ثم تضغطه على ساقها فتبرزهما أكثر والمرأة أصبحت الآن كالعمارات الجديدة، مداخلها جميلة فقط.

ومع السيقان اهتم الرجل بقدم المرأة. فالمرأة تحشر قدمها في حذاء ضيق. وهذا يشوه قدميها. ولكن الجمال في القدم الصغيرة. وفي الصين يضعون قدم الفتاة في نعل من الحديد وقصة سندريلا معناها أن أخوات سندريلا كانت لهن أقدام كبيرة ولكن سندريلا لها قدم صغيرة. ولذلك تزوجها الأمير.

والأم تنصح ابنتها بأنها إذا جلست فيجب ألا تفتح ساقها. عيب. وإذا وقفت ألا تفعل ذلك أيضا. ولكن عندما ارتدت الفتاة بنطلونا أصبح في إمكانها أن تجلس كما يجلس الرجل تماما.. وارتداء البنطلون الضيق أعطى المرأة شيئا من الحرية ومن التحدى أيضا. فلم يعد محرما عليها أن تفتح ساقها عند الجلوس وفي نفس الوقت تعرض جسمها وكأنها لا تقصد ذلك! تماما كما تفعل فتاة وهي تقاومك أن تمر بشفتيها على خدك، أو تضربك بصدرها أو تتساقط عليك.. فهي تفعل ما لا تريد وهي تريد ما لا تفعل!

نعود مرة أخرى إلى البطن بصفة عامة..

فاما أن يكون البطن مشدودا وميالا إلى الانخفاض قليلا، وهذا واضح عند الشبان الأصحاء. أو يكون للانسان كرش، وهذا واضح عند الأطفال الجياع والرجال الذين يأكلون كثيرا. ويكفى أن ننظر إلى رجل فوجئ باقتراب فتاة جميلة أنه بسرعة «يشفط» بطنه. ومعنى ذلك أنه يعلم أن الكرش عيب وأن عضلاته قد ارتخت وأن الشباب هو الكرش المشدود والعضلات القوية. ومعنى ذلك أن الكرش دليل على الكسل وعلى البلادة. ولكن الرجال استطاعوا أن يواجهوا هذا الكرش بالعقاقير فهم يعيشون

على ريجيم. والريجيم يجعلهم أكثر نحافة.. ويتعاطون الفيتامينات، وهى مقويات طبية.

ولابد من أن يكون هناك سبب وجيه لظهور راقصات كشفن البطن وهزه بعد ذلك.

لابد أن يكون ذلك قد ظهر فى «حريم السلطان» ولابد أن يكون ذلك السلطان قد تجاوز الخمسين. لأن الرجل حيويته تبلغ مداها عند الخمسين ثم تهبط بعد ذلك. وأى إنسان يعيش بعد الخمسين فهو يعيش فى الوقت الاضافى وهو إنسان عنده مال وعنده مركز ولذلك فهو غير قادر على الصيد. وإنما الفريسة يجب أن تجيء عند قدميه: بفلوسه ومركزه. وعليها هى أن تقوم بفتح شهيته بالقوة. ولذلك فرقصة هز البطن هى دعوة مقبولة لاثارة الرجل فهى تشير إلى كل شىء. وتطبقه أمام عينيه. وليس الرقص الشرقى إلا إشارات وتعبيرات وتطبيقات مهذبة لرغبات غير مهذبة وكأن الراقصة الشرقية تقول: إن كنت قد نسيت فأننى أذكرك. وأن كنت غير قادر فأنا أقدر منك عليك وعلى غيرك. وفى حريم السلطان كان السلطان عاجزا عن الكثير، وكان يكتفى بالفرجة على الكثيرين والكثيرات..

وهناك منطقة أخرى للنداء هى: الخصر ومنذ أقدم العصور والمرأة حريصة على أن تجعل خصرها يبدو ضيقا أو صغيرا. تكاد تمسكه بيديك «فتتكسر» المرأة.. والمرأة تلجأ إلى طريقتين لكى تجعل خصرها صغيرا، أما بأن تلف حوله حزاما مشدودا أو بأن تجعل نهديها وردفيها أكثر بروزا. وبذلك يبدو الخصر غائرا. وفى القرن الماضى فى أوروبا كانوا يقولون أن عمر الفتاة يجب أن تعرفه من خط استدارة خصرها فإذا كانت فى

الثامنة عشرة وجب أن يكون خصرها ١٨ بوصة وهكذا وتعذبت المرأة ومرضت وشوهت بطنها وصدرها ورثتها لذلك.

وكان خصر ملكات جمال العالم ٢٤ بوصة، أما خط الردفين فهو ٢٣ بوصة وخط النهدين فهو ٣٠, ٥ بوصة. أما ملكة جمال العالم هذا العام فخط الصدر: ٢٦ بوصة وخط الخصر ٢٤ بوصة وخط الردفين ٢٦ بوصة والردفان أكبر من النهدين ببوصتين عادة. ولكن القاعدة يبدو أنها سوف تتغير قليلا، فسوف يكون النهدان أكبر من الردفين ببوصتين.

ويبدو أن مناطق الاثارة لها استدارة الردفين أيضا، مثل النهدين والكتفين والركبتين والكعبين. فالعين تتجه إلى الأماكن المستديرة الممتلئة الناعمة اللينة.

ونهدا المرأة ليس لهما نظير عند إناث الحيوانات الأخرى. فهما مستديران ممتلئان حتى في غير أوقات الرضاعة والولادة. وهاتان الكرتان في صدر المرأة تعطيانها قوة وشخصية.. كأنها تحمل سلاحا مستعدا وهي تتباهى بذلك. ويمكن أن تعرف ما تعانيه المرأة التي ليس لها صدر أنها تحار كيف تبرز القليل الضئيل الذي عندها. أنها ترتدى السوتيان الكبير المبطن بالجلد. أو أنها تلجأ إلى الطبيب لاجراء عمليات جراحية.. تؤدي إلى نفخ الصدر وحشوه بمواد كيميائية.

وفي القرن الماضي كانوا يضغطون على الصدر حتى يصبح مسطحا. وليس ذلك دليلا على عدم الاهتمام بالنهدين. ولكن على شدة الاهتمام به والخوف من أثاره على أعصاب الرجال واخلاقياتهم.

والمرأة حريصة على أن دفع نهديها إلى الأمام وعلى تضيق المسافة بينهما بشكل بارز، وعلى كشف البلوزة أو الفستان السواريه.. وبذلك

تتعاون المرأة مع التريزى مع القماش على خلق تمثال من اللحم اللين
البارز لخطف عين الرجل ولا تردها بعد ذلك !

وعندما تشيع موضة الفتيات الصغيرات على الشاشة وفي المجالات،
تصبح النهود الصغيرة هي الأجمل. وعندما تشيع موضة الأنثى الناضجة
فإن النهود الكبيرة هي الأروع وعندما تشيع موضة الأمومة، فإن النهود
المتدلّية هي التي تهم الرجل. وإن كانت النهود الصغيرة لا تدل على فهم
سليم للانوثة. ولذلك شاع الشذوذ الجنسي بين الرجال، في كل العصور التي
لا يهتمون فيها بالنهود الأكثر استدارة وامتلاء وبروزا وقد كتب أديب
فرنسى سيمون دى بوفوار عن شذوذ الرجل الفرنسى الذى أحب طفلة مثل
بريجيت باردو فلا هي شاب ولا هي شابة.. وإنما مثل توت عنخ آمون وسط
بين الرجولة والانوثة. وهذا دليل على أن ذوق الرجل قد فسد، فلم يعد
الحب الأنثى، لأنه لم يعد رجلا !

ومن المعروف أن ٢٨ (فى المائة) من جسم المرأة يتكون من الدهن
و١٢ (فى المائة) من جسم الرجل من الدهن. وحاجة المرأة إلى الدهن
أكثر. وحاجة الرجل إلى الدهن أقل. ويتوزع الدهن فى جسم المرأة فى
أماكن كثيرة النداء وصارخة الدعوات للرجل أن يقترب وأن يلمس – وكل
شئ بحساب !

ولابد أن تكون «بشرة» المرأة لها دلالة مثيرة. وبشرة المرأة أكثر ليونة
ونعومة ولذلك تحرص المرأة على أن يكون ملمسها ناعما ولونها لامعا
ورائحتها جميلة. وكلها نداءات كنداءات الورد إلى الفرش والطيور أو
تقترب.. والمرأة حريصة أيضا على أن تزيل من بشرتها كل ما يجعلها
خشنة – مثل الشعر. وأن تضع الصابون والزيوت والعطور فى كل مكان..

والذين يصنعون الصابون والشامبو يعرفون ذلك. فهناك مثلاً : صابون الحب.. وشامبو الغرام.. وعطر النشوة.. الخ.

ومنذ أقدم العصور كانت الملكات يصنعن حمامات من الزيوت أو من اللبن الساخن وكان من المألوف في الحروب أن تجد عدداً من الحمير – انثى الحمير واسمها الاتان في مؤخرة الجيوش. لماذا؟ لأن عشيقه القائد – غالباً – أو زوجته – نادراً – ترافقه وهي في حاجة إلى حمام من لبن الحمير الساخن.. وكذلك كانت تفعل بلقيس ملكة سبأ عندما ذهبت للقاء الملك سليمان.. جعلت لنفسها ستة حمامات ثلاثة من لبن الحمير والثلاثة الأخرى من الزيوت والعمور وكانت تخرج من الواحد وتدخل في الذي يليه.. وكانت هذه النعومة في بشرتها تجعلها قادرة على الهرب من أحضان عشاقها.. فكانت هذه النعومة تعطيها الاثارة والدعوة إلى المطاردة!

ولابد أن ظهور موضة الفساتين التي تشبه قمصان النوم – الامبير مثلاً – أي في عصر امبراطورية نابليون كان الغرض منه أن تكشف المرأة عن استدارة الكتفين.. وأصبحت الموضة: تقبيل المرأة في كتفها بالقرب من عنقها ومن وجنتيها وشفتيها.. أنها خطوة إلى الأمام. وكان من التعبيرات المألوفة في ذلك الوقت أن يقال: أنه أي العاشق – لم يصل إلى لمس كتفها.

ليس بعد! وفي نفس الوقت غطى الرجل كتفيه. بل أنه شد الكتفين بالبطانة والحشو مما جعل الكتفين عريضتين قويتين. واتجهت المرأة إلى التعرية الكاملة للكتفين وجانب من الذراعين والابطين. وتعمدت المرأة في الحفلات العامة إذا مدت يدها بالسلام والتحية، أن تجعل الرجل يفيق عن بعد.. وبذلك تمد ذراعها.. وتكشف ما تحت الذراع.. وكان الرجال

لا يضافحون المرأة وهم واقفون أمامها وإنما إلى جوارها قليلا لكي تقع العين على الكتف وعلى الابط في نفس الوقت.

وكذلك الوجنتان.. أنثى الانسان هي الوحيدة التى لها وجنتان. مستديرتان وهاتان الوجنتان تتلونان طبيعيا وصناعيا. وفي سوق الحريم كانت الفتاة التى يحمر وجهها خجلا هي الأغلى ثمنا. ولم يعد هذا ضروريا الآن. فقد جاءت الكيمياء تريح المرأة من الخجل والوجل. فكلاهما صناعى. ولم يعد الرجل يبحث عن شىء من ذلك فقد استعانت المرأة بالعلم الحديث كله لتخفى ما تريد وتظهر ما تريد.. ويحار الرجل في كل ذلك !

أما العينان فهما أقوى وسائل التعبير عند الانسان. وأقدر الناس في التعبير عن معانى النظرات هو الشاعر ابن حزم الاندلسي في كتابه «طوق الحمامة...» فعن طريق العينين تقول المرأة ولا تقول. تدعو وترفض وتستسلم وتقاوم. وتطرد.. والمرأة استطاعت بالألوان أن تجعل للعين ألف معنى.. وأن تجعلها أكبر وأكثر لمعانا، وأكثر تخويفا وترغيبا.. والرجل عندما يريد أن يعرف ما الذى تريده المرأة فانه ينظر إلى عيناها. أى ينظر إلى مخزن ذخيرتها وغرفة عملياتها ومركز مخابراتها ومحطة إذاعتها.. ومنذ سنة ١٩٦٠ استطاعت المرأة أن «ترسم» عيناها على النحو الذى يريد. بل أن هناك كتبا تقول للمرأة: إذا كنت على موعد غرام، وكان حبيبك صعبا فارسمي عينيك على النحو التالى. ويصف لها الكتاب كيف ترسم العينين الغائرتين.. ويقول لها الكتاب: لا تعامليه بلا عيون مرسومة.. لا تقابليه بلا عيون مرسومة.. رجعة.. بل بدموع جاهزة للهبوط في أى وقت.. يقول لها الكتاب: إذا كان لقاء اليوم هو لقاء وداع.. سوف تعطينه

خطاباته ويعطيك خطابتك.. إذا كانت هذه الليلة لتبادل الأسرى.. فاجعلها ليلة قاسية عليه جدا.. ليلة تشعل النار فيها فلا تتركه إلا رمادا.. أنت وبعده الطوفان.. كوني مثل شمشون الجبار واجعلها رمادا عليك وعلى أعدائك.. ولكن لا تفقدى الأمل لحظة واحدة.. ابحثى عن أجمل فساتينك واختارى أهدأ ألوانك.. لا تستخدمى الألوان الصارخة.. فهى لا تتفق مع مزاجك.. ولكن استخدمى ألوان العين الهادئة الناعسة.. كأنك حزينة على هذا الفراق.. ولكنه الحزن الأنيق.. والوداع الملىء بالجمال.. اجعلى هذه الليلة قاسية عليه.. اجعليه يتذكر طول الوقت أنه سوف يترك هذا الجمال لغيره.. واجعلى عينيك نائمتين.. واجعلى صوتك هامسا.. واجعلى نظرتك غير مركزة عليه.. كأنك تتذكرين كل ما كان معه.. أما النهاية فهى معروفة مقدما لن يتركك.. أنه – ككل رجل – وقع فى المصيدة.. وليست المرأة إلا مصيدة جميلة للرجل.. وليست العين إلا نافذة النفس.. وأما نفس المرأة فهى العذاب الأبدى لكل الرجال فى كل العصور.. انهم يحاولون فهمها.. ولكن المرأة قد فهمت حقيقتها وهى أن تكون جميلة وهذا يكفيها عذابا ولذة وانتصارا على الرجل فى النهاية :

وظهرت الرموش الصناعية فى سنة ١٩٦٠.. وأضافت هذه الرموش أسلحة أخرى إلى العين!..

والحاجبان.. وبعض العلماء يرى أن الحاجبين قد ظهرا فى وجه الانسان ليمنعا العرق من النزول من الرأس إلى العين.

ولكن من المؤكد أنهما إضافة إلى جمال العينين..

وابتداء من سنة ١٩٢٠ أصبحت المرأة تجعلهما نحيفين.. بل أنها ترسمهما بالقلم.

والعروس اليابانية حاجبها في ليلة الزفاف. (وفي سنة ١٩٢٢ شهدت الصحف البريطانية حادثاً عجيباً. فقد تقدمت فتاة لتعمل ممرضة في أحد المستشفيات وقبلت الفتاة ولكن اشترطوا عليها ألا «ترسم» حاجبها وأن تتركهما على طبيعتهما.. ورفضت الفتاة.. واحتكمت إلى القضاء. وحكم لها القضاء. ولكن المستشفى رفضتها).

وشعر المرأة له سحره عند الرجل. ومن الملاحظ أن المرأة قد احتفظت بشعرها متوسط الطول في كل العصور. ولكن الرجل هو الذي أطاله ثم قصره. ثم عاد يطيله الآن. بل أن القضاة الانجليز يضعون الشعر المستعار الذي وضعته الملكة حتشبسوت من ألوف السنين، ليكون لهم الوقار المطلوب.

وعندما أخذت المرأة تستخدم شعرها المستعار.. لم يعد الرجل ينظر إلى شعرها ويتغزل فيه. فهو يعرف طبيعة هذا الشعر، وإنما راح يبدى إعجابه بتكويناته – أى أصبح يعجب بالحلاق! ويعجب بمجموعة الألوان والخطوط في الوجه وحول الوجه والرأس..

وبعد ذلك يجيء «كعب» المرأة. وليس هذا شيئاً مألوفاً أو معروفاً في البلاد الأوربية الباردة: موضع من مواضع الجمال في الشرق الحار.. ولذلك عمدت المرأة إلى أن تكشف عن كعبها بجعل الفستان أقصر.. أو بوضع الحناء على الكعب فيكون له لون اليدى أو لون الورد أو لون الدم.. والكعب له استدارة الكتفين والنهدين والردفين والخصدين..

والمرأة الريفية تعرف أن كعبها يدل عليها..

والفرق بين ست البيت والعاملة هو أن واحدة منهما تمشى حافية والأخرى نظيفة القدمين..

وتتعمد الفلاحة إذا ذهبت لتملأ البلاص من التربة أو من الحنفية أن تسقط الماء على ثوبها. وأن يكون ذلك على صدرها. فيلتصق الجلباب بجسمها، فيبرز صدرها. وأن يسقط الماء على ذيل جلبابها، فترفعه قليلا فينكشف أسفل الساق وكل الكعب. وعلى الرجال أن ينظروا ويفسروا ويقولوا لأنفسهم وعلى المرأة أن تنتظر ويجيء الكلام من بعيد. يدعو ويشجع ويغري ولا تنسى المرأة كلمة واحدة قيلت من أى إنسان يصف شيئا جميلا. لا الفلاحة ولا أكثر بنات المدن ثقافة. فالكلمة الحلوة هى لمس بالأصابع برفق. وما أكثر ما يفعله اللمس.

وإذا كنت قد عرضت مواطن الفتنة والاثارة واحدة واحدة فإن هذا لا يحدث فى الطبيعة.. لا يحدث فى الشارع.. وإنما كل هذه المواطن المثيرة تنفتح مرة واحدة على كل إنسان.. كلها فى وقت واحد.. كلها تنهال علينا.. وكلها تتحدث فى وقت واحد.. وتقول وتعيد وتزيد.. ونحن من ورائها وحولها وأمامها وإلى جوارها نجمع ونضرب ونطرح بسرعة.. طبعاً بسرعة فقد تدربنا كثيراً على «رسم الصور» المطلوبة. و«تتجمع» كل العبارات والنداءات فى أقل عدد ممكن من الكلمات أو من الحروف، هل نتقدم أو نقف بعيداً.. هل نلمس.. أو لا نلمس!

إنما يتعري الناس حتى لا نراهم؟! (٣)

في يوم ٥ يوليو سنة ١٩٤٦ انزعج الناس في أحد الحمامات العامة في باريس فقد ظهرت فتاة ترتدى مايوها من قطعتين.. وإنزعاج باريس معناه أن شيئاً غير عادي قد حدث. صحيح لقد اعتاد الناس على ذلك.. واتسعت المسافة بين قطعتي المايوه. ولكن في ذلك الوقت نهضت سيدة في الثلاثين من عمرها.. جميلة عارضة أزياء. وقالت للفتاة ذات المايوه من قطعتين: لو كان لي جسمك لقدمته قطعة قطعة للكلاب!..

ويبدو أن هذه السيدة لم تعترض على شكل المايوه، ولكن على الذي يبدو من المايوه. وصاحبة المايوه الغريب اسمها مشلين برناردينى. ولم يجد أحد اسماً لهذا المايوه.

ولكن تصادف في ذلك الوقت أن أطلق الأمريكان أول قنبلة ذرية لهم في المحيط الهادى على جزر بيكىنى (٢٨ جزيرة) بعد أن أجلوا سكانها الأصليين. وبسرعة اتخذ هذا اليوم اسم بيكىنى – بالياء الخفيفة. ولا يزال البيكىنى زينة البلاجات في العالم..

وفي يناير سنة ١٩٦٤ انزعج العالم كله مرة أخرى لأن رجلا نمساويا اسمه رود جراترايشي قد أطلق قنبلة فاضحة. فقد أعد مايوها من قطعة واحدة لاحدى الموديلات. ولم تكن هذه الموديل جميلة. ولكنها جريئة. ويبدو أن أكثر الدميمات جريئات. فالجراة تجعلها تفرض نفسها وجسمها على الآخرين.. والمايوه عريان الصدر تماما – مثل نساء جزر بالي الأندونيسية ولقى هذا المايوه بسرعة استنكارا من الفاتيكان ومن الكرملين ولم يشأ أن يعيش طويلا. وبعد سنة واحدة ظهر مايوه بلا ظهر..

ونشرت الأدبية فرانسواز دلرنيثا رئيسة تحرير مجلة «فوج» تزف إلى المرأة أن عصر تحررها من استعباد الرجل قد برز. وليس عليها إلا أن تشق القماش على رأس الرجل وأن تلقيه في وجهه. أو تصنعه كفنا له وتدفنه بلا بكاء عليه – فقد أبكاها الرجل طويلا وكثيرا..

وأعلن مصمم الأزياء الايطالى اميليو بوتشى في كتاب عنوانه «تاريخ الجمال: أزياء» قال في مقدمة الكتاب: الآن في استطاعة المرأة أن تكلم الرجل باللغة التى تعجبها أن الرجل لا يملك إلا أن يطيع. ولكن المشكلة دائما، أن الرجل يجد من النساء من تحن إليه.. وبذلك تنهار المقاومة وتسقط كل الخطط لمناهضة الذوق الرجالي في كل شىء!.

وفي سنة ١٩٦٨ ظهرت الممثلة الأمريكية جين فوندا بفساتين ذات فتحات متنقلة حول جسمها..

ثم نشرت المجلة العالمية «وولد ريبوت» تقول: إن بريطانيا قد قدمت للعالم كله موضة المينى جوب في سنة ١٩٦٦. وقد روعت شركات الأقمشة، فلم يعد الفستان يحتاج إلا إلى مساحة ضئيلة من القماش. ولكن مخاوف

هذه الشركات ليس لها أساس فقد أثبت الأرقام في السبعين عاما الماضية.
أن الأسهم والسندات ترفع ذيل فستان المرأة.

وفي أواخر سنة ١٩٦٨ تظاهرت النساء في أمريكا وطالبن بالتححرر من قيود الرجل وقررن أن يخلصن الكعب العالي والسوتيان والكورسيه والباروكة ويحلقن رؤوسهن ويضربن عن استخدام أدوات التجميل. لأن الرجل قد علم المرأة أن تكون حيوانا جميلا. أو حيوانا مثيرا. وأن الرجل قد نشر في كتبه وصحفه وأغانيه ومسرحياته أن المرأة هي الرغبة. هي رغبته هو. وقد اعتادت المرأة على أن تشغل نفسها فقط بارضاء الرجل جسميا. فإذا حاولت المرأة أن تشغل عقلها بشيء، ثار عليها الرجل. فهو لا يريد لعلاقته بالمرأة إلا رأسا واحد هو رأسه، وإلا جسما واحدا هو جسمها!

فالمرأة هي هذا التمثال الغريزي الذي صنعه الرجل. وقد أصبح من الواجب على المرأة أن تحطم هذا التمثال، أو هذا الصنم، وأن تفلت من الاطار الحديدي والحريرى الذى اختاره الرجل لها – فى كل العصور.

وأعلنت المرأة فى سنة ١٩٦٩ أن أول أغسطس هو يوم المرأة العالمى – يوم تحررها من كل الحيل التى أرادها الرجل.

وكتبت عالمة الأمريكية مرجريت ميد تقول: ليست بهذه الصورة تكون ثورة المرأة على الرجل. بل الثورة تبدأ بأن تكتب المرأة للمرأة وعن المرأة. بأن تقول فكل ما ترتديه المرأة وما تتجمل به ليس إلا مفردات من قاموس الرجل. فكل شيء فى جسم المرأة وعلى أظافرهما وشفتيها يقول: وهذا الكلام هو كلام الرجل!

وتقول مرجريت ميد أيضا : لا شيء قد تغير.. فنحن ما نزال في منتهى الهوس.. قديما كنا نحرص على أن نغطي الجسم الانساني بجنون.. أصبحنا نحرص على تعريته بنفس الجنون أيضا فتطوير صناعة الأقمشة الحريرية ليس محاولة لتعرية المرأة ثم العدول عن ذلك في آخر لحظة. فالمرأة ترتدى الفستان الحريري وبسرعة تضع فوقه بالطول.. أو ترتدى القميص المقلّم ثم تضع فوقه فستانا من الحرير.. ثم ما هذه الصناعات الفاضحة أيضا. أن نوافذ المحلات التجارية من الزجاج الهائل تكشف ما الذى يعمل به الناس في داخلها.. ثم المقاعد المصنوعة من البلاستيك الشفاف أنها تفضح الجالسين والجالسات عليها – ثم ما هذه النماذج الزجاجية للمرأة والمعرضة في المتاحف الصناعية.. أنها تعرض كل أعضاء ووظائف الجسم الانساني.. وفي نفس اللحظة التى يراها الانسان يستمع إلى تسجيل صوتى يقول لنا ما الذى يجرى أمامنا..

وتقول الدكتورة مرجريت ميد : لم ما هذا الذى تفعله المرأة.. إن المرأة فيما مضى كانت إذا حملت فإنها تحاول أن تخفى ذلك عن الذين حولها، أما الآن فإن العروس تصر على ارتداء فستان يجعلها تبدو حاملا – موضة الشوال مثلا !

وتقول مرجريت ميد : ما هذه الضوضاء التى تثيرها المرأة.. أننى أثار في فهم هذا الذى تقوله للرجل.. وبعد ذلك تشكو من البلبلة – مع أنها الفاعل الحقيقى. والمتكلم الصارخ. الناطق بالألوان المجسمة وفي حجمها غير الطبيعى !

أما الكاتب المسرحى الكبير آرثر ميللر فقد أعلن في محاضرة في «نادى القلم الدولى أن شيئا غريبا يحتاج الأدباء الآن.. أنهم أيضا يريدون أن

يكونوا عراة. مع أن هؤلاء الأدباء لا يعرضون على المسارح وإنما رجالا في غاية الهزال.. لماذا؟ لأنهم لا يريدون من المتفرجين أن ينظروا إلى هذه الأجسام. وإذا نظروا أن يشعروا بالضيق. وهذا الشعور بالضيق يساعدهم على فهم معنى المسرحية.. فكان الممثل قد قرر أن يشترك في إضافة شيء من عنده إلى النص المكتوب.. أما الذي أضافه فهو هذا الاحتقار العريان أو هذا السخط المجرد!

ويكفى أن نتذكر مسرحيتين شبيهتين هما: كلكتا.. والشعر.

وهناك مسرحيات أخرى كثيرة يتعري فيها الممثلون. ومن الغريب جدا أن معظم هذه المسرحيات ليست فيها أية ألفاظ عارية أو نابية. وإنما الذي يشاهد المسرحية يخرج منها بهذا المعنى: كيف يكون الانسان فاضح الجسم محتشم الكلام!

وفي السنوات الأخيرة تردت عبارات تنطبق على الأزياء وعلى الأدب. فإذا كانت الأزياء أسلوبا لاختيار وإبراز الجسم، فإن الكلمات أزياء المعانى.

مثلا يقال: موضحة النظرة إلى أعماق.. أو النظرة الشفافة.. أو النظرة المجردة - بكسر الراء - أو موضحة: يا للهول ما الذى بقى بعد ذلك!

والأزياء العارية قديمة جدا. بدأت من مصر الفرعونية. والنقوش على المعابد تؤكد أن المرأة المصرية كانت تصنع فستانا شفافا بسيطا. وإذا كانت موضحة الأكمام هذه الأيام من «جناح الوطواط» فإن الملكة نفرتيتى هى أول من استخدم هذا الكم.

كما أن هناك ملكة اسمها سمنكة (١٣٥٠ ق.م) قد ارتدت فستانا شفافا تماما لا تجرؤ راقصة على أن ترتديه في جلسة خاصة.

وفي كتاب «الأزياء في كل العصور» للسيدة مليا دافنبورت تقول إن الراقصات والراقصين في مصر الفرعونية كانوا يرقصون عراة تماما إلا من بعض الحلى.

كما أن الفتاة مريت التي ساعدت سنوحى المصرى تقول: وخلعت ملابسى كلها حتى لا تبتل ومشيت إلى جواره.

وفي النقوش الموجودة على معبد كراكالا في روما نجد أن المصارعين كانوا يتقاتلون عراة تماما أمام الشعب.

وفي القرن الثالث عشر في أوروبا كان الرجال والنساء ينزلون الحمامات العامة عراة.

وفي إنجلترا سنة ١٦٦٠ ظهرت الصدور العارية والأكتاف العارية..

وكانت النبيلة الايطالية الرهيبة لوكريشيا بورجيا تكشف عن نصف صدرها.. وطلته باللون الأحمر. وعندما علمت أن فتاة أخرى قد فعلت مثلها، ذهبت إليها وقطعت نهديةا.

ولكن هل كان الرجل الفرعونى مشغولا تماما بالقضايا الجنسية.. أى كان مشغولا بأن يثير المرأة وأن تثيره. هل هذه الأجسام العارية في كل مكان تدل على ذلك.. هل هذه الشفافية في الأقمشة تجعل الرجل يشعر طول الوقت بأنه حيوان.. وأنها أيضا. فما الذى يمنع أن يتصارع الاثنان ما دامت الأجسام فاضحة مفضوحة. هل هذا العرى معناه: أن كل شىء ممكن وبلا مقاومة!

الصحيح عكس ذلك. ويكفى أن ترى عيون الفراعنة، رجالا ونساء، أن العيون مفتوحة. والنظرة واسعة غير محدودة.. فلا أحد ينظر إلى أحد.

وإنما الجميع ينظرون إلى بعيد، إلى ما فوق الأجساد.. إلى ما بعد الفناء.
إن هذه الشفافية تدل على الاعتدال. وعلى البساطة. وهذه العيون التى
لا تضيق ولا تتسع ولا تنحرف ولا تغمز ولا تستهدف ولا تهدف ولا تسدد
شيئاً فيصيب أو لا يصيب، هذه العيون لم تمتلئ برغبة جنسية.

عندما جاء العالم النمساوى هانس هاس إلى الأقصر. كانت ترافقه
زوجته. وكان مشغولاً فى ذلك الوقت بتسجيل حركات الناس دون وعى
منهم. يقول فى كتابه «الحيوان الإنسانى» أن زوجته كانت تمسك ثعباناً من
المطاط. وكانت تضعه فى صندوق. وبسرعة انحنت الزوجة على الأرض
وارتفع فستانها القصير عن عمد. واتجهت عيون الناس فى الأقصر:
مصريين، وأجانب: إلى المرأة طبعاً. وعندما أطلقت الثعبان اتجهت العيون
إليه. يقول هانس هاس فى كتابه:

لقد كنت ألتقط هذه الصور.

من بعيد.. فأى فارق هائل بين عيون المصريين فى هذه اللحظة وبين
عيونهم من ألاف السنين.. أن نظرات الفراعنة قد استقرت فوق الحجر
على معنى آخر.. إنها نظرة شفافة سامية سامية بلا جنس!

ويقول هانس هاس: ولكن ما الذى تقوله هذه الأزياء.. لا تقول شيئاً..
إنها لا تخفى حقيقة الإنسان.. أنه جسم.. ولا تخفى حقيقة المصرى أنه
نظيف النفس.. وأنه حيوان أحياناً، إنسان فى معظم الأحيان، الهى عندما
يخلو إلى نفسه. ولذلك فعالمه وراء هذا العالم..

وعندما درس الكاتب الأمريكى أيريش فروم ثورة الشباب فى أمريكا وفى
أوروبا قال وهو يتحدث عن الحرية المخيفة: إننى لا أنزعج من انتشار

هذه الصور العارية. إنها تدل على شيء واحد. على أن الانسان ليس عنده ما يخفيه. وإذا ظل الانسان يكشف كل شيء فسوف يجد الطعام ولكنه لن يجد اللذة. سوف يجد الرغبة ولن يجد النشوة. سوف يجد الواقع ويفتقد الخيال.. والخيال هو أبو الفنون وأبو الخلود أيضا. ولذلك فالأجسام العارية هي الأجسام التي لا تراها. أن مستعمرات العراة، هي الأماكن التي اختارها بعض الناس ليعكفوا على اختفاء الجسم الانساني والزهد فيه.. أى إنهم اختاروا هذه الأماكن حتى لا يروا الجسم الانساني فكأنهم عروه حتى لا يروه. ولو أرادوا أن يروه لغطوه، فالفستان يقول أكثر من الجسم العريان. فالزى فن، والعري طبيعة.. أو غريزة. وقد ولد الناس عراة، وبعد ذلك فرقت بينهم الأزياء. وقديما قال شكسبير: أن النساء سواء، ولكن الحرير أقام الطبقات بينهن.

وفي مجموعة قصص قصيرة اسمها «الفردوس» لأديب إيطاليا البرتو مورافيا قصة عنوانها «المرأة الخفية» أنها قصة جميلة الشكل عميقة المضمون. أنها قصة زوجة جميلة. أحبت وتزوجت.. وكانت تعلم قبل الزواج أنها مثيرة. وأن زوجها قرر أن يختارها له في يوم ذهبت إلى حمام السباحة. ولسبب ما قررت ألا تنزل إلى الماء وجلست تحت الشمس وضبطت هذا الرجل الذى أصبح زوجها ينظر إلى ساقها من بعيد وأعجبته وتزوجها.. وفي يوم من الأيام كانت ترتدى ملابسها في الغرفة فوقفت عارية تماما. وفجأة قال لها زوجها: ما هذه البقعة!

ونظرت الزوجة إلى حيث اتجهت عينا الزوج، إلى خصرها ثم قالت ولكن أين هذه البقعة أنا لا أراها!

ولكن الزوج عاد يقول لها هناك إلى جوار النافذة

وتطلعت إلى البقعة واندشت كيف أن الزوج استطاع أن يرى البقعة هناك دون أن تتوقف عيناه لحظة على جسمها الجميل. الذي رأى جانبا ضئيلا منه فاختارها كلها زوجة له. وذهبت إلى البقعة وأسندت ظهرها إليها، وسألت زوجها: وأين هذه البقعة. وهل هي كبيرة بهذه الدرجة. فقال دون أن يرفع رأسه.. كبيرة في حجم الرمانة!

وقالت له: الآن فقط عرفت أنك لم تعد تحبني. وسألها: ولكن لماذا؟

ولم تشأ أن ترد عليه. لقد أحست أن جسمها شفاف لا يحجب شيئا وراءه. أو أنها بلا جسم، فلم يعد زوجها ينظر إليه. فلم يعد لها، أو يعد له أى وجود.. أن بقعة على الحائط تلفته وتشغله وتثيره، وهذا الجسم العريان الجميل، لا يستوقف عينيه..

وفي هذه الأثناء ظهرت إحدى قريباته وكانت ضيفة عندهم.. فرأها في المرأة وقال لها: فستانك أقصر من اللازم!

وكان فستان الزوجة في هذا اليوم أقصر من اللازم بل أنها تعمدت أن تكشف صدرها.. ولو نظر إلى نفس المرأة لوجد أن الزوجة قد كشفت الكثير. ولكنه لم ير إلا هذه الضيفة. تأكدت الزوجة أنها بلا جسم.. وأن الجسم العريان لم يعد جسما ولا شيئا..

وعندما ذهب الرجل إلى صيد البط لاحظت أنه يختلس القبلات من هذه الضيفة وقررت الزوجة أن تنتهز هذه الفرصة وتطلق عليهما الرصاص.. وطارت بطة. وأصابها الزوج وسقطت البطة دامية.. وتعثرت الزوجة وسقطت على الأرض.. وهى على الأرض رأت قدمي زوجها.. ولاحظت أن حذاءه مر بالقرب من وجهها. حتى الحذاء لم يعد يشعر برأسها.. أنها «خفية» لأنها

تعرت أكثر مما يجب.. فقررت أن تتغطى أكثر مما يجب حتى يراها الزوج من جديد.

وفي الكتاب المقدس أن إخوة يوسف عليه السلام قد جردوه من قميصه الملون ثم رموه في البئر.. فكأنهم جردوه من الشيء الذي يجعله مرئيا، ثم أخفوه بعيدا عن العيون!

ومحاولات كثيرة لن تنتهى لأن يقترب الانسان من الانسان ليرى أكثر وأعمق.

وكما أن الانسان يلمس بيده، فإنه أقدر على اللمس بالعين أيضا..

وكما أن الانسان يضع أمام عينه عدسات من الزجاج ليرى البعيد قريبا، ويرى الصغيرة كبيرا، فإن الانسان أيضا يضع الأثواب على أجساد النساء ليرى أوضح.. أن العدسات - أو هذا الفاصل الزجاجي - هو وحده الذى يجعلنا قادرين أوضح وأعمق.. وكلما أصبحت عدسات المراسد أكبر وأوسع، أصبحت أقدر على أن ترى أعماق الفضاء.. إنها إذن هذه الحوائل أو الفواصل من الزجاج والحديد التى تجعلنا نلمس أصعب الكائنات عن بعد: الانسان..

فإذا اقتربنا تغيرت الصورة، وتنوعت واعوجت وتلونت، مفردات الكلام!

كلمات كثيرة من قماش نراها ولا نسمعها (٤)

عندما انتشرت موسيقى « الخنافس » البريطانية في العالم قيل أن أوروبا كلها قد تحررت من أمريكا.. وعندما انتشرت موضحة « المينسى جوب » البريطانية قيل أن العالم كله قد تحرر من دكتاتورية الأناقة الفرنسية.. فهذه الموضات وغيرها ليست تحررا أو تطورا فنيا فقط، ولكن هذه الموضات هي لغات متعددة لظروف متغيرة..

فعلى الأزياء يقال كلام كثير.. لأن الأزياء صورة لظروف وأحوال واضطرابات فردية واجتماعية في عصور متتالية.. وليس صحيحا أن الانسان يمشى في خط مستقيم وفي اتجاه واحد..

فالانسان كثيرا ما ارتد وانتكس وتقهر.. وكل الموضات أكبر دليل على ذلك.. فموضات الرجال الآن ترجع إلى خمسين عاما وأحيانا إلى مائة عام وموضات النساء ترجع إلى أربعين عاما.

صحيح أن وزن ملابس المرأة يعادل عشر وزن ملابس الرجل وهي أخف وأصح – لأنها تعرض جسم المرأة للشمس والهواء. ولكن ملابس

المرأة أكثر تعقيدا وأكثر صعوبة.. وربما كانت ملابس المرأة هي أكبر دليل على تطور صناعات النسيج والأصباغ والمستحضرات الكيميائية والمجوهرات واللؤلؤ والجلود والزجاج.

فتاريخ المرأة مكتوب على أزيائها – وهو تاريخ كتبه الرجل وعرضته المرأة. فما أكثر ما تقوله الأزياء لكل عين تراها أو تلمسها أو تثار لسماعها من بعيد أو من قريب.

ولم يحدث أن اضطربت خطوط أزياء المرأة وبلغاتها المتعددة، كما حدث بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وما أكثر الاضطرابات الاقتصادية والسياسية والعسكرية وما أعجب محاولات المرأة في أن تتحرر من الرجل. وما أروع محاولات الرجل في أن يعيد المرأة الأم، بعد أن مل من المرأة الزوجة والمرأة العشيقة. وعندما حاولت المرأة أن تكون أما للرجل، فإذا بها تجد نفسها أما لطفل.. وعندما حاولت المرأة أن توظف الرجل في الطفل، لم تجد إلا الطفل في الرجل.

وبسرعة نستطيع أن نقول أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠ دخلت السيارة حياة الناس.. وكان دخولها بداية مرحلة جديدة في الحركة والانتقال والتداخل بين المدن والقرى والدول. وكان من الضروري أن يمشى مصمموا الأزياء وراء المرأة ليروا ما هي الأزياء التي تريحتها والتي تجعلها جميلة. والتي لا تفضحها بضيقها والتي لا تتمزق في كل مرة تحاول المرأة أن تقود السيارة – يجب على مصممي الأزياء أن يراعوا «الوظيفة» الجديدة للمرأة..

وفي سنة ١٩١٩ استطاع العالم الانجليزي وذرفورد أن يحطم الذرة..

أما التليفزيون فقد ظهر في أوروبا سنة ١٩٢٨.

كما ظهرت في الفن مدرسة جديدة اسمها «التكعية» وهذه المدرسة أشاعت الخطوط الهندسية في كل شيء يلمسه الرجل أو يرتديه..

ومن أهم نتائج الحرب العالمية الأولى ذلك الشعور بالقرع عند الشبان. فهم لا يريدون أن يكرروا حماقة الماضي. ثم أنهم قد تملصوا وتنصلوا من كل أسباب واستمرار ونتائج الحرب. فلا هم الذين أرادوها أو أشعلوها أو ماتوا بسببها. فهم يلقون بأنفسهم على كل جديد. لأن ظهور الجديد إعلان صارخ بأنه لا قديم ولا عودة إلى شيء مضى. فالثورة كلها على المكان من أجل الزمان.. والزمان هو المستقبل.

ولأول مرة في تاريخ الإنسان أصبح عدد النساء أكبر من عدد الرجال. فقد جاءت نار الحرب وأكلت الرجال. وكان من الممكن أن يبدو ذلك ملحوظا إذا سار الإنسان في شوارع العواصم الكبرى. ولكن المرأة هي التي جعلت ذلك غير واضح. فقد عادت المرأة من الحرب ترتدي ملابس الرجال، وتجعل شعرها قصيرا مثلهم. فهي ترتدي برنيطة وليس من السهل أن تحشر كل رأسها في هذه الخوذات العسكرية. فكأن المرأة قد قدرت أن تدخل معسكر الرجال بملابس وموضات الرجال. ولكن هناك أعمالا كثيرة وأبوابا واسعة انفتحت أمام المرأة لكي تعمل في المقعد الذي تركه الرجل بوفاته. وكان من الطبيعي أن تقف الفتاة على قدميها دون مساعدة من أحد. ودون طاعة لأحد. فقد كفر الناس بالطاعة العمياء التي أدت إلى الحرب العالمية. وتحررت المرأة وعملت ولبست وأقامت وحدها في الشقة أو بيت، مع زوج أو مع أي إنسان.

أما الجنود العائدون من الميدان فقد تعبوا من حياة الدخان والخنادق والأسلاك والنار والظلام واليأس، فقد قرروا أن يعيشوا وأن تكون لهم

بيوت. وهذه البيوت ليسكنوها مع أولادهم من زوجات محترمات. يختلفون عن العشيقة وعن بنات الليل. ولذلك فإن هذا الحنين إلى البيت جعل المرأة تعيش من أجل البيت والمطبخ والأولاد والكنيسة. أنها امرأة زوجة وأم تحمى أولادها ويحميهم الزوج.

وامتلا جسم المرأة. وأصبح الامتلاء هو المثل الأعلى للجمال. وكانت المرأة تستخدم الكورسيه منذ سنة ١٨٢٠، ولكنه بعد الحرب العالمية الأولى قد نزعت. كما أن المرأة عادت إلى استخدام الصديري الذى يضغط على صدرها فيخفى بروزه واستدارته - أنها المرأة الأم.

وفي العشرينات ظهرت الفساتين بلاأكمام ولها فتحة صدر واسعة.. وفي سنة ١٩٢١ اختفى خط الوسط. ونزل حتى أطراف الأرداف. وهذه الخطوط تعود بالموضة إلى العصور الوسطى.

نقول مدام كويت أديبة فرنسا: كأن المرأة كانت في أجازة من أنوثتها، وفجأة قررت العودة إلى البيت. وأغلقت الباب والنافذة وسمعت عشرينات هذا القرن ضحكا ولعبا.. فالزوج قد عاد وأولاده سعداء!

وظهرت الجوارب الحريرية الملونة: الأحمر والبيج والأحمر المحروق في سنة ١٩٢٤. لقد اختارت المرأة اللون البرنزي لها وللرجل. وهو لون الشمس كما تريدها، أى الشمس كما يتقلب أمامها. وليس لون الشمس كما تريده الشمس أو تفرضه علينا. وبذلك عوضت المرأة زوجها وصديقها عن الخشونة التى لقيها أثناء سنوات الحرب.

واختفى كعب الحذاء المحنى وظهر الكعب المستقيم. وكانوا يسمونه في ذلك الوقت بالكعب الروسى. وهذا الحذاء يحمى الجوارب الحريرية. ولكن له

عيبا خطيرا. فالفتاة التى ترتدى الاحذية ذات الكعوب العالية الغليظة تؤكد للناس أنها تمشى على رجليها، أى أنها لا تتركب سيارة، تركبها أو تقودها بنفسها.. ولذلك كانت الموضة أن ترتدى المرأة أحذية ذات كعب رفيع.. وهى بذلك تقول ليس من عادتى المشى فأنا أركب سيارة.

وفى سنة ١٩٣٠ ظهرت موضة المانيكير فى أوروبا، وإن كان المانيكير هذا قد عرفته المرأة المصرية من ألوف السنين. وأصبحت المرأة حريصة على أن تبين أظافرها الدموية وهى تدخن أو تشرب علنا - فقد أصبح هذا من حقها، ودليلا على أنها تساوت بالرجل، أى تحررت.

وعندما ترقص المرأة فى الأندية والحفلات لم تعد تميل إلى الرقص الهادئ وإنما إلى الرقص العنيف الذى يكشف حيويتها وشبابها. فلم تعد تحب القيثارة، وإنما تفضل رعشة السكسفون. واستغنت عن أوركسترا الفجر بالجاز الزنجى الأمريكى.

أما خطوط أزياء المرأة فهى دغرى وهى أمينة على جسمها. تكشفه بحساب تكتم أسرارها فى هذا الجانب، وتشيعها فى الجانب الآخر. وأن كانت معظم أزياء المرأة فى هذه العشرينات تبدو كأن مصممها قد جعلوها لكى نراها من الخلف وهى تسير.. أى أن المرأة كانت حريصة على أن تسمع كلمات الاطراء، وليس مهما أن ترى قائلها.. فوجه الرجل لا يهم ولكن حضوره هو الذى يهم!

والأفلام كانت تعرض علينا وجه المرأة وعينيها العاطفتين وشفتيها وقد انطبقتا فى صمت. وكانت الأفلام بلا ألوان فى ذلك الوقت. ولكن التركيز كله على الوجه.. مادامت المرأة لا تتحرك بدرجة كافية. ومادام الرجال ينظرون

إليها بعد أن تكون قد تجاوزتهم قليلا. فالجديد هو أن يروا وجهها على الشاشة !

وتعاونت دور الأزياء مع مصانع النسيج في أن يكون الكم طويلا، مادامت المرأة حريصة على بقاء الفستان قصيرا. وظل ذيل الفستان طالعا نازلا. واصحاب المصانع ترتفع قلوبهم وتهبط مع ذيل الفستان. ولكن الاتجاه العام دائما إلى رفع ذيل الفستان.

وفي سنة ١٩٢٧ ارتفع الفستان إلى منتصف الساق نهارا، نزل حتى الكعب ليلا.

وبعد ذلك بوقت قصير حدثت الأزمة المالية الاولى في أمريكا..

واتجهت العيون إلى أمريكا. ورأت أوروبا أن الفتاة الأمريكية الرياضية حريصة على كشف ساقها.. على عكس الفرنسية التي تحرص على كشفها واخفائها من وقت إلى آخر. وانتصرت الفتاة الأمريكية.. أو الانوثة التي لا وطن لها ولا دين ولا لون.

أما في الثلاثينات فقد هبطت على العالم طبقات من اليأس والحزن.. فثلاثينات هذا القرن عرفت حروبا متعددة ومختلفة: الحرب في الحبشة وفي الشرق الأقصى والحرب الأهلية في أسبانيا والحرب العالمية الثانية. والعالم كله عرف النازية والفاشية والفلانغة - حرب فرانكو - وحارت موضوعات مصممي الأزياء بين تحرير الجسم وخنقه. وأصبحت الخطوط عصبية. فالخصر مخنوق. والأكتاف عالية عارية وعاد الكورسيه يشدد الخناق على الأرداف. واتسعت الجونلات.

وكان من نتائج الحروب في كل مكان والخوف على البيت وعلى الأسرة وعلى الأمومة والأنوثة، أن عادت المرأة إلى ما كانت عليه. طال شعرها. وشجعت جريتا جاربو على ذلك في كل أفلامها. ومنذ أزمة ميونخ سنة ١٩١٨ وبعد سفر تشمبرلن الانجليزي إلى لقاء هتلر عادت برنيطة أهل البترول وأضيفت لها ريشة من أى لون.

وفي هذا الوقت ظهرت المدرسة السريالية في الرسم والشعر.. وظهرت مبادئ الوجودية الأوربية.

وفي سنة ١٩٢٢ كان مصمم الأزياء الايطالى اسكباريللى قد قدم البرنيطة التى على شكل حذاء متهاك أسرع النساء بوضعها على رأسها لأنها موضة !

وظهرت المرأة بالشورت وكذلك البنطلون ولم يعد أحد ينظر إليها على أنها شاذة - وإنما هى تتمشى مع الموضة.

ولأول مرة منذ ألفى سنة ظهرت أقدام المرأة عارية - لأول مرة في أوروبا طبعاً ولا بد أن تجمل المرأة أقدامها.. فظهر البديكير - أى صبغ أظافر الرجلين وأول الألوان هو أحمر عادة..

وتعري ظهر المرأة في سنة ١٩٤٠ وما بعدها.

وفي سنة ١٩٤٧ ابتدع مصمم الأزياء الفرنسى كريستيان ديور فستان « النظرة الجديدة » أو « الطلعة الجديدة » وهذه الموضة تعيد للمرأة أنوثتها فالفستان طويل. والشعر الطويل، وعاد الكورسيه والصديري أيضاً. وأعلن الأطباء في ذلك الوقت أن الصديري الذى يضغط على صدرها لا يمكن الرئتين من التنفس. ولذلك فالصديري يجب أن يراعى وظائف الأعضاء.

وعاد الصديري أوسع والصدر ابرز وأكثر استدارة.. وظلت المرأة الهندية على ساحل الملبار ترتدى الصديري الذي «يفعص» صدرها ويسويه ببقية الجسم.

وعندما انتهت الحرب في سنة ١٩٤٥ كان ذلك انتصارا للإنسانية والحرية ولكن أجهزة الدعاية أمسكت الناس وهي تضحك وأوقفتها وهي ترقص، وأخرجت الملاعق من أفواهها، وأرجعت الطعام من معداتها وراحت هذه الأبواق تشكك الإنسان في الإنسان، وتشكك في السلام. وتعيد الخوف إلى عرشه وتكرر ليل نهار، أن الحرب قد خمدت، ولكن سباق التسلح قد بدأ. وأن نهاية الإنسان سوف تكون أسرع وأوجع واستولت حروب الأعصاب على الإنسان وإذا كان الإنسان قد وضع سلاحا فإن المرأة وضعت سلاحا آخر - والأزياء سلاحها وارتدت المرأة أزياء تشبه أزياء الجنود بألوانها وخطوطها.. فكما أن الوحدة الفكرية ضرورية، فالوحدة المظهرية ضرورية أيضا.

فعادت موضة سنة ١٨٨٠ موضة النظرة الجديدة.. ولكنها لم تطل.

ولكن شيئا تغير. فقد كانت باريس مصدر الإشعاع الأناقي والجمال منذ عصور فرساي. عندما كان بلاط فرساي هو بلاط البلاط.. ومن هذه الضاحية الملكية خرجت كل أناقة المرأة.. حتى ملوك فرنسا كانوا يبعثون بالعرائس الصغيرة إلى كل عواصم العالم. وهذه العرائس من القماش ترتدى أجمل أنواع الفساتين.

فقد كان ذلك سابقا على عصر عارضات الأزياء بمئات السنين.

وإذا كانت فرنسا هي دكتاتورية الأناقة، فإن رجال فرنسا ليسوا أحسن مصممي الأزياء!

وفي سنة ١٨٤٦ وصل إلى باريس شاب انجليزي عاطل اسمه «ورث» هذا الشاب كانت عينه على كل فستان وفي خياله تعديلات جديدة. وبدخول هذا الشاب إلى فرنسا دخلت العناصر الأجنبية على صناعة الأناقة. ومن بعده جاء كثيرون وكثيرات.

وانتشرت الموضات عن السينما والتلفزيون والسباحة وأصبحت الموضات ديمقراطية.

ولكن بقي هؤلاء العباقرة الشواذ : مصمموا الأزياء. وأكثرهم شواذ جنسيا في كل العالم. ومن العجيب أن هؤلاء الذين ارتبطت حياتهم وأمجادهم بالمرأة لم يبعدوا عنها كثيرا بل أن شذوذهم جعلوه موضوعة. ولو عرفت المرأة لماذا اخترعت أصناف معينة من العطور وقد ملأت السوق.. أو لماذا ارتفع الفستان إلى منتصف الركبة أو فوقها قليلا، لرفضت أن ترتدى هذه الأزياء ولو ساعة أو يوما فهناك أسباب شخصية شاذة هي التي جعلت المزاج الشخصي أو النزوة الخلفية ظاهرة عامة.

بعد «النظرة الجديدة» ظهر الشوال والترابيز والامبير.

وظهرت الباروكة على كل رأس. وظهرت البنطلونات الضيقة والقمصان الملونة والمشجرة وتصلح للجنسين.

والمرأة الفرعونية والرجل الفرعوني كلاهما كان يحلق شعره بالموسى. وتضع الباروكة. وكان الرجل يضع اللحي والشوارب المستعارة.

واليهود في عصر التوراة كانت لهم شعور طويلة. وقصة شمشون ودليلة تدل على ذلك. فلما سألت دليله البطل شمشون أين قوته، قال إنها في شعره. وفي سفر «صموئيل» نقرأ أن ايسالوم كان يحلق شعره مرة كل سنة وكان شعره يزن مائتي «شاقل» - أحد الموازين القديمة.

والقديس بوليس كان يقول : عار على الرجل إذا طال شعره، والمجد للمرأة إذا أطالت شعرها.

وأما شارلمان فكان شعره ينزل إلى كتفيه وابنه كان شعره قصير، وحفيده كان أصلع.

وفي القرن الثاني عشر كان هنرى الأول ملك انجلترا يرغب رعاياه على حلاقة شعرهم.. وبعد ستة قرون فعل القيصر بطرس الأكبر نفس الشيء. مع رعاياه.. ثم اختفى شعر المرأة تحت أشكال وألوان من القبعات أكثر من ستة قرون. وكانت المرأة إذا حاولت أن تظهر خصلة منه، جعلت هذه الخصلة من الشعر المستعار. ثم تراكت الورد فوق رأسها لتخفى شعرها. أو لتكشف عنه بصورة متلصصة كما كان في الريف المصرى!

وبعد الثورة الفرنسية أصبحت الثورة على كل شيء.. على كل أوامر واستبداد الرجل ودكتاتوريته غير المعقولة في كل شيء. وأطل شعر المرأة من رأسها. وارتكبت المرأة كل المحرمات.

يقول د. دوى يوهانسن في كتابه «الجسم والأزياء» صفحة ٢٢٢ : أصبحت الثورة إعلانا سريا. وهذه تسمية غريبة فهي إعلان، أو كالأعلان اتفق عليه كل الشبان. وهم في نفس الوقت لا يجاهرون به. فهم لا يريدون كل ما كان قديما وهم يلقون عن أكتافهم ويلات التاريخ القديم. وهم يضربون ويبيطشون ويلعنون ولكنهم في نفس الوقت لا يفعلون ما يضير الغير. حتى هذه الألعاب البهلوانية التى يقوم بها رواد الفضاء لم تعد تضحكهم. أن هذه الرحلات تتكلف ملايين الملايين والناس أحوج إليها في كل مكان. والألعاب البهلوانية والدعوات والصلوات المفتعلة فوق القمر

لا تشغلهم عن الحقيقة المؤلمة، أن الآباء قد سلبوا الأبناء ملايين الملايين هم أحق الناس بها.. فلم ينخدع الجيل الجديد عن بشائع وفضائح الأرض. ولم ينسوا حرب فيتنام. أن كل الأزياء تقول كلاما كثيرا، إلى جانب الجنس والجمال والدلال، قضايا في السياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والحروب. ابتداء من القفطان المصرى القديم إلى أحذية القوازيق وياقات الصين، ومجوهرات فارس ولؤلؤ اليابان. إن هؤلاء الشبان الذين يفضلون الملابس القديمة القذرة المهلهلة.. إنما يحاولون أن يلغوا الفوارق بينهم وبين الفقراء العاجزين عن شراء الجديد أنهم لا يساهمون بمليم واحد في شراء أروع الأقمشة التى تنتجها أعظم مصانع النسيج في العالم.. أنهم يرفضون الموضات لأنهم يرفضون الفوارق بين الرجال والنساء.. أن مثلهم الأعلى هو الملابس الصينية التى يرتديها الجميع والقبعات الصينية التى يرتديها الجميع.. ويفضلون الأحذية الروسية التى يرتديها كل أبناء الجنسين.. أن سلوكهم العدائى للمجتمع القديم هو نوع من الاحتجاج والاعتراض العنيف إنهم يفعلون ما يفعله البوذيون احتجاجا على حروب فيتنام.. أنهم يكونون بالعرق والنيران جلودهم ويلعنون الذين أشعلوها نارا على كل المطالبين بالحرية والكرامة للشعوب.

ويقول د. يوهانسن أيضا.. أنه فى داخل الأزياء معارك جادة.. أن هناك محاولات متجددة لاسقاط الرجل عن عرش الأناقة. واثاحة الفرصة للمرأة أن تقول كلمتها فيما يعجبها وما يجب أن يعجب به الرجل.

ثم أن هناك حربا أخرى بين البيض والسود.. فلا تزال الموضة بخطوطها وألوانها من أجل البيضاء والفقراء ولكن هناك عروشا للسوداوات والسمراوات قد أقيمت. ثم أن هناك عارضات أزياء ذات ألوان

أخرى يتقدم من الصفوف. إن دور الأزياء تكسب كثيرا. إن الذى حاولته السيدة كوكو شانيل كان نوعا من الكفر فهى اخترعت ملابس للعاملات. وقدمت هذه الملابس للطبقة الراقية أنها أدخلت الشعب قصور الملوك دون أن يدري بذلك.. أن الأزياء ليست عبثا، أن ملايين الملايين من الجنيهاات تنفقها الشعوب عن طيب خاطر.. ولكن المعانى وراء هذه الأزياء هى التى لا يمكن أن نقدرها بمال..

ويقول يوهانسن : أن النبيل الفرنسى الذى وقف أمام زوجته التى عادت غاضبة إلى أهلها يقول : لو كنت شيئا آخر غير هذه الأزياء.. والنبيل الفرنسى يقصد إنها لا تساوى إلفساتينها. ومعه حق. لولا أن هذا الأمير هو الذى لا يرى من المرأة إلفساتينها.. ولكن المرأة شىء آخر غير الفساتين. إنها كائن حى.. وذوق متجدد.. ثم أن الذين صمموها، لم يطلعوه على هذا المعنى.. أنهم اختاروا نفس الخطوط للنبيلة وحاشيتها.. وكان الخلاف فقط فى نوع القماش.. أن النبيل لم يعرف « الجريمة » التى ارتكبها مصمم الأزياء.. أنه ديمقراطى خبيث.. أنه ميكروب شعبى قد تسلل إلى قصر النبيل.. إلى جسد امرأته.. إلى عينيه هو.. وليس عليه ألا يستخدم عينيه وينظر إلى حاشيته. لو فعل لادرك الثورة الأنيقة الحريية التى أحاطت بسريره.

فما أكثر ما تقوله الأزياء لمن يلمسها بعينه عن بعد، وببيده عن قرب.. كثيرا جدا يقال بلا كلمات بين الرجال والنساء!

من عينيك خرجت ودخلت هذه المعاني وغيرها ! (٥)

ما معنى أن تنظر إلى إنسان؟ ما معنى أن تملأ عينيك منه؟ ما معنى أنه يملأ عينيك أو أنك أسقطته من عينيك.. أو ما معنى أن تقول: وكأني ما رأيت وما سمعت ولماذا ننظر إلى إنسان بنصف عين أو بجانب من العين.. أو ما الذي تقصده وأنت تكرر: أنه إنسان تسمعه ولا تراه؟ أو تراه ولا تسمعه.. أو لا تشبع منه العين والأذن؟

ثم ما معنى أن ترتاد إنسانا بعينيك أو تكتسحه من فوق لتحت أو من تحت لفوق - وهي عادة نسائية مؤلمة وأسلوب رجالي وقح؟

ونحن أطفال نعتمد تماما على أمهاتنا وفي هذه المرحلة من العمر نحب الحب بمعناه الحقيقي: العطاء الدائم. فالأم تعطي بحساب ومن غير حساب. والطفل يتقبل وينتظر ويعيش على حبها.. ويجد كل شيء قريبا منه قريبا من كل أطرافه.. وكلما كبر الطفل بعدت المسافة التي بينه وبين أمه. وعبر هذه المسافات الصغيرة يمد الطفل أعضائه.. ينظر ويبتسم.. وينتظر القبلات والأحضان والطعام والأمان في حضن الأم.. في السرير الذي يشبه حضن الأم: في النعومة والدفء والأمان..

ويكبر الطفل ويبعد الطفل.. ويمد الطفل يده إلى العالم حوله.. أن أمه قد ابتعدت قليلا. وهذا طبيعي. وهو قد استطاع أن يتحرك وأن يرى وأن يلمس وأن يفهم. وأن يقف على رجليه هو، وليس على رجليها، وينام على سريريه هو، وليس على صدرها، وأن يأكل بيده هو، لا من يديها..

ويكبر الطفل ويصبح كل شيء حوله بحساب.. أو عليه هو أن يعمل حسابا لكل شيء وأن يتحفظ هو وأن يتحفظ الذين حوله. أنه لم يعد طفلا. ويجب ألا يكون. ولا بد أن يتعلم أن هناك حدودا وسدودا وحقوقا وعليه أن يفكر قبل أن يطلب ويفكر قبل أن يأخذ ويعتدل إذا أخذ ويشكر إذا أكل. وينتظر وربما كان الفارق بين الأطفال في عالم الانسان وعالم الحيوان، أن طفولة الانسان أطول. وصلته بأبويه أعمق. ففي عالم القرد – أقرب الحيوانات إلينا – نجد أن القرد إذا كبر فإن أمه تطرده. وهو منذ هذه اللحظة لا يصبح ابنها. وإنما يصبح واحدا من الذكور المتنافسين عليها، أي يصبح غريبا عنها. انتهى كل شيء!

ولكن الطفل أو الشاب أو المراهق أو الرجل يظل على صلة بأمه ونساء أخريات يحاول أن يجد الزميلة والصديقة والخطيبة والحبيبية والزوجة. ولا يمكن أن تكون الصلة التي بينه وبين أمه هي صلة زمالة. وإنما هي صلة حب. كل الحب؟ طبعاً لا.. بعض الحب فهو في حاجة إلى حب من نوع آخر. والأم قد تطور حبها، ثم أن لدى الأم أبناء آخرين يشغلونها. ثم أن الابن لا يستطيع أن يظل على حجرها أو على صدرها.. لقد كبر واتجه إلى صدور أخرى وحياة ثانية وبيت جديد..

وإذا كان الطفل قد اعتاد على الحب، نوع معين من الحب، حب العطاء الدائم فإن الحب بعيدا عن الأم سيكون من نوع آخر. أنه حب كرة القدم:

هات وخذ.. يعطى ليأخذ. أو يعطى وهو يأخذ.. تماما كما يحدث في القبلات.. فأنت تأخذها وتعطيها في نفس الوقت!

فكيف هذا الحب بعيدا عن الأم!

هذا هو السؤال الذى يواجه الطفل إذا كبر. كيف يبدأ كيف يستمر؟ كيف يتم أو كيف نقع فيه أو كيف يقع لنا أو يقع علينا؟

ونحن أطفال كل شىء قريب. ونحن كبار فكل شىء بعيد.. ونحن أطفال كل شىء حاضر وجاهز. ملتصق. ونحن كبار فكل شىء هناك بعيد ينتظرنا لنذهب إليه كيف تبدأ العلاقة بالجنس الآخر. كيف تبدأ؟ كيف تمضى؟ كيف تقوى؟ كيف تثبت؟ هذا هو السؤال أيضا.

يقول العالم الانجليزى دزموند موريس في كتابه «السلوك الودى» وهو من أمتع الكتب التى صدرت هذا العام:

إن هناك اثنتى عشرة مرحلة لكى يكون هناك حب. والانسان لا يمر بهذه المراحل واحدة واحدة. وإنما من الممكن أن يقطعها الانسان بسرعة تتفاوت من شخص إلى شخص. وهذه المراحل تبدأ بأن ينظر إنسان إلى جسد امرأة. وبعد ذلك إلى وجهها وإلى عينيها.. ثم يلمس يدها وذراعها وكتفها.. الخ.. ويعانقها ويقبلها.. ويحبها ويتزوجها بعد ذلك.

والكاتب الانجليزى يرى أن هذه المراحل لا ينطلق فيها الانسان بهذا الترتيب وإنما هذا الترتيب بقصد الشرح والتوضيح فقط

وشاعرنا شوقى أشار إلى ذلك عندما قال: نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء.. فلقاء يكون فيه دواء، ولقاء يكون فيه الداء.. إلخ.

والانسان يقع في الحب كما يقع من السرير، أو كما يقع من النافذة.. كل واحد حسب ظروفه. والمثل الأسباني يقول: وقع واقفا، أو وقع جالسا، أنه وقع في الحب! أي لا يهم كيف وقع، المهم أنه وقع. والحب وقوع.

والمرحلة الأولى هي: النظر إلى الجسم..

فالانسان يبدأ عادة ينظر إلى امرأة من بعيد.. وبسرعة يقوم عقله بعمليات حسابية. فيقول: طويلة.. قصيرة.. شقراء.. سمراء.. رشيقة.. ويدخل في تفاصيل الرشاقة.. أنيقة.. ويناقش مفردات الأناقة.. قصيرة.. غبية.. ربما كانت المرأة أسرع من الرجل في النظرات الخاطفة السريعة والتي تلم بكثير من التفاصيل. فالمرأة مدربة تدريباً غريزيا على النظر من بعيد، والتظاهر بأنها لا ترى.. فهي بسرعة تكون قد عرفت أن كان قميصك قد نقص منه زرار، أو أن حذاءك لامع مثل أظافرك مثل أسنانك.. وأن كان شعرك ناعماً أو خشناً.. وإن كنت تلميذاً غلباناً، أو والداً لتلاميذ وأنتك غلبان.. والمرأة عندها قدرة شيطانية على أن تعرف بسرعة فائقة أشياء كثيرة في وقت قصير من مجرد النظر إليك. ولو حاول رجل أن يقتل امرأة بسكين وكان ذلك مفاجأة. فإن هذه المفاجأة وهذا الرعب لا يضعف من قدرتها على الملاحظة. فهي تستطيع أن تقول بعد ذلك أن السكين كان صدئاً، وأنه سكين بصل، فقد كانت فيه رائحة البصل وأنت وأنت تمسك السكين كان هناك بعض الصابون على ذقنك وأنت لم تكمل حلقة جزء من الجانب الأيسر من شفتك العليا – مع أن العكس لو حدث للرجل، فإنه ينسى أن كانت المرأة التي تريد أن تقتله قد أمسكت سكين بصل أو سكين ورق.. وينسى أن كان هذا شعرها أو باروكة – أنه لا ينسى ولكن قدرته على ملاحظة الجزئيات وبهذه السرعة الهائلة، لا ترقى إلى مستوى قدرة المرأة، أية امرأة، أو ضابط المباحث الجنائية!

والانسان يكون حرا إذا نظر إلى جسم امرأة، لا تراه، ولكن إذا أحست المرأة وهذا يحدث كثيرا، بأن رجلا ينظر إليها، فنظرت إليه فإنه يحول عينيه بعيدا عنها. كأنه يعتذر أو يتوارى - أو يريد أن يقول أنه لم يقصدها. وإنما يقصد واحدة أخرى وقفت بعيدا.

وعلى الرغم من أن المرأة تعلم أنها ستكون ملتقى العيون، وأنها وقفت أمام المرأة ساعات تنظر إلى نفسها بعيون الآخرين، فإن النظر إليها يضايقها. أو على الأصح اختلاس النظر يضايقها.. أو أصح من ذلك، النظر غير المرغوب هو الذى يضايقها.. وليس شيئا قليلا أن ينظر رجل إلى المرأة. أن كثيرا من الكلام الصامت يقوله لنفسه. فالرجل يملأ عينيه من كل الألوان والخطوط والانحناءات. ويقول ويبتلع ريقه. والمرأة أيضا. ولكن هناك أناسا يملأون العين بسرعة.. وهناك أناسا ينظرون وكأنهم يملأون العين على مهل.. وتجيء عملية الملء مثل عمليات تعبئة جوالات البصل: واحدة واحدة.. فنجد الرجل غالبا - والمرأة نادرا - ينظر إلى أعلى. وإلى الوسط. وإلى أسفل. على مهل شديد. ويضع كل واحدة في الجوال.. وأحيانا يغير رأيه فيلقى بالأشياء ويبدأ من جديد..

وهناك أناس يلتقطون الجسم، كما تلتقط الكاميرا الصورة.. في خطفة عين أو ومضة عين. ويسرعة هائلة تكون لديهم كل المعانى. وأكثر من ذلك يتحولون من مجرد النظر إلى الجسم خلسة، إلى النظر إليه علنا.. أى على مرأى من صاحبة الجسم ويعلم منها..

وهذه النظرات لا تخلو من معنى.. لذلك اتخذت الأديان موقفا عدائيا من النظرات والرغبات أو النظرات التى هى رغبات.. أو النظرات السراغبة أو «الرغبية».. والرسول عليه السلام يقول: لك الأولى وعليك الثانية - أى

أن النظرة الأولى العابرة التي تخلو من الرغبة، لا بأس منها، ولكن النظرة التالية المتأنية المتفحصة هي التي ينهى عنها، لأنها ليست مجرد نظرة وإنما هي نظر وفحص وارتياح ولمس بالعين.

والمسيح عليه السلام يقول أيضا: من نظر إلى امرأة فاشتتهاها فكأنه زنى بها!

والتوراة عندما روت قصة آدم وحواء جعلتهما يستنكران أن يرى كل منهما الآخر عاريا أو ينظر الواحد إلى الآخر وهو عريان. مع أنهما زوجان أو أب وابنته التي خرجت من ضلعه.

وفي التوراة أيضا أن نوحا عليه السلام عندما شرب النبيذ، نسام على الأرض وتعرى وسخر ابنه منه.. وجاء اثنان من أبنائه والقيا عليه الغطاء. ولما صحا الأب وعرف ما فعله حام ابنه لعنه بأن يكون أسود الوجه، وأن يكون أولاده كذلك. لماذا؟ لأنه ما كان يجب أن يرى جسدا عاريا، أن يرى أباه ولا يخجل ويتأني في النظر إليه.. فهذه النظرة مليئة بالكلام.. مليئة بالمعاني التي تؤذى شعور الأب.. أما الولدان الطيبان فقد كانت نظراتهما عابرة. أما كانت لهما نظرات مليئة بالأسف على الأب، والأسف للابن..

فكل شيء يبدأ بالعين التي ترى.. والتي تقدم لنا معلومات عن الخطوة التالية.. فكيف تتصرف بعد ذلك؟ هل تتقدم خطوة. أو تختصر الخطوات كلها ونقفز إلى النهاية أو نقفز على النهاية.. والناس يفضلون النظرات المتفرجة من بعيد.. ولذلك يجدون لذة في المشي في الشوارع أو النظر من النافذة.. فهم يرون الكثير في وقت واحد.. ويفضلون الذهاب إلى الشواطئ فالعين تمتلئ من كل الناس، وليس من واحد بالذات.. ويذهبون إلى

السينما ليشاهدوا أناسا على الشاشة.. يشاهدون أناسا لا يعرفونهم ولا يرونهم ويقرأون القصص. وفي القصص نظرات إلى العراة والعاريات. وهى نظرات أمنة مطمئنة فأنت ترى من لا يراك ولا يحس بك.. ويقلبون في المجلات العارية على مهل وفي أى وقت وبحرية كاملة..

وفي فبراير سنة ١٩١٢ عندما فوجئ الناس في باريس بأن راقصات «الفولى برجير» قد توقفن فجأة على المسرح ونزعن ملابسهن تماما وانطفأ النور. لقد كن عاريات: لحظة واحدة اهتزت باريس لذلك وغيرها من العواصم الأخرى.. لماذا؟ لأن شيئا ممنوعا قد أبيع في ثانية واحدة. ولأن العيون صدمت، فهى لم تنهيا لهذه الشحنة الخاطفة. أو الشحنة المخطوفة.. فكأن الراقصات لم يقدمن شيئا، وإنما سرقن من الناس شيئا. هذه السرقة العارية المتفق عليها هى التى هزت الناس..

ولا تزال النظرات المتأنية، سرقة متأنية أيضا!

وإذا مضينا في مراحل تكوين علاقة بين رجل وامرأة، فإن المرحلة التالية ستكون: النظرة من العين إلى العين.. وهذه النظرة أجراء. أو أن هذه النظرة قد اتخذت على أساس معلومات جمعتها من نظرتك الأولى، فأنت قلت لنفسك: ممكن. أى يمكن أن تذهب في نظراتك، أو في بناء علاقاتك الجديدة، أو مغامراتك القادمة، على أساس أن تراها.. أن تراها في وجهها لتراك. أو على الأصح: أن تريها أنك تراها.. وأن تريك هى أنها تراك وأنها تعلم ذلك وتشجعه أو ترفضك وأن عينيها إشارات مرور حمراء. أى لا تتقدم. أو أن رموش عينيها سكاكين تقطع كل صلة تحاول أن تمدها إليها.. والأغنية الشعبية التى تقول: ورمش عين الحبيبه يفرش على فدان، لم يكن المقصود أن رمش عينيها طويل وعريض فقط، ولكن أن عينيها

قد رحبت وفرشت هذه المسافة الهائلة ليتقدم المحبوب.. فهي التي أقامت
الجسور وفرشت الأرض ودعت ورحبت وانتظرت !

وأنت لا تستطيع أن تنظر إلى فتاة «عيني عينك» دون أن يكون هناك
معنى .. وفي استطاعتك أن ترى ذلك في الأتوبيس أو في الأسانسير أو في
السينما.. جرب وأنت تنظر إلى أى وجه رجل أو امرأة. فإنك ستجد نفسك
في حرج شديد.. لماذا تنظر إلى عينيه مرة ثانية.. ولذلك تجد معظم الذين
يركبون معا يحاولون النظر إلى أية جهة أخرى.. فالذين يركبون الأسانسير
معا ينظرون إلى السقف أو إلى الأرض.. أو إلى أى شيء آخر إلا وجوه
الذين حولهم. لأنه لا معنى. لا ضرورة. وكذلك لا تستطيع أن تنظر إلى
عيني فتاة إلا إذا كانت هناك أسباب قوية. إلا إذا كان هناك اتفاق صامت
غابر معناه: لا مانع أن تنظر أنت وأن أنظر أنا..

فإذا فلتت من العين ابتسامة.. عين الفتاة. كانت هذه الابتسامة إضاءة
للطريق بينهما. تماما كما تدق على باب شقة. فينظرون من فتحة الباب،
فيرحبون بك.. فيضيئون النور ويفتحون الباب.. ويصبح الباب المفتوح
ذراعين يحتضنانك أى: أهلا وسهلا.

والمرحلة التالية أن تجد نفسك قد اقتربت وقلت شيئا. وهذه مرحلة:
الصوت للصوت.

أى أن تكون مسموعا وتكون هى مسموعة.. ومن صوتك تعرف هى،
ومن صوتها تعرف أنت، أى نوع من الناس. ذوق. مهذب. متعلم. رجل. لك
تجارب أو خام. كل ذلك من الصوت. وعندما تتكلم يظهر فمك وأسنانك..
ويلمع وجهك كله.. وتتحرك قسماؤك.. ومع حركة القسمات تبدو أنت
أوضح.. يدا وجسما وقلبا..

والمثل يقول : والعين تعشق قبل الأذن أحيانا. ومعناه أيضا : أن الأذن
تعشق قبل العين أحيانا.

فإذا كانت العين قد عشقت والأذن أيضا، فأنت تمضي في طريق مفتوح.
ويحدث كثيرا أن تسمع فتاة وراءك أو أمامك. ويعجبك كلامها. أسلوبها.
نبرة صوتها. وهذا الإعجاب بالأذن يجعلك تستدير لترى وتسمع..

ويحدث أن تخطئ في طلب رقم تليفون وترد عليك فتاة.. ويعجبك
صوتها وتلتصق أذنك بالتليفون لعلك تعرف صورة صاحبة الصوت. أي
لعلك تضم «الضوء إلى الصوت» معا، لتذهب إلى أبعد من ذلك..

ومن الغريب أن صاحبات الأصوات الجميلة في الدنيا لا يملأن العين،
وان كن ملأن الأذن وزيادة. وفي استطاعتك أن تستعرض صاحبات الحناجر
الذهبية من الرجال والنساء. ولكن الأذن تعتذر للعين. بل أن الأذن إذا
امتلات أغمضت العين.. وتحول العينان إلى أذنين أيضا.. كأننا نسمع
ولا نرى. وليس من الضروري أن نرى. فإذا امتلات الأذنان فاضتا على
العينين. حتى أقفلت العينين تماما وأسعدنا ذلك !

والشاعر الأعمى هوميروس كان يقول للطيور: غردى حتى أراك !
وكان يرى الطائر الجميل الصوت جميلا، ويرى قبيح الصوت قبيحا. أنه
يرى بالأذن !

والحادثة المشهورة لنابليون عندما قرر أن يطلق زوجته جوزفين..
استدرجها إلى قصر مالميزون. وسار الاثنان في الحديقة معا. وسبقها
نابليون بخطوة. وتوقف فجأة أمامها واصطدمت به.. وحاولت أن تقف في
مواجهته فقال لها: جوزفين. لم يبق أمامنا شيء يجب أن أطلقك !

وابتعد عنها خطوة. فقالت له : ولكن أريد أن أراك وأنت
تقولها !

وهي خبيثة تعرف أنه ليس أسهل من أن يقول الانسان ويخفى عينيه..
ولكن ما أصعب أن ينظر إلى عيني غيره. وأن ينظر إليه غيره. أنها أرادت
أن توقعه في مصيدة نظراتها، ولكنه هرب بعيدا عنها..

وعادت تقول له : أننى أستطيع أن أرى وجهك الآن.. أنه مزيج من
الوقاحة والخجل !

إنها سمعته ورأته في نفس الوقت ! ولكن مثل نابليون لم يكن يخجل
مما يقول أو يعمل أنه ملك ملوك العصر الحديث. واعتدل نابليون ليقول
لها : في استطاعتك أن ترى الصورة كاملة.. أننى أطلقك !

وتجىء مرحلة ثالثة وهي أن يحاول الانسان - عادة - أن يقترب
أكثر فيلمس يديها.. وهي مرحلة : اليد لليد.. نلمسها بالسلام. ويكون
السلام عابرا خاطفا. ولكن هذا اللمس العابر فيه أول لقاء جسمي بين
الاثنتين. وقد يشعر الرجل بشيء ولكن المرأة التي ركبت الطبيعة على
كل خلاياها عيونا الكترونية تقوم بعمليات حسابية سريعة أن يده
خشنة.. باردة أو ساخنة.. لينة.. أو جامدة.. فيه رجولة.. أو أنوثة.. فيه
شجاعة أو جرأة.. فيه أدب ورقة.. هو مؤدب ككل الصيادين - انظر إلى
صياد السمك كيف ينتظر هادئا بالساعات فإذا « غمرت » السنارة تحول
إلى وحش !

إن الرجل عادة عندما يمد يده فإنه لا يفعل أكثر من أن يمد يده..
ولكن المرأة عندما تمد يدها تكون قد مدت ذراعا أقرب ما تكون إلى

«الايريال» لتعرف أكثر وتسمع أكثر وتشم أكثر وتعطى أكثر.. وتأخذ أكثر..

لابد أن الفنان المجهول الذى رسم تمثال فينوس الشهير لم يشأ أن يجعل لها ذراعين. وإنما جعلها جميلة بعيدا هناك تمتد إليها الأيدي ولا تمد هى يدا واحدة.. يتقرب إليها الناس ويقتربون.. وتبقى هى هناك تنظر وتنظر. ولا يعرف أحد أن كانت تريد أو لا تريد.. أنها أمامهم وهذا يكفى. وعندما لم يبق من تمثالها إلا جسمها بلا ذراعين ولا رأس، أحس الذى يراه أنها أيضا قررت أن تلغى تفكيرها.. فى شىء أو فى أحد. أى لا تبادل أحدا أى شىء أو أى حس أو أى معنى.. وبذلك يصبح وجودها انكارا واستنكارا لأى إنسان يصرخ ولا يجد صدى، يقول ولا يجد أذنا، يفكر ويجد عقلا.

وبعد ذلك تتوالى مراحل القرب والاقتراب واللمس العابر واللمس العميق من الرجال والنساء – فى كل مكان لتكون هناك علاقات إنسانية زوج وزوجة. وأب وأم.. وأطفال من جديد يبحثون عن بديل لأحضان الأم. ويكون حب أو لا يكون حب.. ويكون النظر خاطفا أو عميقا، ويكون السلام لمسا أو عناقا.. وفى زحام الحياة والناس تطيش المعانى وتضع الأهداف.. وتزداد التوابل فى الطعام، والعرى فى الكلام والأغاني والأفلام.. ومعنى ذلك أن العين فى حاجة إلى من يثيرها وإلى من يشهيهها.. ومعنى ذلك أيضا أن الاحساسات قد تبلدت وبردت وتجمدت. وأن الحياة هى الاحساس. ولذلك يجب ايقاظه. وإذا كنا نستنكر العرى وفى نفس الوقت نصر عليه. فكأننا نقول أيضا: أنه لا يزال شيئا مرعوبا، وأن كان الناس يخلون من ذلك. أو يكذبون وينافقون. ولكن الحياة سوف تستمر. أراد الأحياء أو لم يريدوا..

وليس الحب – أعمق العلاقات بين الجنسين هي «مصنع» بناء الأجيال.. أو
الحضن الدافئ الآمن لخلق محبين جدد.

والجيل الذى يصنع العرى وينبذه هو الجيل الذى يبتدع الصراحة
وينكرها. ويصدق فى التعبير عنها، ويكذب فى تفكيرها.

وقديما عندما رسم الفنان العظيم مايكل انجلو لوحة المحاكمة الأخيرة
للمسيح فى القبة المسدسة لكنيسة القديس بطرس جعل المسيح والعذراء
والحواريين عراة.. وجعل الشياطين أيضا.. وثار بعض رجال الكنيسة
والبابوات. وكان لابد من تغطية الأجسام المقدسة. وجاء واحد من تلامذته
ووضع بعض القماش على أصحاب القداسة وأصحاب النجاسة أيضا.. أن
هذا العمل الفنى العظيم قد أدان العصر كله. وأدانه العصر أيضا. ولكن
بقى الاثنان فى وقت واحد.بقى الفنان العظيم، بلسوته الرائعة، وبقى
الكذب العظيم بأقمشته الضئيلة الواهية..

وعندما أقام السنيور ماسيمودلا أربيته أحد النبلاء وليمة كبرى احتفالاً
بعودة الفضيلة إلى هذه اللوحة، لاحظ واحد من الشعراء أن المدعوين قد
أكلوا وشربوا بسرعة. فقال جملته الباقية: إنكم ابتلعتم الطعام ولم تشعروا
له بلذة.. واخفيتم النبيذ فى بطونكم ولم تعرفوا له طعما.. إذن.. لقد بدأ
العصر الذى يفضل فيه الناس: الخبز على القبلات!

وهى نفس العبارة التى تتردد على كل الأفلام النفسية: أننا فى عصر
الآلة.. فكل شئ يتم بصورة عادية – أى كأنه عادة – السلام والكلام
والحب.. فالناس يأكلون أو يتأكلون ولا يعرفون القبلات.. يمارسون الحب
ولا يحنون إلى الحنان..

إن الناس يصنعون العلاقات.. الصلات.. الارتباطات..
الرباطات.. ويتقيّدون بها، ولأنها قيد، يتخلصون منها..
وينسون أن الحياة هي كل معاني الحب.. وأن الحب
وحده لا يكفي!.

هذه الحركات باليد ودلالاتها الغريبة !

(٦)

إذا قلت أن الانسان حيوان، فأنت تقول أن الانسان سيارة أو طياره
بلا فرامل ولا عجلة قيادة. ولذلك يجب أن تقول أن الانسان حيوان
اجتماعى.. أى أن المجتمع هو الذى يربطه ويضبطه ويوجهه ويعترضه
ويعترض عليه..

ولكن لا يستطيع الانسان أن يعيش بمفرده - وإذا استطاع بعض
الوقت، فلكى يعود إلى المجتمع أكثر عطشا وجوعا.. وإذا أرغم على العزلة
كل الوقت فهو سجين لأنه مجرم أو سجين لأنه مجنون.. أما إذا استطاع
ذلك واحتفظ بعقله فهو راهب.. وهو استطاع ذلك لأنه لم يعد حيوانا
ولا إنسانا، وإنما هو كافر بالاثنيين.

وإذا ما كان هناك اناس، كان هناك كلام. وإذا لم يكن الكلام ممكنا،
جاءت الاشارات من بعيد تؤدي عمل الكلام. وهذه الاشارات باليد وبالرأس
وبالوجه كلها تقول كلاما. وهذا الكلام بلا صوت أى بلا حروف. ولكن
المعنى قد تسلمناه من المجتمع. والمجتمع قد اكتسبه بعد عشرات

السنين. مثلاً، لاحظ ما يفعله الناس ساعة الوداع في المطار أو في الميناء أو ما تفعله عندما تغادر صديقاً في المستشفى وهو ينظر إليك من النافذة أو من بين أسلاك السجن أو ما تفعله الأم وهي تودع طفلها الذي ذهب إلى المدرسة لأول مرة.. ما هذه الإشارات باليد وبالذراع وبالعينين والحاجبين والشففتين.

كلها تدل على شيء واحد: على أن هناك لمسا باليد من بعيد. هذا اللمس البعيد له معنى. قد لا يتوقف الإنسان عند هذا الذي يفعله كل يوم دون تفكير. ولكن الذي يريد أن يفهم السلوك الإنساني كيف يكون وكيف تعقد، وما دلالاته، يجب أن يتوقف ليفهم هذا السلوك وغيره. من الأفعال وردود الأفعال الإنسانية.

مثلاً: ما الذي تقصده أنت عندما يزورك زميل أو صديق.. فإذا بك تربت بيدك على كتفه أو على كرشه أو تضربه على ظهره.. أو على قفاه مداعباً.. ماذا تعنى بذلك أو ما الذي تقصده عندما تبتسم له لمجرد أنك رأيته.. قد لا تبتسم ولكن ماذا يحدث لو أن رئيس دولة قابل رئيساً آخر لم يبتسم له – أنها أزمة دولية. وهذا هو التفسير الوحيد لصور الزعماء الضاحكة في المناسبات الرسمية. لأن «تكشير» الزعماء له دلالات خطيرة..

ولكن الضرب على اليد والظهر والكتف كلها أنواع من اللمس الرقيق.. لا هو ضرب ولا هو سلام وإنما هو مداعبة.. معناها: أن كل شيء يكون أو سوف يكون بهذه الرقة.. وليس من المألوف أن يقرص الرجال بعضهم البعض، في أي مكان – ولكنها عادة مألوفة عند النساء.

الطفل هو الوحيد الذي تستطيع أن تلمسه في أي مكان من جسمه. ولا يلومك أحد ولكن إذا كبر الطفل أصبحت هناك مناطق لا يصح لمسها

– لا هو يلمسها ولا أنت – وإلا كانت هناك معان جنسية شاذة أنت لا تقصدها.

والرجل الكبير في السن من حقه أن يداعبك دون أن تحمل مداعباته أو ملامساته أى معنى. فالرجل الكبير في السن قد أصبح فوق مستوى الشك. عاجزا تماما كأنه طفل وكذلك رجل الدين. فرجل الدين له حريات في اللمس لأنه فوق مستوى الشك أيضا أو من الواجب أن يكون كذلك. أننا لا نزال نذكر يوم مقتل الرئيس كنيدي عندما اقترب رجل الدين وأمسك يدي جاكين كنيدي طويلا حتى ضايقها – أنه استغل الموقف – وبدلا من أن يرتفع إلى ما فوق الشبهات نزل عن مستوى الموقف وتجرد من مسوحيه الدينية فلم ير إلا امرأة. ومعروف في ذلك الوقت أنها صرخت ولعنت القسيس !

وكثيرا ما يلجأ الرجال إلى حيل معروفة. من بينها أن يقول الرجل عن امرأة: أنها مثل ابنتي.. وبهذه العبارة يعطى لنفسه تصريحاً بأن يلمسها بيديه.. عنقها أو ذراعها.. وربما أحست المرأة أنه كالآب بالفعل فلم تشعر له بأى دلالة جنسية. ولكن هو الذى يجنى هذا المعنى الذى أخفاه وراء ادعائه الكاذب..!

ومن الممكن أن تصطدم الفتاة في الطريق العام. وتهبط بسرعة من سيارتك وتقترب منها وتلمسها وتقول لها: إن شاء الله سليمة!

وحتى لو قالت أنها سليمة. فأنك أحيانا تحاول أن تنهضها أو تحملها بين ذراعيك.. والموقف يجعل أسلوبك بريئا، ولكن الحقيقة غير ذلك..!

ومن الممكن أن تجد فتيات يهجمن على لاعبي كرة القدم، أو الممثلين أو المطربين ويلمسهن بأيديهن إعجابا.. ولا أحد يعيب عليهن ذلك. ومن

المؤكد أن اللاعب ينسى الدلالة الجنسية بهذا اللمس ولكن ليس من الضروري أن يكون ذلك احساس الأخرى!

ثم ما معنى التصفيق! وما معنى أن نضرب يدا بيد – نحن نضرب اليد اليسرى باليد اليمنى عادة. فالتصفيق هو نوع من العناق. فأنت عندما تعانق الشخص فانك تضم ذراعيك حوالبه. ولكن عندما لا تجده فانك تضم الهواء الذى بين اليدين. ومن الممكن أن تشير بيديك متماسكتين لشخص من بعيد لتقوله له هذا المعنى ومع العناق يحدث هذا الصوت المعروف. فالتصفيق هو عناق مسموع لشخص بعيد. والعالم كله يذكر ماذا حدث يوم وقف رائد الفضاء السوفيتى جاجارين فى الميدان الأحمر يتلقى تحيات الشعب. فقد كانوا يمرون أمامه ويصفقون واحدا واحدا. كأنهم يعانقونه واحدا واحدا.

وفى الهند يقف الزعيم أمام الملايين وقد ضم يديه معا ثم يجعل اليدين قريبتين إلى صدره. ومعنى ذلك أنه يعانق الملايين ويضمهم إلى صدره أذكر أننى فى أول لحظة وصلت إلى أحد الفنادق الهندية كان التيار الكهربى مقطوعا فوقفت خارج الغرفة أصفق للخادم. وجاء خادم واثنان وثلاثة ووقفوا ينظرون دون أن يتقدم واحد منهم ناحيتى ولم أفهم. وسألتهم لماذا لا يردون فقالوا: ولكنك لم تطلب أحدا فقلت: أننى أصفق؟ فقالوا: بل ظننا أنك تريد أن ترقص، وتوقفنا نتفرج!

فالتصفيق نداء لشخص بعيد أيضا عندنا. ولكنه فى الهند ضبط لايقاع الرقص نحن فى المسارح نصفق للممثلين. والممثلون فى روسيا والصين يصفقون للجماهير أى يردون على التحية بالتحية، وعلى العناق بعناق أيضا. فالتصفيق هو لمس من بعيد.

وهناك الانحناء أيضا. ما معناه؟ معناه أن الانسان في حالة احترام أو خشوع أو الذل يحاول أن يبدو صغيرا. ولذلك ينحني. والانحناء يجعل جسمه مكتوما. أى أقل من حجمه العادى. وكذلك تفعل الحيوانات عندما تتكلم عند أقدامنا وبعد ذلك تتمسح فينا وتقبل أقدامنا. فهذه الحيوانات تتضاغل.. أى أنها تريد أن تقول أنه لم يعد خوف منها فهى، أصغر، بل هى صغيرة، بالفعل. وأنا نحن الأكبر والأقوى.

وأن هذا التضاؤل من جانبنا هو نوع من الاحترام للآخرين. والآخرين يفعلون نفس الشيء. ففى اليابان ينحني الانسان مادام حيا. فى الشارع يتوقفون وينحنون وعلى مائدة الطعام نقول لصاحبة البيت: شربة الصراصير هذه لذيذة، فتنهض السيدة وتنحني شكرا. وكذلك زوجها. وتنحني أنت الانحناء للجميع.. وراقصة الباليه تنحني فى نهاية الفصل أو فى نهاية كل رقصة. وهذا الانحناء هو دعوة للجمهور أن يصفق لها وهى تنحني بأن تقدم رجلا وتأخر أخرى.. والرجال والنساء يفعلون نفس الشيء. وليس سبب ذلك أن هناك مساواة بين الرجال والنساء. ولكن سببه أن عادة الانحناء هذه قديمة منذ كان الرجال يؤدون أدوار النساء على المسرح.

وهناك الانحناء الذى يشبه الركوع أو الذى يشبه السجود. بعض الشعوب تفعل ذلك لرؤسائها وملوكها.. ويفعلون ذلك لله أيضا.

ومن شذوذ الامبراطورة تيودورا زوجة الامبراطور العادل جوستينيان أنها تكره خضوع الرجال - وهى لم تكن على علاقة برجل واحد. بعشرات ولذلك كانت تحتقر العلاقة المتعطشة المتسولة والأيدى المستطلعة والأرجل المرتجفة. ولذلك كانت تأتى بعشرات من الخدم ينزعون ملابسها كلها.

ويلقونها على الأرض.. ثم يرمون فوقها بحبات القمح.. بمئات الألوف من الحبات.. ثم يطلقون عليها عشرات من الأوز الجائع يلتقط الحب في شراهة !
وتقول تيودورا : لأننى أكره الرجال وأيديهم المرتجفة وخشوعها الكاذب !
وفي ساعات الوداع ترى الناس يضمون أيديهم للوداع.. كأنهم يضمون الذين يودعونهم ويقبلون أيديهم ثم ينفخون القبلات في الهواء كأنهم يقبلون الهواء الذى يفصل بينهم.. أو كأنهم يبعثون إليهم بالقبلات الطائفة – وكل ذلك لمس من بعيد..

وهناك التقبيل للصديق وللزميل وللابن، وتقبيل الامتنان والاعجاب.

لقد فزع الانجليز عندما شاهدوا لاعبي كرة القدم من أمريكا اللاتينية.. وجدوهم يتعانقون ويقبلون بعضهم البعض. لقد ضاقوا بهذا الشذوذ. فالانجليز في ذلك الوقت يرونه شذوذا منفرأ.. ولكن إعجابهم ببراعة اللاعبين. ثم إدراكهم للمعنى وراء ذلك جعلهم يعتادون عليه.. ثم يفعلونه الآن.

وهناك تقبيل بالموالفة. شخص يواجه شخصا ويقبله في وجهه أو على جبينه أو على خده أو على عنقه. ولا بد أن تقبيل كتفى المرأة سببه أن الرجال نسبيا أطول من النساء.. فهذا التقبيل الودى هو الممكن عند الموالفة. فلا هو تقبيل حقيقى ولا هو مصافحة ولا هو عناق.. وإنما هو شىء من ذلك كله !

وهناك الامساك باليد.. أو بالذراع..

وهناك من يصافحك فيظل ممسكا بيدك فترة طويلة. بعض الناس يضيق بذلك. ويرى أن هذا ليس مصافحة وإنما هو اعتقال. بعض البلاد

العربية تصر على ذلك. وهناك من يمسك بذراعك.. أو يضع ذراعك في ذراعه.

والشعوب تختلف في فهم ذلك.. فلو فعل ذلك رجلان في أوروبا، لرأوا في ذلك شذوذاً. لأن المؤلف أن تفعل الفتيات ذلك.. ومن المؤلف أكثر أن يفعل الرجل والمرأة ذلك. والمرأة عادة هي التي تضع ذراعها في ذراع الرجل بل وتطلب ذلك!

ولكن إذا حدث هذا كله بين المحبين فالمعنى مختلف. والطعم غير ذلك. والأغنية تقول: هات إيديك ترتاح للمستهم إيديه.. فاللمس مريح. والمعنى أبعد من ذلك طبعاً ولكن هذا هو الذي يمكن أن يقال في أغنية على لسان سيدة!

وبعض الكباريات الأوروبية تطلب من روادها أن يضعوا أيديهم وأن يتعانقوا وأن يسايروا الأغنية قبلة قبلة – ومعنى ذلك أن الأغنية تريد أن تكافئ الجمهور على أنه استمع إليها. وأن تكون المكافأة فورا!

والناس يقبلون الأشياء أيضاً.. فمن يقبل المصحف الشريف ومن يقبل الكتاب المقدس أو ايقونة – تمثالاً صغيراً – للمسيح أو العذراء أو أحد القديسين. والمعنى هنا هو احترام وتقديس وبركة.

وهنا من يقبل خاتم القسيس.. أو خاتم البابا – ولنفس المعنى أيضاً.

وبعض اللاعبين يقبل «زهر» الطاولة.. وتقبيل الزهر، هو تقبيل الحظ أو القدر.. أو هو تقبيل العناية الالهية.. وهذا التقبيل هو نوع من الرشوة. ظاهرها الاحترام. ولكنه احترام مشروط. والشرط هو: أن اللاعب يحترم القيم العليا، إذا هي ساعدته على أن يكسب خصمه!

وكان شعراء الطروبادور – أى الطرب – الأسبان والفرنسيون يقبلون
جدران بيت المحبوبة. ويقبلون الأرض تحت قدميها.. والشاعر العربى
القديم قال :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار ملكن قلبى ولكن حب من سكن الديار

وعندما كان نابليون بونابرت يمر فى شوارع القاهرة لمح فرنسية كانت
زوجة لأحد ضباطه استدعاها. وبعث بزوجها بعيدا عن مصر ووقع فى أسر
الانجليز وقتلوه. ولكن هذه الفرنسية قالت للإمبراطور: أى شىء إلا أن
أقبل يدك !

وكان من عادة نابليون أن يستمتع بهوان النساء وذلهن. ولكن هذه
المرأة رفضت أن تكون عشيقة مهانة.

وفى الهوان والذل نحن نقول : حتى لو قبل حذائى. أو قبل التراب الذى
يمشى عليه حذائى.

والأغنية تقول : أبوس القدم وأبدى الندم على غلطتى فى حق الغنم !
وهو منتهى الذل والهوان أيضا.

وهناك الشىء العادى جدا بيننا وهو : المصافحة. والمصافحة تكون
عابرة. وتكون رقيقة وتكون عنيفة. وكل واحدة لها معنى عندنا.

وتقول كتب الاتيكيت : الرجل لا يصح أن يمد يده للمرأة ليصافحها
وإنما الذى ينتظرها أن تمد يدها.. وتقول كتب أخرى : بل يجب أن تبادر
أنت وتتقدم إليها، وتمد يدك..

وتقول كتب الاتيكيت : إن الشاب لا يمد يده إلى الذي أكبر منه سنا.
بل عليه أن ينتظر وكتب أخرى تقول : بل امدد يدك إلى الذين هم أكبر منك !

حاولت ذلك مع د. ران، وقد كان أستاذ اللغة الألمانية. وهو رجل
سويسرى وقد قابلته بعد تخرجى فى الجامعة بسنوات. مددت يدى وقلبى
كله فى أصابعى ولكن الرجل وقف لا يمد يديه. وأحسست أن الأمطار قد
سقطت بيننا. والجليد أيضا وسمعت الرعد فى أذنى عندما قال لى : ومن
أنت ؟

فقلت : تلميذك فلان.

وجاء صوت الرعد مدويا ضاحكا : هه.. كيف حالك ؟

وصافحنى ومضى. فهو لم يشأ أن يصافح أى يد امتدت إليه. مع أنه
عاش فى مصر عشرين عاما. ورأى أننا نصافح بعضنا البعض بمناسبة وغير
مناسبة – بل أننا نصافح التماثيل لو وجدنا أيديها ممدودة !

والمرأة تقبل يد المرأة..

والمحبون لا يتصافحون – لأن المصافحة هى ملامسات فاترة لا تليق
بين اثنين علاقتهما من نار.

ومن النادر أن يتصافح الأزواج أيضا – لهذا السبب أو لأسباب أخرى
كثيرة.

والمثل الشعبى يقول كثرة السلام دليل على قلة المعرفة !

والزوج لا يقصد عندما يصافح زوجته، أن يقول أنه لا يعرفها إلا قليلا..
أو أنه كان يتمنى أن يعرفها قليلا أو ألا يعرفها نهائيا !

ولكن ما هي حدود اللمس المسموح بها اجتماعيا. هناك قيود وسدود وحدود. فمن الممكن أن تكون قبلات بين الرجال والنساء في المحطات وفي المستشفيات. وهذه القبلات يجب أن تكون ودية عابرة. فهذا هو المسموح به فقط.. ولكن القبلات العاطفية بين المحبين ينكرها المجتمع ويسرفضها ويرى أنها جريمة وأنها هتك عرض وقلة أدب، وإذا فعلت ذلك وجدت نفسك مجرما في حق الآخرين. ومعتديا على القواعد والأصول التي وضعوها. ولذلك يجب أن تكون علاقتك العلنية سطحية مهما كانت حقيقية هذه العلاقة !

ولكن ماذا يحدث إذا أنت قبلت – علنا – إنسانا عزيزا عليك وبصورة عاطفية. هنا فقط يشعر الناس بالضيق. لأنك اعتديت على احتشامهم ولا لأنك تسللت وراء أسواء الأدب وخطفت ما ليس لك، ولكن لأنك فضحت الناس. فالناس أحوج إلى الحب. وإلى الصدق. وإلى الحنان فليس في هذه الدنيا أكثر من كل ما هو عزيزي.. وليس أقل من كل ما هو عاطفي ! والحب يدعيه الناس في كل علاقة. الحب يرويه بائع الأحذية وبائع الفاكهة وبائع الدواء وبائع الرقيق الأبيض. كل الناس ليس في أفواههم إلا الحب، وليس في قلوبهم إلا الكذب.. وظهور الصدق فجأة، مثل ظهور الضوء فجأة. أنه باهر فاضح أنه ينبهنا إلى ما ينقصنا في هذه الدنيا.

والناس لا يفعلون ذلك. يكذبون. ينافقون. يخافون. ولذلك يقنعون بالقبلات والاعناق والصدق والحنان من الدرجة الثالثة – فهم يتفرجون على الذين احترفوا القبلات على الشاشة.. أي أنهم يتفرجون على صورة صوتية لأناس كانوا في حالة عناق وقبلات. وبذلك أعطت الناس حقوقها لبعض الناس. ثم راحت تحقد عليهم.

إن عالما يحتاج إلى الصدق في كل علاقة بين رجل وامرأة. في كل لمسة ود. وكل لمسة صدق هي لمسة حنان.. وأن لمسة واحدة صادقة لخير ألف مرة من ألف عناق كاذب.

والناس كاذبون منافقون إذا لم يصارحوا أنفسهم بأن نصيبنا من الكراهية والحق أضعاف ما عندنا من الحب، وما عندنا من الحب هو أضعاف ما عندنا من الحنان – أي اللمس الرقيق الرفيق مع كل الصدق الأمل في دفء أظهر وأبقى!

.. أطباء وحلاقون

واللمس المشروع !

(٧)

الموسيقار العظيم بتهوفن الذى مات أطرش متفائل رغم ذلك، لأنه قال :
ان رحمة الله تتجلى فى حب الانسان للطبيعة وبحته عن الأصدقاء، فلولا
ذلك لكانت الدنيا جحيما للجميع !

والدنيا تصبح جحيما إذا كانت المسافات بين الناس بعيدة. وهذه
المسافات لا يملؤها إلا الخوف والقلق. ولذلك فالمحبون أشجع من
الكارهين. وما يزال العشاق يرددون هذه العبارة فى كل العصور: ان حبها
قد أضاف إلى قلبى ألف قلب !

واثنان من الناس لا يستريحان إلا عن طريق الأمان : العاشق والطفل !.

وأمل الناس جميعا ان كانوا أطفالا، أن يكون لهم أمان الأطفال. وإذا
كنا نطمح الطفل عن رضاعة اللبن فإن شيئا آخر لا يفطمه عنه إلا الموت :
الأمان.

ولا أمان إلا بالقرب. والقربة. والاقتراب.

وفي العصر الحديث ازدحم كل شيء حولنا. وامتلات الدنيا بالغرباء. فأنت لا تعرف من ترى ولا تعرف من يراك في البيت الذي تسكنه والشارع والمواصلات وأماكن العبادة كلنا غرباء. ولذلك فالمسافات بيننا متباعدة وغير مسموح لواحد منا أن يقترب من أحد إلا بحساب. وكل شيء حولنا كالمصافحة باليد: شكل وعلاقة عابرة ويلا احساس.

إن الكاتب الأمريكي جاك كيرواك هو أول من صرخ من عشرين عاما في إحدى رواياته ماذا جرى للناس.. أين وضعوا أيديهم.. لقد قطعوها ثم دفنوها.. ماذا جرى لهم.. إن أحدا منهم لا يصفح أحدا!

وهذا الكاتب أيضا هو الذي قال: هؤلاء مثل كرات البلياردو.. دائريون لا أطراف لهم. لا يتلامسون ولكن يتخبطون.. يفرقعون كالسيوف.. ثم يتلاشون!

وحتى إذا لم نجد لمسة الود أو لمسة الحنان، فإننا نخلق الجو المناسب لها ولأن هذا «الجو» مألوف لنا جميعا، ظهر في حياتنا اناس من «حقهم» أن يلمسونا.. أعطيناهم ترخيصا باللمس على مهل: الأطباء مثلا!

فعندما نمرض ونتمدد في الفراش ويبدو علينا المرض، يقترب منا الكثيرون ويسألون.. ويلمسون أيدينا وجباهنا.. ونجد أنفسنا قد تحولنا إلى أطفال صفار. فالصوت منخفض والحركة عاجزة. ونحن نطلب مساعدة الآخرين.. ويتحول السرير إلى «حضان» مؤقت. وفي هذه الحالة يصبح الناس جميعا كأبائنا وأمهاتنا.. ويجيء الطبيب وهو الشخص الذي له حق اللمس. ويمسك أيدينا في يده.. ويلمس الوجه والبطن والذراعين والساقين والظهر ويقوم الطبيب بدور الأم للرجل الذي جعله المرض كالطفل – وما أقسى الحياة التي يكون فيها الطبيب هو الأب والأم في حياتنا!.

ولكن بعض الناس الذين لا يجدون لمسة الود، فانهم يتسولونها.. فالأب الذى لا يجد الحنان من أولاده يجد لذته الوحيدة فى أن يكون مريضاً. فى أن يثير شفقة الجميع. وسوف يجد ما يريد ولكن بشرطين: بشرط أن يكون مريضاً بالفعل. وبشرط ألا يطول مرضه، فإذا طال مرضه، يشعر الذين حوله باليأس من شفائه ويأن الشفقة عليه كالقسوة عليه لن تؤدى إلى نتيجة. فهو لن يشفى من مرضه!

وشاعرنا الرقيق المتشائم كامل الشناوى كان يقول:

أشترى الحب بالعذاب أشتريه فمن يبيع!

وليس أروج من تجارة العذاب هذه. فهى بغير فلوس يا صديقنا العزيز.. أنها هواية وحرفة كل إنسان وبلا مقابل!

وإذا خرج المريض من الفراش، خرج أيضاً من حضان الأسرة والأصدقاء واستقبله المجتمع بقسوته وجفائه وبروده.. واتسعت المسافات بينه وبين الناس. وأصبح بعد ذلك يتعذب لأنه فى صحة جيدة. فكأن الإنسان صبح بعداً عن الناس لأنه فى صحة جيدة.. وقريباً لأنه مريض أو بعبارة أخرى: أن الإنسان يستمتع بسوء صحته!.

وهناك أناس يفضلون الصحة الجيدة على قرب الناس، وآخرون يفضلون قرب الناس مهما كان العذاب.

ومن الذين لهم حق اللمس أيضاً: الذين يعملون فى تدليك الناس. وهذا التدليك لأسباب صحية أو أسباب جمالية. فهناك التدليك بسبب أمراض عضلية وعصبية.. وهناك التدليك من أجل الرشاقة.. وكذلك التدليك مع

حمام البخار. وعند التدليك يجيء رجل لرجل أو سيدة لسيدة. وهذا الحرص على أن يكون الرجل هو الذى يدلك الرجل، سببه ألا يشعر أحد بأن هذا اللمس له أية دلالة جنسية، وكذلك بالنسبة للمرأة. وفي بعض معاهد التجميل يحرصون على أن يقوم بالتدليك شخص واحد حتى لا تتكون أية زمالة بينك وبين الشخص الذى يقوم بتدليكك فى الأندية الرياضية أو فى معاهد التخسيس. والآن أصبح يمكن الاستغناء عن شخص المدك باستخدام الآلات الحديثة..

وفى اليابان تقوم بالتدليك سيدة عمياء. ولو كانت سيدة فقط لتغير معنى التدليك أو معنى هذا اللمس الناعم المنظم. ولكن لأن السيدة عمياء فإن التدليك لا يكون له إلا هذا المعنى ولا يكون الاحساس إلا أنه تليين للعضلات!

وعندما كانت بعض الملكات فى أوروبا تحتاج إلى تدليك عنيف فإنها كانت تسلم جسمها للرجال. وكان الرجال يدلكونها بشرط أن يضعوا الجوانتيات فى أيديهم... أى يدلكونها دون أن يلمسوها!

وأشهر الذين لهم حق اللمس الحلاق. والحلاق قد ظهر حديثاً فى التاريخ.. بعد أن قرر الانسان أن يطيل شعره.. فقد كان الانسان مضطراً إلى ازالة شعره تماماً بسبب الحشرات. ولذلك فالآباء الذين يستنكرون على أولادهم أن يطيلوا شعورهم لا يعرفون السبب الحقيقى للشعر القصير. فلا خوف من أن يطول الشعر بعد أن اختفت البراغيث والقمل من الرأس..

والحلاق له حقوق كثيرة. فهو لا يكتفى بأن يقص الشعر وتنتهى علاقته بالزبون بعد دقائق ولكنه يغسل الرأس ويدلكه. وتذهب يداه إلى أبعد من

الشعر. أنه يدلك الوجه والعنق والكتفين.. وحلاق السيدات ليس هو وحده الذى يقضى وقتا طويلا فى غسل الشعر وتجفيفه وتصفيفه ثم تثبيته بعد ذلك. بل أنه لا يكتفى بهذا القدر. أنه أحيانا يصبغ الأظافر. أظافر اليدين والقدمين.

واحساس حلاق النساء بأنه قريب جدا من بشرتها ومن جسمها. فإن هذا الموقف الخاص به جعله يتخذ سلوكا غريبا. فهو إما أن يكون جادا صامتا لا يتكلم، ولا يرد كأنه آلة.. وكأنه لا يحس بملامسة المرأة.. وهذا يعطيها شيئا من الأمان.. وإما أن يكون فى غاية الرقة والنعومة والمجاملة – أى أنه يستعير منها شيئا من الأنوثة. وهذه الأنوثة تعطى شيئا من الأمان.. ومعنى هذا الأمان أن هذا اللمس بلا دلالة فهو لم يعد رجلا خشنا.. أو يكون الحلاق مبتذلا يحتقر الموقف من أوله لآخره.. ومعنى جرأة الحلاق وتشجيعه للنساء على المداعبة معه بصورة مكشوفة : إن هذا اللمس منه لوجه وعنق المرأة شئ تافه وانه لا يعبأ به. وأن المرأة لا ترى فى ذلك أى شئ فلا هى أعطت ولا هو أخذ!

وماسح الأحذية هو أيضا من حقه أن يلمس أقدامنا وأرجلنا. ونحن عادة نجلس أو نقف فى وضع أعلى. ويجلس ماسح الأحذية فى وضع دون ذلك. وهذا الوضع من ماسح الأحذية يضعونه بأن يجعل حركاته لها طابع الأمر والنهى. فهو يمسح الحذاء – وقد وضع رأسه بالقرب من الحذاء بدلا من أن يطلب إلينا أن نرفع قدمنا ونضع الأخرى فإنه يدق بالفرشاة، كأنه قاض فى محكمة. أو يدق جرسا ولا يفتح فمه.. كأنه حريص على أن يجعل العلاقة بيننا وبينه غير شخصية.. حذاء وفرشاة.. شئ جالس وشئ آخر واقف أو جالس إلى أعلى قليلا.

وكثير من الدول قد منعت المواطنين أن يمارسوا حرفة مسح الأحذية.
وتركت هذا الهوان للغرباء مع مسح دورات المياه!

ومن الذين لهم حق اللمس أيضا: طبيب أمراض النساء والولادة..

وكانت النساء يقمن بعمل المولدة. ولكن الرجال تفوقوا على المرأة في هذا الفن. ثم مضت مئات السنين قبل أن يوافق الرجال على أن تنكشف زوجاتهم على هؤلاء الرجال. ومنذ مئات السنين كان الرجل يدخل تحت الغطاء في الظلام ويقوم بعملية التوليد دون أن يرى ماذا تفعل يده. وعندما حاول بعض الرجال أن يروا، ماتوا وماتت الأمهات ومات الأطفال أيضا!

والتاريخ يحتفظ لنا بأوصاف هؤلاء الرجال. ففي العصور الوسطى كتب أحد الأدباء يقول: ليس أحقر من رجل بخيل وزوج نذل إلا هذا الذي يولد النساء.. ولا أقدر من يديه ولا أبغض من رائحته ولا أوقع من عينيه!

ولكن أصحاب هذه العبارات لم يجدوا حلا آخر لولادة المرأة.

ومضت مئات السنين لكي تذهب المرأة الحامل إلى الطبيب ليكشف عليها أولا بأول.. ثم يولدها بعد ذلك ولم يخطر على بال زوج أو زوجة أن تصف طبيب أمراض النساء بأنه رجل قليل الأدب لأنه لا يكاد يرى سيدة حتى يقول لها: اقلعى.. نامى.. حامل!

لا أحد يقول ذلك وإلا كان عليه أن يجد حلا أسعد من ذلك!

ولهذا السبب نجد أن أطباء الولادة يتخذون أسلوبا جافا خشنا وأحيانا وقحا وهم في الحقيقة ليسوا كذلك. ولا يقصدون ذلك. ولكن أطباء الولادة

يريدون أن يقولوا لكل امرأة: إن هذا الذى يرونه لا يهمهم ولا يثيرهم.
كأنهم ليسوا بشرا، لا الطبيب بشر ولا المريضة بشر. أى أنه لكى يعطيها
الأمان يبدو فى ملابس لا إنسانية.. فى ملابس آلية وهو لا يقول لها: أنت
حامل.. وإنما يقول: أنت حبلى.. ولا يحدثها عن المرض الشهري،
وإنما يقول لها: الدم..

وهذا الأسلوب الذى يبدو خشنا، هو وحده الذى يعطيها الأمان ويجعلها
تشعر أن لمسها العميق لها، ليس له أية دلالة جنسية عنده.. أو عندها..

ثم هؤلاء الذين يمثلون على المسرح أو على الشاشة والذين يرقصون
والذين يتشاجرون أى الذين احترفوا اللمس أمام الناس.. هذا اللمس ليس
له الطعم الذى يتخيله المتفرج. فالممثلون يعانقون ويقبلون ولا أحد يستنكر
ذلك. وإنما يرى الناس أنه طبيعى.. وكثيرا ما تجد الشاب يعانق العجوز.
والناس يضحكون أو يقرفون.. أو يتضاربون وبعد ذلك يتصادقون.. أى
أنهم يتضاربون بغير سلاح كالانسان البدائى ثم يتصادقون كالانسان
المتحضر.. أما لماذا يفعل الممثلون ذلك؟ فالجواب – هو أن المؤلف كتب
ذلك.. أو المخرج أراد ذلك.

أى أن الذين تراهم على المسرح مرغمون على أن يتعانقوا ويتقاتلوا..
والمجتمع أيضا ينظر إلى الرقص على أنه «لمس» مشروع.. فأنت
عندما ترقص تتقدم وتتأخر وتدور.. كان فى نيتك أن تفعل شيئا ثم تردك
الموسيقى عنه.. أو الناس الذين حولك.. وأخذ الرقص أشكالا فردية
وجماعية.. ولكن هذا الرقص أصبح شيئا ملعونا عندما ظهرت رقصة
«الفالس» فى القرن الماضى.. وأصبح من حق الراقص أن يقبل زميلته.

هنا ثارت الدنيا كلها على هذا الانحلال وهذه الموجة الخطرة على كل القيم الحضارية.

وقد نشرت صحيفة «التيمس» الانجليزية مقالا قديما في أغسطس سنة ١٨٩٤ تقول فيه : ومن الذى يستريح ضميره إلى أن ترقص ابنته أو زوجته هذه الرقصة الشنيعة.. كيف تسكت عنها وهى تدور وتتعلق فى كتف هذا أو ذاك. إذا لم يكن هذا انحلالا وانحطاطا وسفالة لا قرار لها، فأى اسم فى القاموس يمكن أن يدل على ذلك؟

وبعض الناس فضل أن ترقص ابنته مع فتاة أخرى. وهنا صرخ الناس أنها إذن رقصة الأمازونات.. أى الفتيات اللاتى يكرهن الرجال، وقد قطعن نهودهن. ومن هنا جاءت تسمية الأمازون أى التى لا صدر لها حتى لا يرضعن، وحتى لا يحملن ولا يلدن قبل ذلك!

وفى سنة ١٩١٢ ظهرت رقصة التانجو. وهذه المواجهة واللمس القريب جدا بين الراقصين وقد وصفت بالانحلال : إذ كيف يتخاصر الناس ويهزون أردافهم. ما هذا؟

وفى سنة ١٩٢٠ وما بعدها دخلنا عصر الجاز. عصر الاهتزازات العنيفة ووصفوا هذه الرقصة بأنها زنجية استوردها الشيوعيون من أواسط أفريقيا ليهدموا بها الحضارة الأمريكية وسخافات أخرى كثيرة.

وفى الخمسينات ظهر الروك أند رول وأشكال أخرى كثيرة للرقص المودرن.. أو الرقص الصاخب. ومن الغريب أن الرقص الجديد كله يتباعد فيه الراقصون : فكل واحد يتحرك فى مكانه ويبعدا عن الراقص الآخر. ما المعنى؟ معناه أن الرقص قديما كان يقضى على شىء من الحرمان

الجنسى أو العاطفى، ولكن الانسان لم يعد يشكو من هذا الحرمان. ولذلك فهو يرقص فقط، لأن مكان الرقص هو مكان للرقص فقط.. ولم يعد محروما كما كان أجداده!

فهل صحيح أن الانسان لم يعد محروما؟

يمكن أن نجيب - بعد هذا كله - عن السؤال: بأن الانسان يجد الكثير من الحب، ولا يجد إلا القليل من الحنان. وأن الانسان فى بحثه عن الحنان يفقد إيمانه بالانسان وبالانسانية.. ولذلك يجب أن يبحث عن أشياء كثيرة بديلة تماما كما يتفرج على الذين يحبون، وهو لا يجد من يحبه، أى أن يحب غيره وأن يحبه غيره.

من لا يجد ما يحب فإنه يحب ما يجد !

(٨)

كان ذلك في مدينة مانيلا بالفلبين.. لقد اهتزت السفارة المصرية من الدهشة ومن الضحك، أن اثنين من ضباط البحرية الأمريكية يطلبان مقابلة السفير لأمر هام جدا، ولما سئلا أن كان الأمر له علاقة بالسياسة. فهز الضابطان رأسيهما وكتفيهما ليقولا: بل السياسة شيء تافه !

إذن الأمر أخطر من السياسة..

ولا أعرف من الذي ترجم مشاعر هذين الرجلين بأنها عدوانية. وأن هناك خوفا على حياة السفير المصري ولما رأى الأمريكيان دهشتنا وخوفنا تكلمنا في الموضوع. أن واحدا منهما عنده كلب بلدى ويريد بعض المعلومات عن الكلاب المصرية. يريد أن يعرف سرعتها ووزنها وعمرها ثم يريد أن يحصل على أنثى لهذا الكلب. وكيف يحصل عليها وأن كانت هناك أية صعوبات صحية أو مالية..

وكانت دهشتنا أعظم. فالكلاب أهم عنده من السياسة. ثم أن الأمر جاد وأهم من ذلك أن الكلب له اسم طويل.. إن اسمه جاك كارنبتير.. وصاحب

الكلب اسمه : وليام كارنبتير. وقد اختار هذا الاسم لأن له أخا قتل في البحرية. وكان يحمل معه هذا الكلب تعويذة. وقرر الأخ أن يحتفظ بالكلب وأن يعطيه اسم المرحوم أخيه !

أما كيف وصل هذا الكلب إلى جزر الفلبين فهذه قصة أخرى طويلة ولكن المهم أنه وصل وعاش، ويريد صاحبه أن يعرف أن كان الكلب في صحة جيدة وإن كان هذا هو حجمه الطبيعي. وإن كانت سرعته في الجري هي التي سجلها، أم أن الكلب يمكن أن يجرى أسرع من ذلك.. ومطلوب من السفارة المصرية أن تعاونه في هذا الأمر الخطير !

وبصراحة لم نجد ما نقوله غير أننا رثينا لحاله، وتطوعنا جميعا بكتابة عناوين كاذبة لأسماء دكاترة في القاهرة لا وجود لهم.. ولما سألنا أن كانت في القاهرة مجلات باللغة الانجليزية عن الكلاب المصرية، هزنا رؤوسنا بأن هناك مجلات كثيرة. وأضفنا إلى قائمة الأكاذيب أسماء مجلات للكلاب في مصر !

ولا شيء يدل على حب الرجل للكلب إلا امتنانه العميق جدا لنا على هذه المساعدة القيمة. وأنه لن ينسى لنا أبدا هذه المعاونة الانسانية العائلية الصادقة. وأنه كان على يقين من أنه سوف يجد ما يسعده في السفارة المصرية فما معنى هذا ؟

المعنى هو أن الانسان في هذه الدنيا في حاجة إلى أحد قريب منه. إلى دفء الآخرين والأخريات فإذا لم يجد أحدا من الناس، فإنه يتجه إلى الحيوانات الأخرى. بل أنه يعطى لهذه الحيوانات صفات إنسانية، ويتعلق بها كما لو كانت بشرا ينقصها الكلام.. وإن كان الحنان والوفاء والأمان لا ينقصها..

إن الكلاب والقطط والطيور والأسماك والقروء والخيول وغيرها، هي حيوانات بديلة.. أى أننا عندما لم نجد الانسان اتجهنا إلى هذه الحيوانات.

والانسان الذى لا يجد الحب فى بيته، يبحث عنه خارج البيت. والحب خارج البيت لا يقوى الحب فى البيت. وإنما ينافس ويقتضى عليه.

وإذا كان هناك زواج بغير حب، كان هناك حب بلا زواج.

فالحب خارج البيت له شكل الخيانة وطعمها.

ولكن إذا لم يجد الانسان حتى هذا النوع من الحب، أو كان عاجزا عنه، فإنه يبحث عن الحب عند تلك الكائنات التى لا تخونه. والتى لا تعرف إلا الوفاء وإلا الصدق وإلا الامتنان.. هذه الحيوانات تستسلم لحريتنا فى اللمس.. فى الربت عليها ودغدغتها واحتضانها وتقبيلاها. الكلب يقفز إلى أرجلنا وينحنى عليها يقبلها ويلعقها. فتمتد أيدينا إلى جسمه.. إلى ظهره ورأسه وتداعبه.. وتكون المداعبة امتنانا متبادلا. هو سعيد ونحن أكثر سعادة ونحن أكثر سعادة بذلك..

والقط أيضا أكثر تداخلا فى أجسامنا.. أنه يلتوى وينطوى ويتكرم ويدخل تحت الغطاء.. ثم أنه رقيق ناعم الملمس.. كان كل جسمه خدود ناعمة، وشعره حرير..

وقصص وفاء الكلاب لا أول لها ولا آخر.. وأكثر هذه القصص قد رواها الانسان وجعلها جميلة.. وجعل جمالها نوعا من التخليد لها.. وفى نفس الوقت جعل التخليد نقدا خالدا لسفالة الانسان. وكلما امتدح الكلاب شتم الانسان. وكلما عرف الانسان الانسان، ازداد حبا للكلاب.

وأشهر الكلاب التي عرفها الانسان كلب أهل الكهف.. الذى نام على باب الكهف فى انتظارهم أن ينهضوا من نومهم أكثر من ثلاثمائة سنة.. وهذا الانتظار هو الولاء الطويل مهما تغيرت الظروف خارج الكهف. بقى جالسا وهو لا يدري إن كان أصحابه قد ناموا إلى الأبد، أو ناموا ليعودوا إليه.. إن انتظاره هو وفاء بلا قيد ولا شرط!

وفى أوروبا وأمريكا مئات المجلات التى تعنى بصحة «حيوانات الزينة» وهذه تسمية خاطئة لهذه الحيوانات المدللة. لأن هذه الحيوانات ليست لزينة البيت، ولكن لزينة الحياة لأهل البيت.. بل هى ضرورية للحياة نفسها!

والأرقام تقول لنا أن الأمريكان ينفقون خمسة آلاف مليون دولار على الكلاب والقطط. والانجليز ينفقون مائة مليون جنيه.. والألمان ينفقون ٥٠٠ مليون مارك.. والفرنسيون – ينفقون ١٢٥ مليون فرنك..

وعدد الكلاب والقطط فى أمريكا ٩٠ مليونا.. ويولد فى أمريكا عشرة آلاف قط وكلب كل ساعة. وفى فرنسا ١٦ مليون كلب. وفى ألمانيا ٨ ملايين كلب. وفى بريطانيا ٥ ملايين كلب..

وهذه الحيوانات لها مصانع لتغذيتها ولها مصانع لعلاجها. ولها مصانع مشغولة بملابسها.. ولها مقابر أيضا.

أكثر من ذلك أن كثيرين يتركون وصاياهم لهذه الحيوانات. أصحاب ملايين تركوا للكلاب ثرواتهم، بدلا من أن يتركوها لأقاربهم.

فالمليونير الأمريكى كليفتون شيز قد أوصى بثلاثة ملايين دولار لكلبه وسلالة هذا الكلب ونصت الوصية على أن تكون سلالة هذا الكلب نقية مائة فى المائة.

وكان لهذا المليونير إخوة غير أشقاء. وفي الوصية كتب: إن ثروتى أعطيتها لمن يستحقها. ولا يستحق هذه الوصية إلا من أحببى بلا مقابل. ولا أجد أحدا فعل ذلك غير كلبى ولذلك فثروتى ثمن لوفائه..

وبعد ذلك جاء فى الوصية أن يبنى لهذا الكلب بيت محاط بحديقة. وأن تزوره كلبة اختارها. وأن تقيم معه حتى تلد. وأن يرث أولادهما هذه الثروة أيضا!

وبعض الناس يرى أن هذا نوع من الجنون. ولكن الحياة بلا حب جنون. والحب بلا وفاء جنون. وإذا لم يجد الانسان من يحبه، فإنه يشتري هذا الحب. وليست الكلاب إلا نوعا من الحب يمشى على أربع. ومن طبيعة الانسان أن يحب. ومن طبيعة القلب أن يدق لأحد. فإذا لم يكن هذا الأحد من الناس، ففى الكلاب والقطط أجمل بديل!

ولكن كيف يحب الناس كلابهم وقططهم فى أمريكا، وفى نفس الوقت يشردون ملايين الأطفال فى فيتنام، أو يشردون ملايين الأطفال الزنوج فى أمريكا نفسها!

إن الذين يطلقون الرصاص هم أنفسهم الذين يحبون الكلاب. بل أن الطيارين الأمريكان يحملون معهم الكلاب والقروذ ويداعبونها ويطعمونها ويعنون بصحتها بعد كل غارة على أبرياء فيتنام وفى سجلات الحرب العالمية الثانية أن حراس معسكرات الاعتقال الألمانية كانوا يربون الكلاب، وفى نفس الوقت يحرقون اليهود وخصوم هتلر فى الأفران.

فما المعنى؟ والمعنى إن الانسان لا بد أن يحب. لا بد أن يستريح إلى أحد من الناس أو من الحيوان، ومن طبيعة الانسان إذا أحب أن

يلمس. وإذا لمس أن يلمس أكثر. ولذلك امتدت الأيدي وراء الأسوار..
وامتدت الأيدي وراء الأقفاص .. وهذا ما يحدث في حدائق الحيوان.
الناس يتفرجون على الحيوانات السجينة. ورغم التحذيرات فإن الأيدي
تمتد إلى أقفاص الوحوش ولا تعود الأيدي – تأكلها الوحوش ولكن هذه
هى طبيعة الانسان.

ولكن ماذا يحدث لو ماتت كل الحيوانات فجأة؟ شئ فظيع ومروع لو
حدث ذلك. أنه يؤدي إلى تمزق ملايين القلوب وخراب ملايين البيوت
وتشرد ملايين العمال والأطباء.

وليس معنى ذلك أن الكلاب إذا ماتت، أن يتجه أصحاب الكلاب إلى
أى بديل آخر.. ليس معنى ذلك أن العجوز التى عاشت لكلبها ومن أجله،
أن تهجم على أول واحد يدق بابها. سواء كان الزبال أو بائع اللبس أو
صاحب العمارة.. وليس معنى ذلك أن الرجل الذى مات ابنه وزوجته وعاش
من أجل عشرات من القطط أن يهجم على أى بيت ويلقى بنفسه في أحضان
أهل البيت. لا شئ من ذلك. بل أن صاحب الكلب إذا مات كلبه، فإنه
لا يقتنى من بعد كلبا آخر.. وإذا ماتت القطط فإن صاحبتها لا تطيق أن
ترى قطة واحدة بعد ذلك. لقد أحببت القطط وعندما ماتت دفنت حبها معها
إلى الأبد!

إن الامبراطور الرومانى السفاح كاليجولا كان له كلب. وكان رجال
البلاط لا يحبون هذا الكلب. لأن الامبراطور إذا جلس معه انشغل عن كل
شئون الدولة. وقد حدث أن دخل عليه أحد الزعماء الساسيين يستشيريه في
أمر هام. فصرخ الامبراطور: ألا ترى أننى مشغول؟ ورد عليه الزعيم
قائلا: لا أرى ذلك.

فصرخ الامبراطور: اذهب ومزقه تماما!

قالها الامبراطور للكلب. وهجم الكلب على الزعيم ومزق ملابسه. وخرج الزعيم غاضبا. وفي اليوم التالي وجد الكلب ميتا. ولا أحد يعرف كيف مات.. وقرر كاليجولا ألا يدفن هذا الكلب وأن يظل نائما أمام فراشه.. ولما لم يطق كاليجولا رائحة الكلب.. أمر بأن يدفن تحت سريره. وعندما دفن الكلب روى له رجال البلاط – وهم كاذبون – إن آخر صوت أطلقه الكلب هو: كاليجولا.

وأقام الامبراطور احتفالا هائلا لهذا الكلب الذي لم ينسه حتى الموت! وهناك حيوانات أخرى لها هذا الأثر في حياة الانسان: الخيول والأسماك وطيور الزينة.. والزواحف مثل الأفاعى. ولكن الأفاعى لم تفرز بمثل هذا الحب من أحد. رغم أن بعض هذه الأفاعى قادرة على احتضان الانسان والالتفاف حوله. ودغدغته وذلك بأن تضم عضلاتها حوله ثم ترخى هذه العضلات.

ولكن الثعابين ساءت سمعتها من أيام آدم وحواء. ثم أن من بينها عددا هائلا ساما. ولذلك فإن عددا قليلا من الناس يحب الأفاعى. أو تربيتها. وكذلك الأسماك. ولكن عيب الأسماك أنها حيوانات للزينة. فقط للزينة. ولا يمكن أن يكون بيننا وبينها هذا الود. هذا اللمس. هذا التفاهم هذا الامتنان اليومي.. وكذلك الطيور أننا نداعبها. نضعها على أيدينا.. على أكتافنا.. ولكن ليست بيننا وبينها هذه اللغة الصامتة كالتى بيننا وبين الكلاب والقطط.

وإذا كنا نتحدث عن العطف على هذه الحيوانات وحبها والامتنان لها، فكيف نفسر حيوانات المعامل التى يقتلها العلماء كل يوم في كل مكان.

وحجتهم أن قتل الكلاب والقطط والفئران والأفاعى والقروذ هو من أجل أن ينقذوا البشرية. فهم يجرون تجاربهم على هذه الحيوانات من أجل صحة الانسان وبقائه.. وإذا كان العالم سوف يذكر كلب أهل الكهف فإن أحدا لن ينسى الكلبة «لايكا» التى وضعها الروس فى قمر يدور حول الأرض.. وتركوها هناك تموت فى أغرب جنازة عرفها الانسان فقد كان «نعشها» يدور حول ملايين المشيعين لها فى كل مكان.. وكان موت لايكا من أجل الانسانية.. فبعدها انطلقت سفن الفضاء تحمل السرجال حول الأرض.. وبسبب الفئران التى وضعها الأمريكان فى أقمار صناعية حول الأرض تمكن رواد الفضاء من الدوران حول الأرض والهبوط على القمر.. فهذه الحيوانات عاشت وماتت ليعيش الانسان!

وفى بريطانيا سنة ١٩١٠ قتل العلماء ٩٠ ألف فأر.. وفى سنة ١٩٤٥ قتلوا مليون فأر.. وفى سنة ١٩٦٩ قتل العلماء ستة ملايين فأر - أى أجروا عليها تجارب حتى الموت

وفى سنة ١٩٧١ وقف أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى يهاجم العلماء ويقول: إنهم يستهلكون عددا كبيرا من حيوانات المعامل. وأن هذه الحيوانات تموت بعد تجارب فى غاية القسوة!

وهذا العضو أراد أن يهز الرأى العام البريطانى ضد وحشية العلماء. ولكن هل يستطيع هذا العضو أو غيره أن يقنع أما أصيب ابنها بالدفتريا، أو أما أصيب ابنها بشلل الأطفال.. أو وأحدة من الأمهات التى تشوه أطفالها بسبب مادة الثاليدوميد، أن هؤلاء الأمهات على استعداد لقتل هذا العضو من أجل أن يسترد الأطفال صحتهم!

شئ غريب يحدث بين الانسان والحيوان. إن الانسان يريد أن يجعل الحيوان «بديلا كاملا» عن الحب الذى فقده. ولذلك نجد فى المجتمعات

المنعزلة علاقة جنسية بين الانسان والحيوان. وهذه العلاقة قديمة جدا.. أن الملكة سميراميس كانت تركب الخيول عارية تماما.. وكانت أديبة فرنسا جورج صاند تركب الحصان عارية وتختار الوضع المقلوب على ظهر الحصان..
والتوراة تحدثنا عن اليهود منذ أقدم العصور. وكانت بينهم وبين الحيوانات علاقات جنسية حرما أنبياؤهم وقضاتهم.

ففى سفر الخروج (٢٢ - ١٩) نقرأ: من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلا
وفى سفر اللاوين (١٨ - ٢٢) نقرأ ولا تجعل مع بهيمة مضجعا فتتنجس
بها ولا تقف امرأة أمام بهيمة.. أنها فاحشة!
وتقرأ أيضا: وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة تميت المرأة والبهيمة..
إنهما يقتلان دمهما عليهما!

وفى سفر التنبية (٢٧ - ٢١) نقرأ: ملعون من يضطجع مع بهيمة ما!
وهذه البهائم ليست هى القطط والكلاب وإنما الخيول والحمير وغيرها.
إن الانسان يبحث عن اللمس.. عن اللمس إلا من عيون الناس. إلا من
الجوع إلى أحد. إلى قرب أحد. مادام لا يجد الواحد الذى يحب، فإنه
يختار أى أحد. إن الانسان فى العصر الحديث يعيش بالملايين.. ولكن
الملايين مثل ملايين ألواح الثلج.. أو ملايين الصخور. كل واحدة تماسكت
وانطوت والتوت على نفسها وانسدت منافذها ونوافذها ولكن الانسان لا بد
أن يشعر بالدفع بالعين أو باليد أو بالقلب.. فإذا لم يجد دفء الشمس
بحث عن شىء آخر بديل.

تعيس جدا من يحب ما يجد، لأنه لا يجد ما يحب!

.. الملايين تدخن لسبب آخر! (٩)

التدخين ضار بالصحة، وهذه حقيقة علمية، ورغم ذلك فإن عدد المدخنين يعد بعشرات الملايين في العالم. وقد لجأت الدول إلى التحذير من التدخين وفرضت على شركات السجائر أن تضع هذا التحذير مع كل علبة سجائر. وأصبحت نكتة فالمدخن يفتح علبة السجائر ويلقى بهذا الانذار المكتوب ثم يدخل تماماً كالذى ينزع فتيل قنبلة يدوية ويلقيها بعيداً.. أو كالذى يقطع الدائرة الكهربائية في لغم أرضى. ويسحب عشرات الأنفاس ابتهاجا بسلامته!

ولكن هناك نوعين من المدخنين: واحد يبلع الأنفاس وواحد "يهف" السجائر أى ينفخها دون أن يبتلعها. ولكن لماذا يدخل الناس؟ والجواب أن المدخنين قد أدمنوا النيكوتين.. ولكن الذين لا يبلعون السجائر لا تنقل إليهم نسبة عالية من النيكوتين تجعلهم مدمنين. إذن لماذا يدخل الذى لا يبتلع أنفاسه ولا يملأ بها صدره؟

هذا هو السؤال: والاجابة عن هذا السؤال هى أن الانسان يدخل لأنه لابد أن يدخل. وإذا لم يدخل فإنه سوف يفعل شيئاً آخر، وهو يدخل لأنه

لابد أن يضع شيئاً بين شفثيه. شيئاً ناعماً يلمس شفثيه برفق. ولا بد أن يدخل في صدره شيء ناعم دافئ.

لقد اعتاد الانسان وهو طفل أن يرضع ثدى الأم. أن يضع حلمة الثدي بين شفثيه ويمتصها. وعن طريق الرضاعة تهدأ أعصابه وينام.

والطفل عندما تحاول الأم أن تغطمه فإنها تضع في فمه «بزازة» وهى بديل عن الثدي وحلمة الثدي. وأن تضع في داخل البزازة سائلاً دافئاً ومن الواجب أن يكون في درجة حرارة لبن الأم أو جسم الأم. وبعد ذلك تغطمه ببزازة بلا لبن. أى تعطيه بديلاً عن الثدي وليس بديلاً عن اللبن.. ولذلك فـرضاعة البزازة يسمونها الرضاعة بلا تغذية!

والملايين الذين يضعون السجارة والسيجارة والغليون إنما هم جميعاً يستخدمونها بديلاً عن ثدى الأم. وهذا البديل يعطى نفس اللمس الرقيق الناعم، ويدخل في الصدر هواء دافئاً.. وحتى الذين يريدون أن يمتنعوا عن التدخين فإنهم يضعون في أفواههم السجائر دون أن يدخنوها.. أو يضعوا «المبسم» أو «الفم» أو الغليون وبلا سجائر. وكأنهم يستشعرون لمس الشفثين بلا دخان. فالأصل هو أن نضع شيئاً ناعماً بين الشفاه. ولو لاحظنا الذين يدخنون لوجدنا أنهم في كل مرة يضعون السجارة أو ينقلونها من أفواههم تلمس أيديهم الشفثين والوجه.. تماماً كما كنا نلمس صدر الأم ونحن نرضع.

والذين قرروا أن يتوقفوا عن التدخين يلجأون إلى استخدام اللبان. واللبان هو نوع من المطاط الحلو. نمضغه ونبلع ريقنا. فاللبان هو نوع آخر من البزازة. ولكن في داخل الفم. وهذا اللبان كأنه نوع من الرضاعة بلا غذاء أو كأنه نوع من السجائر التى لا تدخنها. وربما استراح من يمضغ

اللبان الى ذلك ولكن الناس – عادة تضيق بالذى يمضغ لأنه كالذى لا يكف عن الأكل دون أن يأكل.. فلا هو يأكل حقيقة ثم يتوقف بعد ذلك، ولاهو طفل يرضع.

فكأننا نقضى على التوترات العصبية أو الأزمات النفسية باستخدام نوع من «الرضاعة». وهذه الرضاعة تضر بالصحة. أى أننا نخفف التوتر باستخدام السجائر التى قد تؤدى إلى المرض. فنحن نقضى على الأزمة بعمل أزمة أخرى.. وكأننا نحاول أن ننقص عدد سكان العالم بالمرض أو باستخدام الحروب، أو كأننا نحل أزمة المساكن بوضع الناس فى السجون.

إن التوتر اليومى لن ينتهى وإزالته مجهود لن ينتهى أيضا وضيق الانسان بالسجائر يخلق توترا جديدا، يحتم علينا أن نضاعف التدخين!

ومن الملاحظ أن بعض الذين يتوقفون عن التدخين يزداد وزنهم، وهذا طبيعى. لأنه إذا توقف عن التدخين، أى عن عادة التدخين، فإنه يكون شديد التوتر. ولذلك يحاول أن يهدئ أعصابه بتناول الكثير من المشروبات أو من الأطعمة. وهذا يؤدى إلى زيادة وزنه. وأثناء التدخين كان يكتفى بابتلاع الهواء ونفخه.

وهذه المشروبات التى يعتاد عليها خارج البيت، أو فى البيت، ليس سببها أنه عطشان أو جوعان. ولكن السبب الحقيقى هو أننا نحاول أن نخفف من حدة التوتر، فكأن الأعصاب ملتهبة ونحن نلقى عليها بالمشروبات والأطعمة!

ونحن نجعل الأكواب والفناجين ناعمة اللمس، لكى يكون لها ملمس خاص على الشفتين. ونحن نرفض الأكواب ذات الأطراف الحادة أو

الخشنة لا لأننا لا نطبق ذلك، ولكن لأن لدينا شعورا عميقا بأن تكون في نعومة ثدى الأم.

ونحن نشرب أيضا عن طريق «شفاطة» هذه الشفاطة هي أيضا كالسيجارة – الرقيقة.. أى كالثدى النحيل الضامر الممدود، ولنفس السبب أيضا!

وهناك أناس يفضلون الأكواب أو الكؤوس التى تشبه الكرة. والتى تلتف حولها أصابع اليد. كما تلتف أصابع الطفل حول ثدى أمه..

ونحن فى كل هذا الذى نعمله. نحاول أن نلمس أشياء بديلة عن أشياء أخرى موجودة فى الأم.. أو كانت موجودة فى الأم عندما كنا أطفالا نرضع اللبن والحنان.. أو نرضع الحنان.

ثم ما هذه المخدات التى نضع عليها رؤوسنا لننام. إن هذه المخدات يجب أن تكون لينة ناعمة. يجب أن نضع عليها رؤوسنا فتستسلم الرؤوس. فإذا كانت المخدات جافة لم ننم.. وإذا كانت لينة أكثر مما يجب، فإننا لا ننام. فكأننا أيضا نبحث عن صدر الأم، أو عن شئ مثل صدر الأم. والمخدة هى البديل.. وبعض شركات المخدات ترسم على المخدات صورا لكواكب السينما أو بطلات الرياضة. أحيانا تكتفى برسم الوجه فقط. فإذا نام عليها أحد أحس أنه قد وضع خده على خد نجمته المفضلة.

وحاجة الفتاة إلى الحنان والدفع والرقعة. تجعل العلاقة التى بينها وبين مخدتها شيئا عجيبا. فالفتاة لا تنام إلا على مخدتها هى. وأحيانا تنقل مخدتها من مكان إلى مكان. فإذا سافرت حملت مخدتها معها.. وتعانق مخدتها طول الليل. وأحيانا تتحدث إليها.. وتشهدا على ما يحدث لها وحولها فى البيت وما يقع لها من أبويها.. أن الفتاة ترى فى المخدة صدر حنون كأنه صدر الأم.

وفي سنة ١٩٧٠ اخترعت شركات المخدات والمراتب الأمريكية مرتبة مملوءة بالماء الدافئ. ووصفت هذه المرتبة بأنها « الترف السائل » والماء في داخل المرتبة في درجة حرارة الجسم. وهذه المرتبة السائلة هي بديل عن بطن الأم نفسها. فقط كأن الجنين يسبح في ماء دافئ.

وقبل ذلك بألف سنة كانت قطر الندى تنام على سرير، والسرير فوق بحيرة من الزنبق. وكان السرير يهتز تماما كما يهتز جنين في بطن أمه.. وإعلانات الشركات الأمريكية تقول: كيف ترقص روك أند رول وبعدها تنام.. كيف تجعل النوم بحيرة من الماء الدافئ. كيف تعيش في الجنة دون أن تموت.. كل ذلك لترغب الناس في هذه المراتب الدافئة السائلة!

وأخر موضة للمقاعد هي أن تكون هذه المقاعد مسحوبة ولها أطراف حانية على من يجلس عليها كأن هذه المقاعد أحضان.

ولابد أن الناس عندما يسافرون فإنهم يفضلون الذهاب إلى الفنادق. لأن الانسان في الفندق يجلس على سريريه وكل شيء يجيء حتى فمه وليس عليه إلا أن يضغط على زرار ويجيء الطعام والشراب دون أن يتحرك من مكانه كأنه طفل وليس عليه إلا أن يضغط على صدر الأم فإذا كل شيء جاهز عنده.

ولابد أن تكون الحمامات الدافئة نوعا من الاحضان السائلة. خصوصا إذا كانت درجة حرارة الماء مثل درجة حرارة الجسم الانساني، والأطباء ينصحون كل من يشكو من توتر في أعصابه أن يتمدد في حوض به ماء دافئ فقط. ولا يفكر في شيء.. بعد دقائق سوف يهدأ، كما يهدأ طفل أعيد إلى أمه. واستقر في حضنها!

وهناك بعض « الحركات » نفعلها نحن دون أن نجد لها تفسيراً. مثلاً إذا اضطرب الواحد منا أو وجد نفسه في موقف حرج، فإنه يضع يده في جيبه. كأنه يتساند على نفسه. أو كأنه يتساند على إنسان آخر. والحقيقة أن وضع اليد في الجيب أو وضع اليدين له معنى آخر فنحن عندما نضطرب في حاجة إلى أحد يلمسنا. أن يسندنا. يحتضنا يعانقنا. ووضع اليد في الجيب يعطى هذا المعنى: إن يدا قد امتدت إلينا.. وهذه اليد تلتف حولنا. وهنا يشعر الإنسان أنه ليس وحده. وإنه قد وجد ذراعاً تمتد إليه أو حوله. وكان الرئيس كينيدي يلعب في زرار الجاكّة عندما يواجه الجماهير.. وكان تشرشل يمسح بيده على جيبه.. وكلاهما يؤكد نفس المعنى: إن أحداً قد اقترب ولمسنا وكان في هذا اللمس نوع من الاحتضان.

ونحن نطلب من الطفل ألا يضع يده في جيبه وهو يتحدث إلينا.. وكذلك نطلب من الذين يصغروننا في السن أو في المركز. ولكن لماذا؟ لأن الذي يضع يده في جيبه هو إنسان قد استرخى قليلاً أو يريد ذلك. ونحن عندما استدعينا طفلاً أو غيره لكي نتحدث إليه أو نلومه أو نعاتبه أو نأمره فإننا أردنا أن يكون في حالة انتباه. أو حالة تحفز أو حالة استعداد لأن يعمل شيئاً جاداً. فالموقف جاد، وليس موقف استرخاء ونوم!

وشيء من ذلك يحدث عندما تصاب المرأة بضيق أو بحرج وسط الناس. فإنها بسرعة تفتح شنطة يدها وتنظر في المرأة. والذي تراه في المرأة لم يتغير ولكن الحقيقة غير ذلك. فهي قد قررت أن تمسك أحمر الشفاه وتلمس به شفتيها.. ثم تضع البودرة على خدها.. واللمس للشفيتين والخدين يعطيها شيئاً من الهدوء. فهي قررت أن تفعل ذلك، أما النظر في المرأة فليس له أى معنى.. وإنما هي تحاول أن توهم الذين حولها أنها

أحست بشيء غير عادى فى وجهها وقررت أن تصلحه. ولكن الحقيقة هى أنها قررت ذلك. والمرأة ليست إلا نوعا من التعمية. ومحاولة ألا يكون تصرفها مفهوما أمام الآخرين!

والرجال يلجأون إلى حيل مماثلة. فيجد الواحد منهم قد راح يسوى الكرافته أو يسوى شعره.. أو ينفض البنطلون أو يشد جوربه.. ولا شيء يدل على ضرورة أن يفعل ذلك مطلقا. ولكن اضطرابه وتوتره حتم عليه أن يلمس بيده كل هذه الاشياء، واللمس يهدى أعصابه!

وفى أساطير الأغريق أن الاله دىالدوس الذى استطاع أن يطير هو وابنه ليكاروس من أثينا إلى جزيرة كريت، كان يحب أن يقال عنه أنه أول من اخترع شراع السفينة وأنه أوصى أصحابه بأنه عندما يموت أن يلفوه فى شراع سفينة وأن يلقوا به إلى البحر.. وأن هذا الشراع سوف يفتح ليظل سابحا إلى الأبد.

ولكن هذا الاله حرم من حنان الأم فى سن مبكرة. ولذلك نجده يتمرغ فى الليل على الأعشاب. وعلى الأغنام.. وعلى أوراق الشجر.. وعلى سطح الماء. وعلى بخار المواقد وعلى السحب.. ان الاله دىالدوس هو صورة نموذجية للطفل الذى يريد أن يصنع لنفسه ألف نموذج لصدر الأم وحنان الأم.. صحيح أنه إله ولكن فى داخله طفلا إنسانيا جائعا إلى حنان الأم.. أن الهة الاغريق كانوا قادرين على أن يصنعوا لأنفسهم ولغيرهم كل شيء.. ولكن شيئا واحدا لم يقدروا عليه! أن يجدوا بديلا عن صدر الأم وثنى الأم ودفء الأم.. عن أول وأصدق وأعمق وأبقى مصدر للحنان!

إن الطفل رجل صغير.. غلط! (١٠)

انظر إلى طفل صغير يلهو بالقرب من أمه.. انظر إلى عصفور وقف على حافة العش.. إلى قرد يتمرغ فوق الأشجار. إن لدى الصغار شجاعة.. وجرأة.. وحرصا على تعريض أنفسهم للخطر.. ولكن لماذا.. لأنهم يعتمدون على الأم، على قريباها. على حنانها. وعلى أن يديها أقرب إليهم من الخطر. على أن صرخة واحدة تجعلها تقفز من أى مكان لانقاذهم.

إن هذا « الحب الجاهز » والحنان المترصد هو الذى يعطى الطفل شجاعة على العالم الجديد. أن يدفعه إلى ارتياده. وكل العلاقات والروابط والصداقات التى تربطنا بمن حولنا هى التى تغرينا بتكوين علاقات أخرى، نعيش بها، وعليها ومن أجلها.

فنحن فى هذا العالم غرباء. انظر إلى الذين حولك فى أى مكان. من الذى تعرفه منهم لا أحد. ومع ذلك يجب أن تتصرف كأنك تعرفهم ويجب أن تعمل على اتقاء ضررهم وكسب صداقاتهم. وإذا لم تستطع أن تكون صديقا للجميع، فلا أقل من أن تكون زميلا أو رفيقا. أو معايشا أو لا عدوا ولا صديقا.. مع أن هذا موقف صعب.

والذى لا تربطه بأحد صلة قوية، كالذى لا يجد المسكن أو الغطاء
ولذلك فهناك رأى يقول: إن الانسان يجب أن يجعل حياته سهلة لمن يدخل
فيها، وسهلة لمن يخرج منها أيضا. ولذلك لا يفرح كثيرا بأحد، ولا يحزن
عليه أيضا ولو استطاع الانسان ذلك فإن حياته سوف تكون قاسية. لأنه
من الضرورى للانسان أن يحب وأن يكون محبوبا.. هكذا عشنا طويلا في
أحضان الأم نحبها وتحبنا.

وهناك رأى يقول: احتفظ لنفسك بنفسك ولا تعرضها فتهون والشاعر
العربى القديم يقول:

عرضنا أنفسنا عزت علينا وما رخصت فاستباح بها الهوان
ولو أننا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

والمثل الأعلى لهذا السلوك الاجتماعى والنفسى أيضا هو: أن الانسان
يكفى خيره شره.. وقفل بابه عليه ويقول: يا دار ما دخلك شر. والباب الذى
يجىء منه الريح يجب أن تسده لتستريح!

ولكن كيف الحياة بلا هواء أو ريح.. كيف الأبواب لا تنفتح ولا تنغلق
كيف لا يكون خير ولا شر؟ كيف لا تمد يدك لتأخذ، ولتعطى أيضا.. كيف
تكون لك يد ولا تمدها للسلام أو للشراء أو للقتال أو للعمل. كيف تكون بين
الناس ولا تربطك بهم صلة قوية أو ضعيفة. والمثل اليونانى القديم يقول:
إن الفم المغلق لا يدخله الذباب. ولكن كيف يظل الفم مغلقا دائما؟

إن الذين يطالبون بالاعتدال فى كل شىء يقولون: بل يجب أن تكون
علاقتنا محدودة. أصدقاء قليلون. وأعداء قليلون. أو صديق واحد وعدو
واحد. أو عدو واحد يكفى! ولكن كيف؟

لو أفلح إنسان في أن يحدد صداقاته وعداواته هكذا، لكان أسوأ أخ،
وأتعس صديق، وأقسى قريب.

ولكن ما الذى يجعل مثل هذه المواقف صعبة علينا!

يقول واطسون أحد علماء النفس الأمريكان: إن الغلطة تبدأ عادة من
الطفولة. فالأم تغمر طفلها بحنانها. بأحضانها وقبلاتها. إذا بكى سارعت
بالطعام. وإذا غضب سارعت بالهدايا.. إن هذا النموذج من سلوك الأم هو
الذى يجعل الطفل شابا مدلا ورجلا لم ينضج بعد ولذلك فعلى الأم
ألا تقبل ابنها كثيرا.. وألا تعانقه. وعليها أن تتركه يعيش بعيدا عنها.
وألا تجعله يشعر لحظة واحدة بأنها تراه. وإذا أحست بشيء من الشوق أو
الحنين إلى طفلها فلتنظر إليه من ثقب الباب. ومن الواجب أن تعامل
طفلها على أنه شاب، وليس على أنه طفل. وأهم نصيحة: أن تكون قبلات
الأم لطفلها على جبهته وليس على خديه أو شفتيه. وأن يتبعها الجميع
وينفس الأسلوب!

ويقول واطسون: بهذا السلوك من الأم، والسلوك من الطفل يصبح
المجتمع أصح وأكمل وأشد صلابة وأسرع نضجا!

ويمكن أن نضرب مثلا ملموسا.. فقد لوحظ في اليابان أن الفتيات لهن
سيقان معوجة. كان ذلك قبل الاحتلال الأمريكى لليابان. ولماذا؟ لأن الأم
كانت تحمل ابنتها على كتفها حتى سن متأخرة. وتلتف ساقا الطفلة حول
خصر الأم. وتكبر الطفلة وساقاها ملتويتان.. ولكن في العشرين عاما
الماضية خرجت المرأة اليابانية إلى العمل. ولم يعد عندها وقت لتحمل
ابنتها. وتركت مهمة حملها للأرض. فاستقامت ساقا الفتاة اليابانية لأنها

مشيت على الأرض ولم تتعلق من ظهر الأم أو كتفيها. وهذا واضح عندنا أيضا في الريف !

ومعنى ذلك أن الطفل الذى يركب كتفى أمه، تلتوى ساقيه. والذى يعتمد على نفسه تستقيم رجلاه. والذى يحدث فى الساقين، يحدث فى السلوك العام للطفل. فلكى يستقيم الطفل يجب أن نبعد عنه الحنان الزائد للأم ! ولكن إذا فعلنا ذلك مع أى طفل فإن هذا الطفل الذى لا يعرف الحنان لا يعرف الأمان. والذى لا يعرف الأمان لا يجد الشجاعة على أن يواجه حياته. ويشعر بالغربة والانطواء فى سن مبكرة. ولا يثق فى أحد من الناس. ويكون خائفا من المجتمع. أو يكون كارها لكل علاقة بين طفل وأمه أو بين رجل وامرأة. ويصبح إنسانا كارها لكل علاقة بين طفل وأمه أو بين رجل وامرأة. ويصبح إنسانا ألياً. لا يربطه بالناس شىء.. إلا ضرورة التعايش معا، والتجاوز فى المكان.

فى إسرائيل يقومون بتجربة هى : حرمان الطفل من والديه. وذلك بأن يعيش الأطفال فى المستعمرات. حياة جماعية. والأم بعيدة عن ابنها. والأب كذلك. والهدف هو ألا يكون لدى الطفل عقدة تتعلق بالأب أو تتعلق بالأم. وإنما تتعلق بالأرض. وبالمستعمرة. بالدولة وقد أسفرت التجربة عن أطفال فى غاية التعاسة والمرارة. لأنهم حرموا تماما من الحنان إنهم فى صحة جيدة ولكنهم فى غاية الكآبة والحزن. ولذلك فبعض العلماء يطالب بالعدول عن هذه التجربة. لأن نتيجتها خلق وحوش بشرية وتعذيب الآباء والأمهات بلا تعويض معقول !

والتجربة المشهورة لخلق إنسان فى المعمل – هوفر الكشتين – قد نجحت فى « ابتداء » إنسان ضخم قوى. ولكنه وحش. وليس من الغريب

أن يبادر هذا الوحش بقتل الرجل الذى صنعه فى المعمل. لأنه خلق منفرا خلق بغیضا إلى كل الناس. فقد كان شكله قبیحا. ولكنى أعتقد أنه من الداخل أقبح من الخارج : لأنه إنسان بلا إنسانية.. إنسان عاجز عن الحب.. عاجز عن أن تكون له صلة بأحد.. فالناس يهربون منه، وهو لا يستطيع أن يأوى إلى حنان الناس.

ویکفى أن تذهب إلى ملجأ الیتامى أو اللقطاء لتعرف ما هی مفردات التعاسة الانسانية وكيف یكون الانسان إذا لم یعرف من هی الأم ومن هو الأب؟ وإذا أحس أنه بلا ذنب قد تحول إلى سجين؟ وكيف أنه یرید أن ینسى كل هذا الماضى إذا خرج ليعیش بین الناس؟ وكيف تكون نظرة الناس إذا عرفوا أنه إنسان لقیط.. مثل المستشار فیلى برانت أو برانت أو ابن غیر شرعى مثل صوفیا لورین وهتلر. إن القلیلین جدا هم الذین استطاعوا أن یفلتوا من هذه المرارة والحقد على كل الناس والتأمر على المجتمع!

وهناك مشكلة أخرى: ماذا یحدث للطفل إذا كان الأب متشددًا والأم متساهلة؟ ان الأب لا یکاد یرى طفله حتى یقسو علیه ویضربه. أو یعذبه أو یهدده بذلك. ولا تکاد الأم ترى طفلها حتى تحتضنه وتمسح وجهه ویديه ورجليه بالقبلات وتعطیه بقدر ما یعاقبه أبوه. وليس غریبا أن یلاحظ الأب أن الابن مدلل مائع. وأنه كثيرا ما یرتکب أعمالا حمقاء. أو یتظاهر بالمرض وقد یمرض. ولكن المشكلة هنا لیست تدلیل الأم أو قسوة الأب. المشكلة هی هذا الاضطراب فى معاملة الطفل. وحيرة الطفل بین قبلات الأم وصفعات الأب. بین سحاء الأم وبخل الأب. بین الشدة واللين. بین التهديد والهدایا.

وكثيرا ما يقول الأب للأم : أنت فشلت في تربية طفلك . وكثيرا ما تقول
الأم : بل أنت الذى جعلت من نفسك عفريتاً لا يراه الطفل حتى يهرب .
ويقول الأب : أنت تقدمين الرشاوى لطفلك لكى يكرهنى .. وتقول الأم : أنت
الذى جعلته يكرهك .. لماذا لا تكلمه . لماذا لا تعلمه ؟ لماذا لا تقبله ؟ لماذا
لا تشجعه على ذلك دائماً !

ولابد أن هناك غلطة قد وقع فيها الأب . وهذه الغلطة عمرها أكثر من
ألف سنة . فقديمًا قال الفيلسوف الأغريقى أرسطو : إن الطفل رجل صغير .
أكبر غلطة . فالطفل ليس رجلاً . وإنما هو كائن صغير . فى حاجة إلى أن
نعامله على أنه كائن لا يعرف إلا القليل من هذه الدنيا . لا يعرف القليل
عن نفسه وعن غيره . ولذلك يجب أن نعامله على أنه صغير يريد أن يعرف
وكثيرا ما يغلط وعن طريق الغلط يعرف الصواب ويتطلع إلى شىء جديد .
ولكن إذا تصورنا أن الطفل له عقل رجل وجسم كائن صغير ، فقد ظلمنا
الطفل . لا أسأنا إليه ..

فإذا اختلف الأب والأم فى تقدير المسافة التى يجب أن تكون بين الأب
والطفل والأم والطفل فإن الطفل سوف ترتبك حياته . فالأب يريد أن يجعله
بعيدا والأم تجعله قريبا . ويتذبذب الطفل بين الأب والأم .. ويتلعثم ويتهته ..
ويصبح مشلول الارادة والقدرة على الفهم والتمييز بين الخطأ والصواب .
والصديق والأم ، والعدو والأب ..

لابد أن تكون هناك مسافة معقولة بين الأطفال والآباء والأمهات ..
وهناك مشكلة أكبر من ذلك . وهذه المشكلة تتعلق بالمسافات التى بيننا
فإذا نشأ الطفل على أنه على مسافة قريبة جدا جدا من الأم والأب . فإن
هذا الالتصاق بهما يجعله عاجزا . لأنه يعتمد على الأب والأم . وفى نفس

الوقت يكره هذه العلاقة. لأن الطفل عندما يكبر يريد أن تكون له شخصية مستقلة. وأن تكون له خصوصيات. أى يجب أن يكون على مسافة أبعد وأبعد، حتى لا يراه أبواه. أن تكون له غرفة خاصة. أن تكون له علاقات خاصة. أن يقول: هذا لى وحدى.. وهذا شأنى.. وهذا رأىى.. وهذا مستقبلى.. وهذه فتاتى.. زوجتى.. ابنتى.. حياتى.. آخرتى.. وهكذا.

فإذا اتسعت المسافة بين الأب والأم منذ الطفولة، ولم يكن للأب والأم أى دخل فى حياة الطفل. كان ذلك وبالا على الطفل. وإذا كان الطفل لصيقا بأبويه، فلا مسافة ولا خصوصية، فإن هذا الطفل سيكون عاجزا مشلولاً..

ومنذ عشرين سنة ظهرت فى أمريكا دراسة عميقة للدكتور كنزى عن السلوك الاجتماعى والجنسى للمرأة والرجل. وكان التقرير مثيراً لأنه هز الكثير من العقائد الاجتماعية والنفسية.. وقد لاحظ د. كنزى أن عددا كبيرا من النساء الأمريكيات قد استسلمن للانحلال الجنسى. دون سبب واضح. بل أنه لاحظ أن بعضهن شديد التدين. ولاحظ أن أكثرهن متمسكات بالتربية الفاضلة لأبنائهن. ولكن اهتدى د. كنزى إلى أن المرأة الأمريكية لا تريد الجنس وإنما تريد أن تكون فى «حضن» رجل. أن تشعر بشيء من حنان مهما كان الثمن غالياً.. فالجنس هو وسيلتها إلى أن تكون فى حضن رجل وفارق كبير بين أن يؤدى الحضن إلى الجنس وبين أن يؤدى الجنس إلى الحضن إنها تريد اللمسة الحنون وتدفع الثمن من جسمها ومن كرامتها.. وكثير من الأمريكيات قد اعترفن للدكتور كنزى أنهن يكذبن على الرجال ويدعين صفات ليست لهن وأن يروين قصصا تبعث على الأسى لا لحاجتهن إلى المال. ولكن لأنهن يفتقرن إلى العطف وإلى الحنان. وهن كاذبات، والرجال كاذبون.. ولكن الانسان عندما لا يجد الحنان فإنه يتسوله.. يشتريه.. يسرقه!

ومما اهتدى إليه د. كنزى أيضا في أمريكا. أن اللقاءات والاجتماعات والتجمعات التي يحرص الناس عليها ليست إلا مناسبات للعلاج الجماعى ولكن ما المرض؟ المرض هو أحدث ما عرف الانسان: العزلة الجماعية. أى أن يشعر الانسان بالعزلة رغم أن الناس حوله. ولكن عندما يكون مع الناس بين الناس ضمن الناس وفي مناسبة معروفة يصبح اللمس مشروعاً.. أن تمد يدك وتصافح.. أن تساعد واحدة على أن تجلس.. أن تميل عليها وتهمس.. أن تقترب. أن تحرص على مزيد من الاقتراب واللمس. إن هذه الجمعيات أو الجماعات ليست إلا مناسبات قانونية ليكون اللمس مشروعاً.. لتكون وسيلة إلى لمس منتظم: صداقة.. حب.. زواج..

بعض علماء النفس يرى شيئاً آخر.. فهو يعتقد أن الانسان حيوان اجتماعى ولذلك – بغيريته – يجب أن يكون مع الناس.. وليس من الضرورى أن يشعر بهم تماماً كما يمشى فى الشارع أو يذهب إلى السينما أو المسرح أو ملاعب كرة القدم.. إنه وسط الناس.. بينهم.. فى إناء واحد يغلى معهم بالفرحة أو بالنظر أو بالغيط معهم.. ولا يستطيع أن يتوقف عن الانفعال وهو مع الناس!

ومن الواجب أن نفرق بين هاتين العبارتين: «الانسان له جسم».. و«الانسان جسم»..

فالذى يرى أن الانسان له جسم، يرى أن له جسماً وعلاقات وغرائز وعواطف. وأن الجسم هو ضمن مكونات الانسان. ولذلك يمكن إشباع الانسان بأشياء أخرى غير جسمه.. والذى يرى أن الانسان جسم، يرى أيضاً أن كل شئ يجب أن يمسه الانسان ذهاباً وإياباً.. فبغير جسم الانسان لا إنساناً. ولذلك يجب أن يبدأ اللمس الضيق واللمس العريض

والعميق بالجسم الانساني نفسه. لذلك إذا وضعنا سياجا على حواسه.
وقيدناه وعزلناه، فنحن نربي وحشا كاسرا باردا جامدا حزينا..

وكل شيء يبدأ من الطفولة وعلى نمطها.. يبدأ بالأم وعلى نموذج هذه
العلاقة لنا علاقات أخرى جديدة بديلة. فليس في الامكان أن نتخلص من
هذه الفترة الخطيرة من حياة أى واحد منا : عندما كنا في بطن الأم وعلى
صدرها وعلى مقربة من قلبها بعد ذلك !

العودة إلى الكهوف لأسباب عاطفية !

(١١)

منذ عشر سنوات ذهب الناقد الأمريكى الكبير آدموند ويلسون ليتفرج على معرض أقامه الشبان فى إحدى ضواحي سان فرانسيسكو، الطرق جميلة، الحقول واسعة، الحدائق فى كل مكان. الطيور والحيوانات. والسيارات والفتيات. وفجأة وجد خيمة سوداء ممزقة وعلى هذه الخيمة تعلقت الأحذية والملابس الداخلية للفتيات والفتيان. وعلى باب الخيمة هذه العبارة: إن كانت لديك أية فكرة سابقة فلا تدخل !

ورأها الناقد الكبير. وتوقف لحظة ثم دخل. وفى داخل الخيمة وجد عددا من الشبان والشابات عراة تماما. وقد وضعوا على رؤوسهم ريش الهنود الحمر. ونقشوا على صدورهم صور بعض الحيوانات المنقرضة. وعلى وجوههم أسماء القبائل التى ينتسبون إليها وعلى مرأى من هؤلاء العراة وقف الشاعر الأمريكى جينزبرج يلقي قصيدة جميلة. أعجب بها الناقد الكبير. ثم أشاروا إلى باب الخيمة يعلنون انتهاء الزيارة !

وعاد الناقد ليقول: إن الشبان يريدون خراب أمريكا لأنها لم تملأ قلوبهم وعقولهم وأحضانهم بشيء يجعل للحياة قيمة !

فما معنى هذا؟ معناه أن هؤلاء الشبان قد عجزوا عن مسابقة الحياة الخاطفة في أمريكا. لم يتمكنوا من أن يمزقوا كل العلاقات الانسانية التى تربط الجار بالجار. والابن بالأب. والفتاة بالحب. «لم يمزغوا هذه الحياة. وعندما مضغوها لم يهضموها. وعندما هضموها هضمتهم وهدت حيلهم. وكفرتهم بكل ما هو إنسانى، أمريكى وغير أمريكى».

ولنعد. إلى البيت الأمريكى، والبيت فى كل المجتمعات الصناعية الرأسمالية. من الضرورى أن يعمل الجميع، وإلا أصبحت الحياة مستحيلة. زوجة الغنى وزوجة الفقير لأن المثل الأعلى: هو أن يكون الانسان مرتبطا بشئ أو مرتبطا بأحد.. وسيلة الارتباط هى العمل. أن يكون الانسان رئيسا أو زميلا. خادما أو مخدوما. والعلاقات كثيرة. والروابط ثقيلة. والوقت والجهد والرغبة والهدوء الذى يتبقى بعد ذلك يكون من نصيب الزوج، إن كان هناك، أو زوجة إن كانت، والأولاد.. فلا وقت لأحد!

ومن هذه المسافات البعيدة، وبينها وبسببها، تولد علاقات متباعدة أيضا بين الأقربين: الأولاد والآباء والزملاء والجيران والمواطنين. والانسان حيوان قريب، يجب أن يكون بالقرب من أحد أو من شئ. فإذا لم يجد الأشياء قريبة منه، فإنه يجعلها كذلك بالذوق أو بالقوة.. بالحب أو بالفلوس. بالقهر أو بالذل.

ولذلك اندفع الأطفال، بسبب تباعد الأب والام، إلى الرجولة المبكرة. أى إلى الاعتماد على النفس.. والخوف من العلاقات التى تعطل الانسان عن عمله وعن دوره فى الحياة الاجتماعية. وكبر الأطفال دون أن يستمتعوا بالطفولة. ودخلوا فى مرحلة الرجولة دون أن يعرفوا ذلك.

وبسرعة ويشعور تلقائي احتشد مئات الألوف من الشبان في أوروبا وأمريكا لإنشاء حياة جديدة. حياة من صنعهم. حياة يقومون فيها بدور الأب والأم. يعطون الحنان الذي افتقدوه ويسرفون في الحب الذي لم يجدوه.. بل إنهم استنكروا المدينة والمدنية.. المواصلات والنور.. النظام والنظافة.. المكتب والمعبد.. الحلاق والترزي والطبيب والمدرس ورجل الأمن ورجل المرور. واختاروا أن يكونوا على هامش المدينة والمدنية.. فأقاموا الخيام. وحفروا الكهوف وعاشوا بالجملة معا. مثل البدائيين. وأعطوا كل ما عندهم لأنفسهم.. وأقفلوا على أنفسهم الأبواب والنوافذ.. إنهم معا. متقاربون متلاصقون متحاربون. بلا مسافات. بلا أبوة لأحد. ولا بنوة لأحد. وظهر منهم «أنبياء» يبشرون بالمحبة العامة. والسلام التام. والاكتفاء الذاتي، ماديا وعاطفيا!

وحقق هؤلاء الشبان لأنفسهم كل ما كانوا يحلمون به من أخوة وأبوة وحب وجنس ودين وسلام مع أنفسهم ومع غيرهم.

ونبذهم الناس. ولكنهم نبذوا أنفسهم قبل أن يفعل الناس ذلك. واختاروا أن يكونوا بعيدا عن الناس، قريبين من أنفسهم. وكانت هذه الحياة الحارة التي هي كلها أحضان حتى الكهف ليس إلا حضنا دافئا يدق بعشرات القلوب معا!

ووصفهم المجتمع الكبير في أوروبا وأمريكا بكل الصفات القبيحة قالوا: بدائيون همجيون. وقالوا: شواذ.. وقالوا: قذرون.. وقالوا: وثنيون!

وأحس الشبان أنهم قد تحولوا إلى ميكروبات يخاف منها المجتمع.. وهذه قوة لم يتصورها من قبل. وأغراهم ذلك على التمسك معا. وتماسكوا بعيدا.

وأول شعار رفعه هؤلاء المنبوذون هو اسم: بريابوس!

وبريابوس أحد أبناء الاله فينوس، إله الجمال. ولكن من الغريب أن هذا الابن كان قبيح الشكل. ويبدو أن الاله فينوس عندما ولدته أمه، استغرقت هذه الولادة وقتا طويلا. فمدت يدها تسحب المولود. فشوهت يديه ورجليه وخصوصا أعضائه الجنسية ولما رأته انزعجت. وأنكرت أنها أمه. وألقت به فوق الجبال. ولكن بريابوس هذا كان قدرا على زراعة الحقائق والورود. وله قدرات جنسية خارقة. ولذلك التفت حوله النساء وتكاثر عليه الرجال يريدون قتله.. ولكن بريابوس كان يهرب منهم. أما شكل بريابوس هذا فله وجه إنسان وأذنا ثور وفي يده عصا يضرب بها الطيور. وله صوت حمار.. ويقال أن بريابوس لم يكن كذلك عند ولادته. وإنما حقد عليه الآلهة الذكور فتكاثروا عليه فشوهوا معالمة الباقية!

وعندما اختار هؤلاء الشبان بريابوس رمزا لهم. لم يكن ذلك بسبب رغبتهم في الاباحة والتلامس الحر، ولكنهم أرادوا أن يذكروا الناس بأن صورتهم قد شوهها الحاقدون عليهم. فهم ليسوا كذلك. وإنهم ليسوا مجرمين، وإنما هم ضحايا. ويأبى المجرم الحقيقي ألا يصورهم مجرمين. مع أن المجتمع قد جنى عليهم.. لا أحد بالذات هو الفاعل الحقيقي. ولكن الحضارة الصناعية الحديثة. التكنولوجيا هي التي جعلت الطفولة نتيجة طبيعية لزواج اثنين. وما بعد ذلك لا يهم. فالطيور والحشرات لا تفعل ذلك.. أنها أكثر حنوا على صغارها!

والشاب الأمريكى الذى قتل الممثلة شارون تيت كان ضمن قبيلة معروفة باسم قبيلة «بيراموس» وذهبت هذه الكلمة ضمن ملايين الكلمات التى صدرت فى الصحف العالمية عنه. وبيراموس هذا عاشق بابلى قديم. لم

يسئ إلى أحد. ولا قتل أحدا. وإنما قتل نفسه. فقد كان يحب فتاة اسمها
ثيسبا. ولما عرف أهلها حبسوه وحبسوها. وكان بين العاشقين جدار.
استطاعت الفتاة أن تشق الجدار وأن تتفق معه على لقاء. وكان اللقاء
تحت شجرة التوت الأبيض. وذهبت الفتاة إلى الشجرة.. وهناك وجدت
أسدا وخافت وهربت إلى أحد الكهوف. وسقط منها منديلها. وأقبل الأسد
يلعق المنديل وترك قطرات من الدم. وجاء العاشق فرأى المنديل داميا،
فظن أن الأسد قد أكل معشوقته. فجاء تحت شجرة التوت الأبيض وقتل
نفسه. وشربت الأرض دمه. ومنذ ذلك اليوم والتوت لونه أحمر!

ولذلك كان شعار هذه القبيلة: هذه دماؤنا وليست دماء أحد!

ولم يكتف هؤلاء الشبان في أمريكا وأوروبا بالعودة إلى الحياة البدائية..
بل أن بعضهم أراد أن يقلب التقاليد في المجتمع حولهم، فجلس الرجال في
الخيام والكهوف. وتركوا الفتيات يأتين لهم بالطعام وبالفلوس. وبعضهم
اختار اسم الزوجة بدلا من اسمه هو وارتدت الفتيات ملابس الرجال..
وارتدى الرجال ملابس الفتيات. والأسماء التي اختاروها للقبائل كلها
مأخوذة من مجتمعات الغجر في أوروبا أو من البدائيين في غينيا الجديدة.
مثل قبيلة «تشامبولي». وهذا الاسم قد اختاره الشاعر الأمريكي أرنولد
ليفن اسما لملمحته المعروفة.. وهذه القبائل رجالها في غاية النعومة والرقّة
ونسائوها في غاية القوة والصلابة والعنف!

ولم يفكر واحد من مئات الألوف من الشبان في الاعتداء على أحد. بل
أنهم جعلوا شعاراتهم: الحياة تمشى ونحن متفرجون.. المصانع تأكل
الناس ونحن نشعل سجاثرنا من قلوبهم.. الطاحونة تدور وأسناننا تتسوس
منها.

ولأنهم اختاروا الهروب من هذه الحياة التى لا تريحهم هربوا مرة أخرى مستخدمين المخدرات. أو عقاقير الهلوسة. ولم يكن غريبا أن يكون الشاعر الفرنسى بودلير نبينهم فهو الذى ألف كتاب « الجنة الزائفة »... وهو فى هذا الكتاب يقول : من لا جنة له، فليجعل لنفسه جنة !

وهو الذى يقول : من لا يجد الأحضان الضاغطة، والشفاه الدافئة، والصدور اللينة فالطبيعة كلها أحضان وشفاه ونهود..

وكان بودلير نموذجا للشاعر الذى حرم من حنان الأم. والذى كان يغار على أمه من زوجها.. فهو محروم من الحنان.. وهو مجنون لذلك !

إن هؤلاء الشبان جياع إلى طعام عرفته الحيوانات ونسيه الانسان ويبدو أنه لن يتذكره إلا بثورة عالمية : الحنان. اسمه الحنان بلا مقابل !

والحادثة التى أفرغت اليزابيث تايلور تتردد كثيرا فى كل الدراسات الحديثة لحياة هؤلاء الشبان. فعندما احتفلت اليزابيث تايلور وزوجها ريتشارد بيرتون بعيد ميلادها، تلقت رسائل من انجلترا وأمريكا وإيطاليا وألمانيا كلها تحمل هذه العبارة : إلى العقرب الجميل من عقارب لا تموت !

وعلى سبيل الاحتياط بعثت بهذه الرسائل إلى مكتب البوليس الدولى.. وهى معذورة فى ذلك. فقد سطا عليها اللصوص كثيرا. وهى تغرى بذلك : مالها وجمالها ولكن هذه المرة لم يكن هناك أى سبب معقول لذلك.

ولكن البوليس الدولى اهتدى إلى السبب الحقيقى لهذه التسمية. فمن المعروف أن أطول فترات « تسخين » عاطفى بين ذكر وأنثى هى التى بين أنثى وذكر العقرب فالذكر يظل يروح ويجيء أمام الأنثى. فإذا التفتت إليه اتجه إليها. وراح يقترب منها ويلتصق بها. صدرا ورأسا. وفى هذه الأثناء

يمر ذكر آخر. ويحاول أن يعتدى على الذكر الأصلي. ويظل يطارده ويلسعه. فإذا مات الذكر الأصلي تقدم الذكر الجديد وراح يقوم بنفس المناورات. وإذا عاش الذكر الأصلي فوجئ بعدد من الاناث يهجمن على أنثاه ويحاولن أن يخلصنه منها. وإذا قدر لها أن تعيش، فإن القبلات والأحضان تتوقف لحظة. ويعود الذكر إلى استعراض نفسه أمامها. فإذا التفتت إليه عاود الأحضان بصورة عصبية. وهذه العصبية تجعل من الصعب عليه أن يفلت منها في الوقت المناسب. وإذا ضاقت به الأنثى - وهذا يحدث كثيرا - فإنها تلسعه فيموت. وتظل تسحبه من مكان إلى مكان.. وبعد ذلك تهجم عليه تأكله كله أو تكتفى برأسه.. وتقف في انتظار ذكر آخر..

فهؤلاء الشبان عندما اختاروا لأنفسهم اسم العقارب التي لا تموت، كانوا يقصدون أنهم يحبون ولكن دون أن يقتلهم الحب، أو دون أن يقتلوا أحدا من أجل الحب.. وإنما هم فقط يتخيلون ما لا يجدون. ويهربون مما يجدون إلى عوالم أخرى: ووسيلة الانتقال إلى هذه العوالم: المخدرات وحقن الهلوسة.. فهم يريدون الجنة دون أن يموتوا.. ويدخلونها كلما أرادوا ذلك!

وعندما حاولت إحدى قبائل الشبان أن تقيم لنفسها معبدا. اختاروا تمثالا «مكسور الرقبة واليدين».. أي فينوس التي لا تنطق.. والتي لا تحتضن أحدا. وإنما هم الذين يتكلمون ويعانقون..

ثم أقاموا تمثالا نصفيا للامبراطورة مسالينا. وكانت امرأة شهوانية. ولم تكن تكتفى برجال القصر وإنما كانت تذهب إلى بيوت الدعارة بملابس وأسماء مستعارة. وكانت تدخل في مراهنات. ويكون الرجال ضحاياها وكانت مسالينا تبكى في نهاية كل ليلة وتقول: إن نصفى العلوى يبكى على نصفى السفلى.. أننى لا أرتوى ولا أشبع.

ولذلك أقاموا لها نصف تمثال. وجعلوا نصفها العلوى غارقا فى الضحك.
ثم قلعوا عينيها. وتحتها هذه العبارة: من كان يرى بالقلب فلا حاجة به
إلى العينين!

وفى الديوان الذى صدر بعنوان «شعراء سان فرانسيسكو» يقول روبرت
تمبلهوف وهو يودع حبيبته التى قررت أن تعود إلى بيت أبيها بعد أن
علمت أن أمها تبكى من أجلها ليلا ونهارا حتى توشك أن تموت. يقول
الشاعر:

« لا أحسدك يا حبيبتي، فلم أعرف لى أما.. ولكنى أحسد أمك على أن
لها فتاة جميلة مخلصه مثلك.. أجمل ما فىك أنك أعطيت جسمك لمن
تحبين، وأبقيت قلبك لمن تحبك.. ولكننى أرثى لك، فلن يطول عناق أمك
لك. لن يطول. لقد تنبه حضنها متأخرا.. أنها اليوم سوف تنتقل إلى حضن
التراب، وسوف تنتقل صورتها على الحائط إلى حضنك أنت.. سوف تعيش
أمك وهما دائما فى خيالك.. تماما كما عشت أنت وهما دائما فى ذاكرة
أمك.. كأنه لابد أن يموت أحد ليصبح الوهم حقيقة. والحقيقة وهما..»

إنهم لم يخرجوا على مجتمعهم.. ولكن المجتمع هو الذى أخرجهم
بالقسوة. وطردهم بالانشغال عنهم. وهدمهم عندما بنى الأسرة الجديدة.
فذهبوا بعيدا معا. ليكون لهم معا كوخ يحلمون فيه بالسعادة الزائفة
ماداموا لا يجدون الحب والحنان والأحضان من أب أو أم!

فهرس

صفحة

كلمة أولى ٥

زحام.. زحام.. زحام في كل مكان

- ١٣ الدبابيس والصمغ والسلاسل
- ٢٥ لم يأخذوا علاوة فقتلوا كلابهم
- ٤٠ ليس الجوع ولكنه الملل
- ٥٠ مشكلة «هم» ومشكلة «نحن»
- ٦٠ الانسان حيواناً إهانة للحيوان
- ٦٩ أنت تعمل وزوجتك تتشاجر هذه ضرورة

ما هذا الشيء العنيف في التاريخ

- ٨٢ هل يولد الانسان مجرماً؟
- ١٠٨ هذه المسافات بين الطيور
- ١٢١ من قسوة الآباء يولد أطفال مجرمون
-

مثله تماما ولكنك عريان

صفحة

١٢٢ جعلنا للشفاة قيمة جنسية
١٥٢ من قلوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس
١٦٢ القرد والسلسلة والقرداتي
١٧٢ لولا سلامك سبق كلامك

الحب قبل الحرية والحنان قبل الحب

١٨٥ في ملامسة الناس
١٩٦ كل شيء يدعوك إلى أن تقترب
٢١٠ إنما يتعري الناس حتى لا نراهم
٢٢٠ كلمات كثيرة من قماش نراها ولا نسمعها
٢٣٢ من عينيك خرجت ودخلت هذه المعاني وغيرها
٢٤٥ هذه الحركات باليد ودلالاتها الغريبة
٢٥٦ أطباء وحلاقون واللمس المشروع
٢٦٥ من لا يجد ما يحب فإنه يحب ما يجد
٢٧٤ الملايين تدخن لسبب آخر
٢٨١ إن الطفل رجل صغير.. غلط
٢٩٠ العودة إلى الكهوف لأسباب عاطفية

كتب للمؤلف

(أ) مقالات :

- ١ - وحدي .. مع الآخرين
- ٢ - عذاب كل يوم
- ٣ - طريق العذاب
- ٤ - يسقط الحائط الرابع
- ٥ - كرسى على الشمال
- ٦ - ساعات بلا عقارب
- ٧ - مع الآخرين
- ٨ - بقايا كل شيء
- ٩ - نحن أولاد الفجر
- ١٠ - من نفسى
- ١١ - شيء من الفكر
- ١٢ - حتى أنت يا أنا
- ١٣ - لو كنت أيوب
- ١٤ - أضواء وضوء
- ١٥ - كل شيء نسبي
- ١٦ - الحنان أقوى
- ١٧ - إنها الأشياء الصغيرة

(ب) قصص :

- ١٨ - عزيزى فلان
- ١٩ - هى .. وغيرها
- ٢٠ - بقايا كل شيء

٢١ - يوم بيوم

٢٢ - يا من كنت حبيبى

٢٣ - قلوب صغيرة ..

٢٤ - شارع التنهدات

٢٥ - فوق الركبة

(ج) دراسات

- ٢٦ - الوجودية
- ٢٧ - الخبز والقبلات
- ٢٨ - التاريخ أنياب وأظافر
- ٢٩ - من أول نظرة
- ٣٠ - الحائط والدموع
- ٣١ - الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل)
- ٣٢ - وجع فى قلب إسرائيل
- ٣٣ - ديانات أخرى
- ٣٤ - على رقاب العباد
- ٣٥ - الخالدون مائة :
- أعظمهم محمد رسول الله
- ٣٦ - دراسات فى الأدب الأمريكى
- ٣٧ - دراسات فى الأدب الايطالى
- ٣٨ - وداعا أيها الملل
- ٣٩ - الذين هبطوا من السماء

- ٤٠ - الذين عادوا إلى السماء
 ٤١ - أرواح وأشباح
 ٤٢ - القوى الخفية
 ٤٣ - لعنة الفراغة
 ٤٤ - أوراق على شجر
 ٤٥ - في السياسة (جزءان)
 ٤٦ - وكانت الصحة هي الثمن
 ٤٧ - ألوان من الحب..
 ٤٨ - اظافرها الطويلة

(د) ترجمة ذاتية :

- ٤٩ - طلع البدر علينا
 ٥٠ - في صالون العقاد : كانت لنا
 أيام
 ٥١ - قالوا
 ٥٢ - ..إلا قليلا

(هـ) رحلات :

- ٥٣ - حول العالم في ٢٠٠ يوم
 (الحائز على جائزة الدولة
 التشجيعية سنة ١٩٦٣)
 ٥٤ - بلاد الله خلق الله
 ٥٥ - اليمن.. ذلك المجهول
 ٥٦ - أطيب تحياتي من موسكو
 ٥٧ - غريب في بلاد غريبة
 ٥٨ - أعجب الرحلات في التاريخ

(و) مسرحيات :

- ٥٩ - مدرسة الحب
 ٦٠ - الأحياء المجاورة
 ٦١ - حلمك يا شيخ علام
 ٦٢ - جمعية كل واشكر
 ٦٣ - مين قتل مين؟
 ٦٤ - سلطان زمانه
 ٦٥ - العبقري
 ٦٦ - كلام لك يا جارة
 ٦٧ - ترجمة «رومولوس العظيم»
 تأليف ديرنمات
 ٦٨ - ترجمة «هبط الملاك في بابل»
 تأليف ديرنمات
 ٦٩ - ترجمة «الشهاب» تأليف
 ديرنمات
 ٧٠ - هي وعشاقها تأليف ديرنمات
 ٧١ - ترجمة «أمير الأراضي البور»
 تأليف ماكس فريش
 ٧٢ - ترجمة «من أجل سواد
 عينيها» تأليف جيرودو
 ٧٣ - ترجمة «بعد السقوط» تأليف
 أرثر ميللر
 ٧٤ - ترجمة «فوق الكهف» تأليف
 تنسي وليامز
 ٧٥ - ترجمة «الامبراطور جونز»
 تأليف يوجن أونيل